

آوجو مفسوديو فيتشي

الزُهورُ

تنبتُ في البرلمانْ

شعبة التثقيف والتعبئة والاعلام

الزُّهورُ لاَ تَنْبُتُ فِي الْبَرْلَمَانْ

آوجو مفسوديو فيتشي

الْزُّهوُرُ لاَ تَنْبُتُ فِي الْبَرْلَمَانْ

شعبة التثقيف والتعبئة والإعلام
بمكتب الاتصال باللجان الثورية

الْزُّهوُرُ لَا تَنْبُتُ
فِي الْبَرْلَمَانْ

آوجو مفسوديو فيتشي

ترجمة : إبراهيم النجمي

الطبعة الأولى

1428 ميلادية

الناشر :

شعبة التثقيف والتعبئة والإعلام

بمكتب الاتصال باللجان الثورية

طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

تقـديـم

بقلم: آوجو مفسوديو فيتشي[*]

* يروق للصحفيين عادة أن يحذوا حذو الروائيين فيغرقون الصحف بالأحداث والوقائع الإنسانية فيما يؤثّر الروائيون إلى حدّ بالغ ومن حين إلى آخر في الرأي العام، بل وأكثر بكثير من أولئك الذين يطرحون ويعلنون أفكارهم وآراءهم في الصحف لكن ثمة روائيّين ينسون ـ وهم يسدون النصح ـ بأنهم روائيّون، كما أن ثمة آخرين قادرين في الوقت ذاته على تمرير رسالة جادّة وفعّالة من خلال العمل الروائي الذي يظل في كافة الأحوال عملاً روائياً.

إن (الزهور لا تنبت في البرلمان) الذي ليس بالبساطة اعتباره عملاً روائيّاً ـ ككل الأعمال ـ يظل عملاً متفرّداً وقائماً أيضاً على حرّية وإرادة الإنسان، وأنه ومثلما يعلّم لعمل إبداعيّ خلاّق، يثير الإعجاب ويقرأ دونما عناء لكن بشيء من العاطفة والشّفافيّة، كما أنّه يثير على مدى ليس بقصير ويدفع بالقارىء إلى التفكير مباشرة في النتائج.

---

(1) رئيس جمهورية مالطا الأسبق.

وإذا كان هذا العمل قد ولد في ظروف وأوضاع خاصّة فإنّه ما يزال قابلاً للاطّلاع حتى بعد أن تبدّلت، وليس ـ فضلاً عن ذلك ـ على من يطالعه إلا أن يتذكّره ذلك أنه يخلق الشخصيّات البارزة القادرة على العيش.

فـاتحة

من وراء الأسوار.

وبمنأى عن منطق الراعي والقطيع يتقدّم بيدق يدعى (كارلو مانيو) على رقعة الشطرنج ليعتلي القلعة ويشق طريقه إلى الملك رغم أنف الفيل.

طريقة مطعّمة بالسّحر والحنكة لا علاقة لها بالمراوغة وغير قائمة ـ أصلاً ـ على التّصدّي بل على المواجهة.

أجل هكذا.

فاللّعبة تقتضي أن يتقدّم البيدق من أبعد نقطة موغلة في السّماء، ينفذ بجلده من دائرة (البعد الواحد)، يضرم النار في مقاعد الدّرس، يكسر طوق التكييف العمدي للأشياء ويقطع الطريق على البيادق الواهمة كي لا تولي الأدبار من أمامه فحسب بل لا تفكر أيضاً في العودة إلى الرقعة.

تحدّي لا يقبل التفاوض، ومواجهة بأسلحة مدرّبة قائمة من أساسها على رفض مسألة ـ الغالب والمغلوب ـ وترحيل الصراع إلى منطقة الوئام حيث تنعم الأشياء بطبيعتها تحت مظلة السّلام وتذهب عصور الإِهانات أدراج الرياح دائماً وأبداً وإلى غير رجعة.

قصة ما تزال ـ وليس تقريباً ـ بعيدة عن الحواة وعالم الحواة، ليس لأنها لا يروق لها اللعب على مرأى أو بمعزل عن المتفرّجين، وليس لأنها تنوي تأسيس لعب من نوع ما، بل لأنها لا تتفق في الواقع مع فكرة اللعب ذاتها خاصة إذا ما كانت لعباً على الذقون.

ومع ذلك، ذلك وحده، فثمة أشياء على الضّفة الأخرى من النهر دائماً يتكفّل الله بمعرفتها، وليس على (كارلو مانيو) الذي لا يرى بعين الغربال ولا يجمع الحطب في الظلام إلا أن يهتدي وبالضرورة إليها.

إبراهيم النجمي

1

* صاخباً مهتزّاً ومتوالياً عقب ليل ينتظر انطلق لوحده صوت المنبّه، وكان (كارلو مانيو) أن اختطفه غاضباً من فوق المنضدة الصغير ذات الأدراج المحاذية للسرير وثبّته لمرة أو مرّتين بكلتا يديه فيما تثاءب كالعادة ثلاث مرات، وبرّق عينيه الخرساوين في ما حوله ليرى كلا في موضعه، وكان وقد تيقّظ وأحس أنه أحسن حالاً من ذي قبل أن أخرج رجليه من تحت الغطاء ومشى إلى الحمّام كما لو أنه في كابوس. حين وصل إلى حيث الهاتف ما يزال الماء لتوه يتقاطر منه.

- (أمين سرّ الإِدارة من فضلك).

قال وهو يدوّر ويلعّب السمّاعة كما لو أنه نافذ الصبر متلهّفاً للبحث عن كل ما يودّ أن يقوله ليقفل الخطّ.

- (لتبنتظر قليلاً من فضلك).

أجابه مشغّل البدّالة. التكتات المتناغمة والمتناسقة توخز مسمعه، واستطاع أن يتكلّم.

- (الإِدارة؟).

- (نعم).

- (أنا كارلو مانيو موظّف في الإِدارة اليوم لن آتي إلى العمل، مريض، مصاب بحمّى شديدة، أدرجني بأني غير قادم لو سمحت).

- (ما اسمك؟).

- (كارلو، كارلو مانيو). عاد قائلاً وقفل الخط.

* * *

- (طيباً أخالني وعلى ما يرام، اليوم لا شيء ينقصني، الضغط جيّد، الرؤية واضحة، اليوم نعمل أكثر من المعتاد، وحين تكون ثمة حاجة إلى ذلك نضاعف الجهد).

أعلن لكلبه (تشربرو)، كلبه وصديق حياته الحميم: (أنت أيضاً، كبير، تشربرو الكبير، لأنك أنت أيضاً تفعل ما تقوله لك رأسك. تعلّمت ألاّ تطيع، جيّداً تعلّمت، والآن لتحترس وإلاّ تطيع وإلا تكون قد فقدت كل شيء).

كارلو مانيو و.. تشربرو كانا صديقين لا يفرّقهما أيّما شيء، متفاهمين في كل شيء وكيفما يتّفق، رابطة لكنها ليست كتلك التي بين البشر أو بين إنسان وآخر، ولأن (كارلو مانيو) ما كان عنصريّاً فالفرق أو مسألة النّوع لم تكن معضلة، الفرق لم يكن فرق أيّما شيء. إن آراءه وتصريحاته الأكثر مفعمة بالحيويّة كان يفعلها لوحده، ومن غير ما تأثير من أحد، وكان لا يتنازل عنها قط: (لا شيء في هذه الجزيرة عدا الصّحف، كل لديه ما يقول، كل أحد يغرق

الصفحات وكأنها لا شيء، لا شيء ولا شيء غير الإِذاعة المرئيّة والمذياع، وها أنت ترى يا تشربرو، يرطنون ويرطنون، ويخرّفون. ليس ثمة أين تكتب، ولا حتى أين تتكلم، ولهذا سيكون بميسوري أن أكتب على جدران الشوارع لأن الجدران عالية ومرتفعة وواسعة، وهكذا هي الصفحات التي ينبغي أن تملاها بكل ما تريد أن تكتب كي يقرأها الكل).

وتنبه (كارلو مانيو) إلى أنه ما كان عملياً في كلامه أكثر من اللزوم ولهذا بدل في كلامه: (وأنا لهذا أتكلم إليك أيها الصديق، وأريدك أن ترى إلى كل ما أقوله وتنتقذه وتتمعنه جيداً في كل صغيرة وكبيرة، ولا تسمعه كما لو كان إنجيلاً. ذلك هو القانون الذي يصنع فرقاً ما بيننا، انظر إلى أصدقائك وصحابك الكلاب، أولئك جميعهم يطيعون أسيادهم، لكني أنا لست بسيدك، أنا صاحبك البسيط، أفعل ما تزيده، أخرج وأرجع حين تريد، كل وارقد حيث تريد، إذ يعجبك يعجبك، إذا لم يعجبك لم يعجبك، لأنه وبهذا، بالقانون العظيم، قانون عدم الطاعة نظل نحن الاثنين صديقين جليلين لا يعوزهما أيما شيء، ولتعيش جزيرتنا نحن الاثنين).

كان (تشربرو) متمرداً عن قدّيسه، يخرج من البيت حين يروق له، يطوف هنا وهنالك، وينفق وقته من غير ما يجد من يتدخل له في شؤونه، لا يعرف ما هو الطوق، يصادف أحياناً أن يدخل متجراً ويسرق قطعة لحم أمام عيني (كارلو مانيو) نفسه الذي يستمتع ويتسلى بذلك، وكان الناس يثرثرون، ويتعجبون من سيده الذي لا يحذره وينهره، ولأن سيده ما كان بسيده، وليس غير صديقة البسيط فإن كل شيء يظل كما هو عليه، وكما لو أن شيئاً لم يحدث قط.

(كلبك ذاك يا أخ!، انظر مادا يفعل، إذا لم تربطه فسوف نأتي إليك بالشرطة).

أوصوه الناس أكثر من مرة.

(الشرطة؟ أولاً وقبل كل شيء) كان يبدأ يناقش (كارلو مانيو): (ذلك الكلب هو سيد نفسه، وإذا كان لديكم أي شيء تقولونه فقولوا له وليس لي، ذلك مسئول مسئولية كاملة عن نفسه، ولم يدخل التصويت بعد، ولم يحصل على بطاقة الهوية بعد، أتعرفون لماذا؟ لأنه قرر أن يمضي بدونها، من غيرهما، ويمضي أفضل من غيرهما، ثمة حقوقاً أخرى، ومع ذلك فإنه لم يحصل عليها حتى الآن، لأنه لم يعثر على الحزب السياسي الذي يفتش عنه ويتوق إليه، دونما توقف ودونما الحصول على فوائد أو مصالح من حقوقه، لو أنه يمتلك حزباً لما أعوزه شيء، وأنا ليس في حسابي أن أفتش له عن حقوقه، إذ يريد فليفتش عنها بنفسه، وإذا وفق في الوقت ذاته أن يفعل كل ما يريد دونما حاجة إلى تلك المؤهلات الرسمية فإنني إذن أقول لكم بأنه مواطن سوى مثل الأخرين أو أفضل منهم أيضاً، مواطن متميّز لأنه قادر أن يعيش من غير وثاق.

- (مجنون). صادف أحياناً من يقول له.
- (مجنون؟. من هو المجنون؟ الكلب أم أنا؟).
- (أنت والكلب أيضاً).
- (إذا كنت تتكلم عن الكلب يا أخ، فتكلم إليه وسوف يجيبك، لأن ذلك يعرف ما هي حقوقه، وإذا لم يتكلم إليك فإن ذلك يفسر أنه لا يدرك فقط حتى كيف يلقي إليك انتباهاً، وإذا كنت تتكلم عني، فماذا أقول لك؟ إذا ما كنت مجنوناً فإن قانونكم

يسامحني وعوضاً عن السجن، أنتهي وأذهب إلى المستشفى).

- (الشرطة فقط تعرف التصرف معك، وهي ما ينبغي عليها أن تفعل). ظلوا يقولون له.

- (الشرطة، من هي؟، أليسوا أناساً مثلي أيضاً، الذين يودون عمل ما ينبغي عمله، اللهما إلا إذا صاروا مخلوقات من عالم آخر، أو ملائكة، لا تذكروا لي الشرطة لأنكم تضحكوني أو تزعجوني، لا وجود للشرطة سوى أنها إعلان اجتماعي، و.... على فكرة، الشرطة، من سيهتم بها؟).

وكان الناس يفزعون، ويرتعدون عند سماع آخر الكلام، يفزعون، ويرتبكون في آن واحد ويتوقفون، وكانوا فضلاً عن ذلك وهم يتحسرون يوافقونه الرأي ويخافون أن يقولوا له: (حسناً، صحيح، من سيهتم بالشرطة؟ لماذا ليس ثمة شرطة تعسعس على شرطة؟). قالوا في ما بينهم، ولم تعد تسمع غمغماتهم وتمتماتهم، لقد ظل كل شيء كما هو عليه، وهكذا ظل إلى اليوم، ولم يقف قط فريق من الشرطة ضد آخر. من هذه الأحداث كان (كارلو مانيو) يعثر على ما يريد، في أحيان كثيرة كان هو يخلقها، وأحياناً أخرى يجدها وقد هبطت عليه مثل ندى، لكنه أدركها وعرف بها، وما ظلت تمارس ضغطها عليه. كان بشيء من كلام رصين ومحكم وبصوت جهوري واثق يجيب الجميع.

- (أجاهز لنذهبْ، سيحين الوقت باتشربرو، وفكر مثلما تريد، لكن أقول لك أن من يرقد لا يصطاد سمكاً، اليوم سنذهب لنصطاد وإذ تريد بإمكانك أن تأتي معي، أنذهب؟). قال كارلو مانيو وتطلع تشربرو إليه، كان قد وافقه، ذلك أنه أخذ يهز ذيله

ويلعبّه ليريه أن الفكرة قد أعجبته: (خرجنا؟). عاد فاستأذنه ثم ثبّت قبعة كبيرة فوق رأسه وتناول قصبة وخيط الصيد، وانتظر ليمر صاحبه قبله وسحب الباب خلفه كان يوماً من تلك الأيام البهيجة التي لا يعوزها أيما شيء:

(أنا أعرف ما ينبغي أن يحدث، وليس هناك من يأمرني، صناعة الصيد هامة، وأكثر أهمية من يوم جلوس بالمكتب منتظراً انقضاء الوقت، اليوم أشعر أنني أحسن من قبل، وعليه ليس هناك عملاً، لأن الشغل صار متعة، والمتعة ليست عمل، هم يأمرون وأنا آمر أيضاً، كل أحد متساوٍ مع الآخر، ولا نكون كذلك إلا إذا كان كل واحد قد فتش ووجد مكانه وبالضبط ويأخذ مكانه وحده ولوحده. . . خرجنا يا تشربرو، ولا أنوي أن أتدخل لك ولا حتى في شيء، لكني أؤكد لك بأنك لا تخافا أحداً ولا تخف شيئاً).

كان واحداً من تلك الأيام البهيجة التي لا يعوزها أيما شيء غير العدل. الشوارع جميلة أكثر من قبل، الناس خرجوا إلى العمل، وما كانوا ليبدوا سوى أناس من أمثاله: إما من غير عمل، أو لم يذهبوا إلى العمل، فخوراً، بارداً مشي معه تشربرو، مشي هنا وهنالك، وتوقف حين دعته الضرورة لقضاء الحاجة:

- (لا أريدك أن أتدخل فيك أيها الصديق، لكننا إذا ما مشينا هكذا فسنتأخر في الوصول، بكافة ما تمتلكه من حقوق). قال له: (ثمة حاجة لأن تتعلم أنه أنا أيضاً لديّ حقوقي، والآن ينبغي أن أقول لك بشكل رسمي بأنا لا نأمل في أن نضيع نهار صيد كهذا، إني لألمح البحر أمامي ذا جمال أزرق، ينتظرني بلهفة كي أنفض ذلك الوجه الزيتوني وأنزل هذه القصبة وأراها تتثني

وتتعوج إلى أن تخرج السمكة التي أتمنى وأرغب. . . جميلاً البحر ما يزال). قال ثم توقف ونظر مباشرة في عينيه: (وهل تعرف لماذا ما يزال جميلاً مثلما كان في البدء؟ لماذا حتى الآن لم يأمره أحد ما. . لكن لتدعنا من هذا يا تشربرو من فضلك، ولتعجل قليلاً).

وصلا الشاطىء، أرض بيّاضة[2] مستوية ومريحة، ولا تبدو للعيان روح، صمت لا مثيل له، رقعة زرقاء فسيحة أينما ترى، تنتشر هويني وتنحسر طريّة رطبة هسهسات الموج، في غدو ورواح على الشاطىء، وكما أن شيئاً لم يكن. وفيما جنحت الشمس إلى المغيب، وتألقت حمرة المساء، وكلّلت ومن غير ما يدري أحد الفضاء بكامله، كان (كارلو مانيو) أن جذب القصبة من منتصف المياه، وكل شيء بجانبه، وامتد بكامل طوله على البلاط، وجهه إلى أعلى، وعيناه مشرعتان في البراح بلا حدود. لقد استطاعت عيناه أن تريا، وكان في مكنة عقله أن يفكر.

- (لم نصطد شيئاً، وأن هذا لا يهم، ها أنت ترى، وليس من لا يرقد فقط لا يصيد سمكاً، لكن أيضاً من يسهر، وهذا أيضاً صحيح وسليم، لأنه بعد كل شيء من حق السمك أيضاً أن يعيش. أتخيلني كنت سمكة أوقف الوقت بكامله على حظ أي حيوان من حقه وقد هدده الجوع وأعجبه أن يطعمني لثانية كي ينهشني ويميتني إلى الأبد. . . . وأكل الحياة في حلقي. حياة سمكة لا تعجبني. مبارك أنت الذي لست سمكة يا تشربرو، أوضح لك، أني نجيت منها بأعجوبة، بالكاد خلصت منها.

---

(2) بياضة: Linen من البياضات كالمناديل وأغطية الأسرة.

حين يقتل إنساناً سمكة نقول أنها لشجاعة، وحين سمكة تقتل إنساناً نقول أنها لمأساة. . .).

وظل تشربرو منصتاً وعيناه على قفة القصب الفارغة. في اليوم التالي ذهب (كارلو مانيو) إلى العمل، وصاح به السيد (تاجيلّينو) بمكتبه حوالي ربع الساعة منذ أن أخذ مكانه، وجلس إلى المنضدة منتظراً زمن الصباح الطويل الذي بدأ يمضي رويداً رويداً.

- (أدخل، أدخل).

صاح به بسيد (تاجيلينو) بصوت جليل مهيب ذي أمر حين توقّف عن الكلام في الهاتف: (لدى ناساً، سأتكلم إليك فيما بعد). قال وقطع الخط فجأة.

- (صباح الخير يا سيد تاجيلّينو) قال له (كارلو مانيو).

- (دعك من صباح الخير ولا تضيّع الوقت، لأن الوقت يساوي النقود).

حذّره الضابط بصوت عالٍ: (بالأمس لم تأتي، ماذا كان اليوم؟).

ظل (كارلو مانيو) صامتاً لفترة، حاول أن يتطلع من حوله كما لو أن الحديث لم يعجبه، ومرّر عينيه من ناحية إلى أخرى متفحصاً الغرفة.

كان فوق رأسه مباشرة ثمة إطار ماهوغاني(3) من غير زهور وشمعة قدّامه لصورة وجه مقيت وكئيب.

---

(3) ماهوغاني: Mahogany بني ضارب إلى الحمرة، والإطار من شجرة الماهوغاني ذات الخشب الصلب الذي يصنع منه الأثاث الفاخر.

ـ (ماذا تريد أن تقول لي؟). حذّره الآخر بصوت فظ.

ـ (أهكذا؟).

ـ (لم أفهمك، ماذا لديك ما تقوله لي؟، إني لأكَرّر لك، ومن فضلك لا تضيّع وقتاً طويلاً من الزمن والعمل، لأن الإنتاج سيقل، الوقت يساوي النقود هنا في الداخل). كاد السيد (تاجيلينو) أن يفقد صبره.

ـ (هتفت باكراً في الصباح لأَعلمك بأني لست قادماً).

ـ (والسبب؟).

ـ (القصد تعني؟).

ـ (السبب، القصد، فسّر مثلما تريد، لماذا لم تأتي).

قال بنبرة جافة وقاسية.

ـ (اسمع يا سيد تاجيلينو، إذا كان لديك ما تعمل فأنا أيضاً لديّ ما أعمل مثلك بالضبط، وأكثر بقليل، السبب ذكرته بالأمس بالهاتف، ومن ذلك الوقت إلى الآن نسيته، إسأل من كلّمني بالأمس وسوف يقول لك إذا كان ما يزال يتذكّر).

ـ (هكذا تتكلم إليّ؟ أتصل إلى أن تتكلم معي هذا الكلام؟).

صرخ السيد تاجيلينو لما استوى قائماً وعبس قدر ما استطاع وبسط راحتيه فوق المنضدة ناشراً أصابعه.

ـ (هه). تمتم كارلو مانيو: (كيف تريدني أن أكلمك؟ اسأل من ردّ على الهاتف، لأني نسيت الآن ما قلته بالأمس، من الأمس إلى الآن يمكن أن تكون قد قامت حرب عالمية، ومصادفة لم تقم وأنت تكون قد مُتُّ ـ وما تزال هنا ـ وأنا كان في مكنتي أن

أكون بدلاً عنك، وسقطت الحكومة وعادت فنهضت. على أية حال، كم من أشياء كثيرة خلقها الله تحدث، ثم، ثم تأتي أنت، هكذا بارداً وغير مكترث لتسألني ماذا قلت بالأمس، ولماذا لم آتي بالأمس. . . لتدعنا من هذا يا سيد تاجيلينو، ولا تضيّع وقتاً أكثر لأن لديّ أوراق عمل ما تزال تنتظرني).

ولم يكن السيد تاجيلينو ليحتمله أو يطيقه، وهو لهذا بدا من ناحية إلى أخرى يذرع أرضية المكتب فتارة يداه معقودتان خلف ظهره، وتارة أخرى مرفوعتان تلوحان أمام وجهه. منزعجاً، متضايقاً كان إلى حد وصل فيه إلى أن يفقد شعوره، لأن إجابة كهذه من (كارلو مانيو) لم يكن لينتظرها ولا حتى ليتوقعها. إنه كضابط كبير في الدولة يدرك أن الجميع يقدره ويبجله باستثناء الذين من فوقه، لكن أولئك كانوا يكبرونه، وكلما صعدت إلى أعلى كلما وجدت أناساً أكبر، والكبار بالطبيعة لا يستطيعون تقدير وتبجيل الصغار، لأن الكبار كبار.

- (أنت تعرف بأني أمتلك القدرة على تعذيبك، سأتهمك بالتمرّد والعصيان على سيّدك، أنت تعرف سيّدك).

- (أي سيّد؟).

- (أنا، أنا سيّدك، ومن الآن بالتحديد سوف تعرف من هو سيّدك، وأية قوة وسلطة لديه، أنت موقوف عن العمل، وبإمكانك أن تذهب إلى البيت، ومن أين أتيت).

- (أشكرك شكراً جزيلاً على هذا المعروف يا سيّد تاجيلينو، أنت رجل مؤدب ومهذّب إلى درجة كبيرة لأنك تمنحني تصريحاً من الآن لأذهب فيما بعد إلى البيت، شكراً جزيلاً. . .).

- (ليس بإمكانك أن تذهب إلى البيت، لكن ينبغي أن تذهب تعتبر موقوفاً عن العمل، وهذه ليست إجازة، بل عقاباً).

- (لماذا ليست إجازة إذا لم آتي إلى العمل؟ العقاب استحقه عندما آتي إلى هنا وليس عندما لا آتي).

- (عقاب، عقاب، هذا هو عقاب، أنت موقوف عن العمل، وينبغي ألا تقول لأحد ما بأني منحتك إجازة...).

- (حسن جداً، أعدك بأن لا أقول لأحد، لندعها بيننا سراً، لاسامح الله أن تمنح إجازة لكل واحد، على أية حال، أتكلم إليك، يا سيد تاجيلينو، ألا أستطيع أن أذهب لأصطاد، وأخرج مع تشربرو؟).

- (تشربرو، هذا يخدم معك؟ من هو؟).

- (لا، تشربرو، مسكين، بدون عمل...).

- (بدون عمل؟). تنهد السيد تاجيلينو).

- (لم يعمل قط، حظه سيء، أين تريده أن يعمل).

- (هه، تريد أن تقول أن ثمة بطالة في هذا البلد، وتريد أن تنتقد الحكومة إذا صح ذلك؟).

- (لا، لا، يا سيد تاجيلينو، لم يكن ليخطر حتى ببالي مثل هذا، أكنُّ للحكومة كل التقدير والاحترام، في كل وقت وفي كل لحظة).

- (إنه لمن دواعي سروري أن أراك تتدخل هكذا، وتقول هذا الكلام). قال السيد تاجيلينو وقد عاد إلى وضعه السويّ: (الآن، لتحكّم عقلك). قال له في حين خفض من صوته، ثم

تبسّم شيئاً فشيئاً، وتطلع إلى عينيه: (على أية حال، هل أنت معنا؟). سأله بعد أن ذهبت عنه فورة الغضب فجأة وأخذ يفكّر ما إذا كان يستطيع بعد كل شيء أن يسامحه، فيما ظل (كارلو مانيو) صامتاً، وعلى وجهه أمارة من لم يفهم.

- (والآن، الآن، قل لي، هل أنت معنا؟).

- (معكم، أنتم، من أنتم يا سيد تاجيلينو؟).

- (نحن، من نحن، اتجرؤ على أن تسأل من نحن، لا داع أن أقول لك، إهانات، ولا داع أيضاً ولا أهمية لأن أسألك، أو أواصل أن أسألك، أسمع، لا تنس، لأني كنت لتوى قد نسيت، أنت موقوف عن العمل، أنت لن تنسيني، لا عليك...).

- (أأمل يا سيد تاجيلينو ألا تنسى، لأنك بهذه الإِجازة التي وعدتني شغلتني ودوختني).

- (موقوف موقوف، بالسلطة وبالتخويل من الدولة، وبما أمتلكه من قوة من الدولة أستطيع من الآن أن أعلن لك بأنك موقوف، وأيضاً دعني أفعل شيئاً آخر، كي أريك كم أمتلك من سلطات جبارة وكبيرة قد منحت لي من الدولة: سأصدر بياناً مكتوباً، وهكذا أفضل).

- (هكذا أفضل، مكتوباً، من المؤكد أنك لا تنسى يا سيد تاجيلينو، وأنت بذلك ستريح لي مخي، أيضاً، هل لديك ورقة وقلماً؟ آه هنا، خذ، لدي قلماً) أعطاه (كارلو مانيو).

- (لا، لا، ينبغي أن تكون ورقة وقلم الدولة وليست هذه، هذه لا تنفع).

- (عفواً يا سيد تاجيلينو، هذه الإِجراءات لم أكن لأَعرف بها، كم هنا ثمة أشياء تتعلمها في الحياة).

فتح الضابط ذو الرتبة العالية درج المكتب، وأخذ يقلّب الورق وأخرج واحدة نظيفة، نظيفة، بسطها أمامه، وبسط راحتيه فوقها ليسوّيها جيداً، ثم انتزع من أمامه ومن حاملة الأقلام قلماً جميلاً، وانتزع النظارة ومسح عينيه، وعاد فوضعها فوق أنفه ورفع نظره حتى السقف، وفي ما حول الغرقة، وإلى زاوية الغرفة أيضاً.

- (اليوم). ووقف، ومرّر عينيه في الغرفة مفتشاً عن التقويم المتدلي في مكان ما، ولأنه تعلم التاريخ عن ظهر قلب فقد وضعه كما هو، وكتب: (بمكتبي وبما خولتني الدولة من سلطات تنفيذية وبناءً على ما ورد بالمادة الخامسة من قانون العمل أعلن بأن (كارلو مانيو) موقوف عن عمله...).

حين فرغ من كتابة الرسالة أنثني إلى الخلف على الكرسي ذي الذراعين ونظر نظرة كبرياء إلى الورقة وعاد فقرأ كل ما كتبه بهدوء. كان يبدو فرحاً وهو يرى الصفحة مملوءة أمامه، ثم تناول بعد ذلك قلم حبر ووقّع بحركة دراماتيكية ومذهلة بيده التي أخذت حيّزاً كبيراً بقاع الورقة. كان التوقيع بحد ذاته أوبرا من فنون باروكية[4] تتطلب مجهوداً جسدياً وتربك وتحير من يرى إليها وتدهشه، ولم يكن له غير أن ينفخ التوقيع ليجفّفه ثم جف. كان (كارلو مانيو) منفجراً ضحكاً من الداخل، جاداً من الخارج وكان قد ظل فاغراً فاه مدهوشاً من قدرة هذا الإِنسان الذي كله ذكاء وفطنة. ورفع السيد تاجيلينو نظره

---

(4) باروكي: Baroque أسلوب في التعبير الفني ساد في القرن الـ 17 وهو يتميز بدقة الزخرفة وغرابتها (في فن العمارة) وبالتعقيد والغموض (في الأدب).

قليلاً قليلاً من فوق المكتب وقال له بالمناسبة وقد علت وجهه مسحة من غضب: (الآن بإمكانك أن تذهب، اعتباراً من الغد لا تأتي إلى العمل. . .).

ونهض (كارلو مانيو) من على الكرسي، حيّاه وخرج في حين عاد السيّد تاجيلينو فنفخ التوقيع. هذه المرة بنفس طويل جداً، وفرح لنفسه.

2

* في إدارة السيّد تاجيلينو كل شيء يسير على ما يرام وبشكل خرافي: الساعات تدق في الحين، صنابير المياه تدور جيداً، الأبواب تنفتح وتنغلق، المصابيح تضيء، المراوح تدور بخفّة في الصيف، المدافىء تسخّن وتحرق وتكوى في الشتاء. هذه الأشياء مجتمعة وفي آنٍ معاً مثل تعشيقة(5) في قطعة أثاث، على أنها ما كانت سوى مظهر واضحاً لهذا النظام الجاد والفعّال أو الصرامة والانضباط الذي كان السيد تاجيلينو وفيّاً مخلصاً له حتى الموت، والذي وفّق أن يرثه عن سلالته، ويحذو حذوها بالكامل. بعد بضع دقائق كان هو أيضاً جالساً أمام المنضدة اللاماعة الخاصة بحضرة جنابه.

- (أدخل، أدخل يا تاجيلينو).

قال له سعادة (رودو مونت):

- (شكراً، شكراً، صباح الخير يا حضرة...).

قال السيد تاجيلينو وقد خفض رأسه وعقد يديه فوق صدره،

---

(5) تعشيقة Dove tail joint - Mincott.

وشرع يرى إلى لا شيء.

- (دعك من صباح الخير، لا تضيع وقتاً، لدي عملاً كثيراً، وليس بوسعنا أن ننفق الوقت في المجاملات. إنتاج. إنتاج).

وانتفض السيد تاجيلينو مثلما يحدث له عادة، ومن غير أن يوفّق ليعرف، وعض على شفتيه، وبدا يأمل في أن هذا الانفعال الذي لم يكن غير عادة سيجد سبيله ويذهب عنه مثل سحابة خفيفة من فوق صاحب السعادة. وحاول وهو يخمّن إذا ما كان منزعجاً أكثر من مرات سابقة، بينما يحاول متذكراً ماذا كانت واجباته السرية وحديثة العهد، لكنه لم يوفّق أيضاً.

- (إيقاف (كارلو مانيو) عن العمل، فكّرني، فكّرني قليلاً يا تاجيلينو، أشياء كثيرة لدي للعمل، هذا بلد كبير، كبير جداً كي يحكم ويقاد، الإِدارة شيء من الصعوبة بمكان، المسئولية التي ليس بمستطاعك فهمها وإدراكها، نحن فقط لا غير نعرف ماذا يعني أن يكون لنا بلد قوي فوق أكتافنا، نحن فقط. الإِيقاف عن العمل، فكرني، فكرني...) ومرّر صاحب السيادة (رودومونت) أصابع يده اليمنى فوق جبهته المتجعّدة، وسرد له السيّد تاجيلينو وبإيجاز القصة بكاملها. مرات كان يتلعثم، ومرات أخرى يكرّر ويعيد فيما يتحرك ويدور رأسه على نحو مستمر، وشيئاً فشيئاً من زاوية المكتب التي تتبدّل وتتنوّع حتى آجر الأرضية أمامه، ثم دس يده في جيب السترة وأخرج نسخة من رسالة الإِيقاف عن العمل التي كتب، فيما دس حضرة (رودومونت) هو الآخر يده في جيب السترة الأمامي وأخرج النظّارة فوضعها فوق المنضدة، وتلوى من ناحية إلى أخرى وأخرج منديلاً ملفوفاً ومسح الزجاج، ثم رفع النظارة حتى

مستوى السقف ليرى العدسات نظيفة وتلمع، نافخاً الزجاج عاد فدوّر المنديل مع الزجاج، ووضع النظارة فوق أنفه.

- (هات تلك الرسالة، أسرع، أسرع. .).

- (ها هي يا حضرة). قال له الآخر بارتباك، وبخفة لا مثيل لها، نهض من فوق الكرسي والتصق به كثيراً وإلى أسفل عينيه.

- (كم تكتب كتابة رديئة يا تاجيلينو، إذ تستمر هكذا فسوف وأوقفك عن العمل، ثمة حاجة لأن أبعثك في دورة إلى الخارج حتى يتحسّن خطّك، أمتن كثيراً حين أرى إلى خط منسق ونظيف في رسائل واضحة ومدوّرة حيث ثمة فراغاً بين كلمة وأخرى. ألا تتذكر كم كنا نكتب كتابة جيدة ونظيفة عندما كنا بالمدرسة؟ أنا كنت أكتب رسائلاً طويلة وطويلة وأفسح مجالاً لسطر، وأترك هوامشاً و. . . أنظر كيف أفهمك، لتبدأ تكتب جيداً، وإذا ما كتبت بحروف منفصلة يكون أفضل لأني أستطيع أن أقرأ بدون صعوبة، وسوف أمنحك شهراً حتى تهتم بكتابتك وبخطك، ثم أفكر بعد ذلك في إيقافك عن العمل، ها، خذها، وأقرأها لي أنت، لا أستطيع أن أتعب عينيّ في هذه الفوضى عندما تكون الدولة في حاجة ماسة إليها، أسرع وأقرأ). وناوله رودومونت بعد ذلك الورقة، وانتزع النظارة ومسح عينيه، كما لو أنهما مرهقتان من العمل، وبدا يتطلع إلى السيد تاجيلينو منتظره أن يبدأ، وكان له مظهراً عصبياً.

تشجّع السيد تاجيلينو وقرأ كل كلمة.

- (جيّدة، جيّدة، هذه الرسالة، جيّدة على أية حال).

قال له لما انتهى من قرائتها: (لكن ينبغي عليك أن تذكّرني بها

مرة أخرى، بالنسبة لهذه المرة أغفر لك، مرة أخرى لا، فضلاً عن ذلك سأكتبها بنفسي مرة أخرى، وأعتمدها بتوقيعي).

- (لتسمح لي يا حضرة، هذا ليس تقليلاً من قيمتك، أنت تعرف مدى ما أكنه لك من تقدير واحترام).

- (أعرف، أعرف). أعلن (رودومونت) بكبرياء.

- (خطرت لي فكرة). عاجله السيد تاجيلينو كي يغطّي ما أرتكبه من خطأ: (أنظر في ما أفكر يا سيادة رودومونت: (من يدري عندما تكتب أنت رسالة أيضاً، فسوف تكون رسالتك أكثر أهمية من رسالتي..

- (طبيعي، طبيعي..) قاطعة الآخر فجأة بابتسامة واثقة.

- (رسالتك تكون القرار النهائي، هكذا يبدو جيداً).

قال السيّد تاجيلينو، وكاد أن يعتذر، وكان رودومونت صاحب السعادة قد أفهمه بما يكفي كثيراً عن التكفير عن أخطائه. ولفترات قليلة لم يكن ثمة صوت بالحجرة. وقام رودومونت من أين كان دافعاً الكرسي خلفه وأخذ يتمشى من ناحية إلى أخرى:

- (اكتب، أكتب). أمره.

وفتش السيد تاجيلينو سريعاً قلم حبر وورقة وأخذ وضعيّة كاتب في انتظار نزول الوحي والإلهام من الفم المهيب والجليل.

- (لا، لا، يفضّل أن نطبعها، هذه المرة نطبعها كي تبدو جادة أكثر ومثيرة، ثم بعد ذلك، بعد ذلك أوقّعها).

كان في عقله ضجة لاتعرف، وكانت الرسالة مكتوبة بسرعة كي تبدو لكل أحد كم هي نادرة وجيدة كتابة يده، وكم تلك اليد سريعة

حيث ليس لديهاوقتاً تنفقه.

- (كم خطرت لك فكرة طيبّة يا سعادة رودومونت، أنت إنسان ذكي حقّاً ومتقد الذهن).

- (هكذا يقولون، هكذا يقولون). أعاد وتبسمّ.

- (هكذا هي، هي حقاً، خبرة واضحة وجلية يا سعادة رودومونت).

وانحنى السيد تاجيلينو فوق الآلة الكاتبة وبدى يبحث عن حروف الآلة الكاتبة الواحدة تلو الأخرى، فيما اجتاحت صاحب السعادة موجة من الأفكار، وأخذ يملي عليه، واستطاع الآخر وهو يطبع أن يتابعه بالكاد. وفرح الاثنان بالرسالة وقرآها مرتين أو ثلاثة حتى نظر كل منهما إلى الآخر، مقتنعين بأنهما قد أنجزا عمل اليوم بإتقان، وفي لحظة ردّ صليب.

- (أتشرب كوب شاي يا تاجيلينو؟).

- (إذا تفضلّت يا حضرة).

- (اثنين بالحليب ومن غير سكر). ضغط زراً أمامه، وسأل الطلب: (انتظر، انتظر قليلاً) التفت إلى السيد تاجيلينو مفكراً كثيراً: (حاجة مهمة جداً ضاعت منا).

وأحس السيد تاجيلينو دمّه يتجمد عبر جسمه مرة أخرى، وخرست عيناه وتطلع مباشرة في وجه سيّده، متلهفاً سماع أول كلمة، متشوقاً إلاّ تكون الخطيئة هذه المرة خطيئته.

- (كارلو مانيو معنا أم معهم؟).

كان سؤالاً حرجاً للغاية، وتبكّم، وما كانت لديه قدرة ما على

الإِ جابة.

ـ (معنا أم ليس معنا؟). أراد صاحب السعادة أن يعرف.

وظل السيّد تاجيلينو صامتاً، شفتاه مطبقتان بأحكام، مدهوشاً، مبهوتاً: (لم أكن أفكر في هذا في الواقع، لا أعرف، لا أعرف).

ـ (لا تعرف، لا تعرف).

إن زمن الغضب قفل عائداً، فقط كقانون مكسور، عمداً من أزمنة سكون وهدوء الضمير. فالسلطة والغضب يسيران يداً في يد.

ـ (معنا أم ليس معنا؟، أجبني، نقول نحن، وأية صحف يقرأ أيضاً في الصباح؟).

ـ (لا يحضر معه صحف يا سيادة رودومونت).

ـ (هل صادف أن رأيته متطلعاً بفضول إلى صحف صحابه؟).

ـ (لم أره مطلقاً يفعل ذلك).

ـ (لكن كيف لا تستطيع أن تعرف شيئاً مثل هذا يا تاجيلينو؟).

بدأ فخامته يسخن من جديد، وكان صوته الآن عالياً، وكان يغضب من حين إلى آخر، يغضب ثم يعود بعد ذلك فيهدأ كي يعود ليغضب من جديد، وهكذا كان كل من يقترب أو يلتصق به، لا يثق في أن تكون له ثقة كاملة به. أن طريقته كانت إذا ما كان أيما أحد مثل السيد تاجيلينو له حاجة به فلا يدعه يقترب أو يلتصق به كثيراً.

كان ثمة صمتاً آخر يمكنك تقطيعه بالسكين.

ـ (عندما لا يجد ماء في الصنبور يتذمر؟).

ـ (لا أعرف ما إذا كان يتذمر).

- (أو يسر لذلك؟).

- (لا أعرف ما إذا كان يسر).

- (وهل صادف أن سمعته ينتقد أي شيء نعمله؟).

- (لم أسمعه قط. . . .) كان السيد تاجيلينو مرتبكاً للغاية.

- (لكن كيف يمكن هذا؟ إذن فهذا كله يعجبك؟ أية حاجة، أية مرة، أية كلمة، على الأقل أية كلمة. . .).

وفكر سيادته بصوت عالٍ وعصبي:

- (إذن ذلك ـ وبشكل ما ـ لا ينبىء أو يظهر أنه يتقلّب من ناحية إلى أخرى؟).

- (أنه لسويّ بالمرة، لا يشعر شيئاً، لا ينضم ولا يناصر أحد، ولا ينتقد أحداً).

وتوقف سيادة (رودومونت) فجأة مزهواً ومفتخراً برزانة ووقار لكل كلمة قالها هو ذاته.

لحظتها انبثق في ذهني الاثنين مشهدٌ لبرج بياسا[6] مائلاً. لكن في أي اتجاه؟ وتمنى السيد تاجيلينو أن يعمل ما في وسعه ليعرف.

- (ومتى أعلنا حرباً على أمريكا ماذا قال؟).

لم يقل السيد تاجيلينو شيئاً.

- (وعندما أعلنا حرباً ضد السوفييت؟).

---

(6) برج بياسا. Torri. Ta'pisa: واحدة من القلاع الصغيرة وأبراج المراقبة في عهد فرسان القديس يوحنا أقيمت لمراقبة الأتراك القراة، (19) منها بمالطا و (5) بجزيرة جوزو (الهودج).

وظل فم السيد تاجيلينو مغلوقاً، في حين تعالت دقات قلبه، وأحس كل ما فيه مرتعداً.

- (وماذا قال عندما قررنا عدم ضمان وإمكانية قيام حرب عالمية ثالثة، ونحن لتونا في المنتصف، بينهم تماماً، متساويّ البعد؟).

وظل السيد تاجيلينو مصعوقاً قدّامه، ثم أمال رأسه قليلاً، قليلاً مثل جندي منتصر وتمتم لوحده وبالكاد يمكن سماعه: (لا أعرف، لا أعرف...).

- (لكن هذه حاجة جادة للغاية وجادة كثيراً، ثمة حاجة لأن يناصر هذا الإنسان أيما أحد، لا يمكن أن يعيش في هذه الحياة، وتكون تخصه لوحده، يبدو أن لا وجود لنا بالنسبة له، من هو، ومن يعتقد كي لا يتقلّب أو ينقلب لأية ناحية؟).

قال ذلك، وقد استشاط غضباً وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ملوّحاً بيديه الاثنتين: (هذا هو الخائن الذي ينبغي أن نحتاط منه أكثر من ذي قبل... لكن، أفهمني، أنا لا أستطيع أن أفهم كيف أنه ليس معنا أو ليس معهم، أنت لا تلصلص، وتتحرى بما فيه الكفاية يا تاجيلينو، لا، لا، أنت لم تفتح عينيك وأذنيك كما ينبغي).

وبذل السيد تاجيلينو مجهودات كبيرة كي يتذكر، وكان قد استدعى عون الخيال مع قدرة الذاكرة.

- (أتذكّر، أتذكّر لتوّي يا حضرة رودومونت، أتذكر الآن ذلك اليوم الذي أوقفته فيه عن العمل...).

- (هه، هه، هه).

قاطعه رودومونت (كن حذراً ومتيقظاً لما تقول، لست أنت الذي

أوقفه عن العمل، السلطة ليست بيدك وأنت لست غير ضابط) شرح له بهدوء: (بالسلطات التي تتلقى مني بإمكانك أن توقف أحداً آخر عن العمل، إسمع، مثلاً، إذا أردت أنا الآن وفي الوقت ذاته بمقدوري إيقافك أنت عن العمل، هه، هه، هه. تلك هي السلطة، لكن لا أفعل ذلك، ولكن أيضاً، وإذا ما أردت أستطيع أن أفعل، تابع، تابع يا تاجيلينو).

- (الحق معك، اعذرني يا حضرة..).

أجابه بخرس، ثم استجمع كل شجاعته وتابع:

- (كنت أقول لك أنه في ذلك اليوم الذي ناديته وامتثل أمامي سألته ما إذا كان معنا أم لا...).

- (نعم، نعم).

- قفز رودومونت بحماس جديد.

- (لقد سألته، هل أنت معنا؟ أتذكّر).

- (إذن تعرف، تعرف مع من هو، كل هذا الوقت، تتكلم إليّ وتقول لي ليس لديك أية دراية مع من هو؟ تابع).

- (عندما سألته ما إذا كان معنا أم لا عاد فسألني: وأنتم من أنتم؟) قال ليَ، ولم أتمكن بعد ذلك من معرفة أيما شيء منه).

وما أن سمع حضرة رودومونت هذا الكلام حتى أحس بدمه يفور في عروقه: (هل يمتلك وجهاً ليسأل هذا المواطن الوضيع، دودة الأرض هذه، الذي يتوجب عليه أن يشكرنا لأننا ما نزال نبقى عليه حياً، نطعمه ونلبسّه، ونعلّمه، ونعطيه المرتب؟ ألا يعرف من نحن، نحن، يا للوجه الصفيق الذي لا يستحي، خسيس، وضيع،

حقير، أقول لك إننا طيبون كثيراً، وقلوبنا رحيمة، وعطوفة للغاية مع الناس. انضباط، أمر، طاعة، بهذا يعرف من نحن هذا المواطن اللاشيء، هذا هو الذي يدفع بالديمقراطية إلى الأمام). قال بصوت عالٍ، وعنترة: (كان عليه أن يستح، يستح كان عليه ويعرف من نحن). أعاد السيد تاجيلينو كي يرضي معلّمه.

- (ليس «من نحن» لكن «من أنتم» تريد أن تقول، أنت أيضاً لا شيء يا تاجيلينو، نحن، نحن كل شيء، نحن الذين نأمر) شجعه سيادة رودومونت.

- (حقاً، حقاً، كان يتعين عليه أن يستح، ألا يعرف من أنتم، من أنتم).

أعاد وعيناه مفتوحتان باتساع، مركزتين على وجه رودومونت المدوّر الأحمر: (أنتم، أنتم، أنتم). طفق يقول وعيناه مثبتتان أكثر وأكثر. وكانت الكلمة قد دوّت، وبرمت ودارت وهبطت في القاع، في قاعه بالضبط، حتى وجدت مكانها ثقيلاً وأحسها تخربشه. كان على رودومونت الآن أن يكون سعيداً، وكان السيد تاجيلينو قد استطاع أن يطمئن لبعض الوقت.

- (هكذا نكون نحن، نحن الذين نعرف ما يحتاجه الوطن ونفكر فيه دائماً في صحونا ومنامنا، دعني أعلّمك قليلاً، يا تاجيلينو، حتى إذا ما حان الوقت تكون عرفت كيف تتكلم، وتكون حذراً من مواطن خائن مثل (كارلو مانيو)، سوف أقول لك).

قال له وسبّابة يده اليمنى أمام وجهه، ومشيرة إلى السقف:

- (سأقول لك حتى لا تأتي فيما بعد وتقول لي أنك لا تستطيع التعامل مع أناس من أمثاله، إن ثمة حاجة لنعلّمكم أنتم، أنتم

الذين من تحتنا، لأن هناك كثيرين لا يعرفون الحقيقة، أو أنهم يعملون على تحريفها، انظر). توقف قليلاً: (تخيّل عائلة، تصوّرها).

صرخ بصوت عالٍ وبنبرة تساؤل وأمر.

- (عائلة، إني لا أتصورها الآن).

قال السيد تاجيلينو وقد قفل عينيه في الحال.

- (افتح عينيك، لماذا تغلقهما؟).

قاطعه جناب رودومونت.

- (حتى أتخيّل...).

- (افتحهما) قال بشيء من اللياقة: (العائلة مكونة من أم وأب يرعيان ويهتمان بأولادهما، الأم والأب، تابع لتتصور يا تاجيلينو، هم، هم نحن، الحكومة، نحن الذين نهتم بكل شيء وهم...).

- (حقاً، حقاً، وهم...) كرّر بعده بدقة.

- (أعني أنتم، أنتم يا تاجيلينو، لأنك أنت واحد منهم، لا تنس). قاطعه في الحديث.

- (ونحن بالطبع).

قال السيد تاجيلينو مطمأنه.

- (وأنتم الأطفال، نحن الآباء وأنتم الأطفال).

توقف رودومونت لبعض الوقت واستراح، وكانت عيناه مثبتتين بدون انقطاع فوق وجه موظفه: (أفهمت الآن كم هي واضحة

وجلية، وإذا ما كنت قد أسرعت قليلاً وأنا أفهمك أو كان حديثي صعباً ومعقداً بالنسبة لك فقل لي ولا تخف، فلربما أبدأ من البداية. . .).

- (لا، لا، فهمت يا سيدي، أظن أني فهمت كل شيء).

- (أكيد).

- (أكيد، أكيد، لتطمئن يا سيادة رودومونت، إنك بحق لتشرح جيداً، وتصوّر لي كل شيء أمام عيني، كما أنك تمتلك في الواقع مواضيعاً رائعة وجميلة).

- (هكذا يقولون لي، كل واحد يقول هكذا. . . باستثناء ذوي الجهة الأخرى، هم).

- (أولئك غيورون يا صاحب الفخامة، لأنهم يعرفون مدى ما تمتلكه من قدرة، والمهم، والأهم أن من حولك يجلّونك ويعلونك ولا أحد منهم يجد فيك عيباً أو نقصاً).

وتبسم فخامة رودومونت بزهو، وقال.

- (على فكرة، كنا نتحدث عن (كارلو مانيو) وعما إذا كان معنا أم معهم).

- (ليباركك الله، كم لديك ذاكرة طيبة يا سيدي، فلقد نسيت لتوي إننا كنا نتكلم بالذات هكذا).

وعدّل السيد تاجيلينو من وضعه على الكرسي، وأعدّ نفسه كي يعود ليسمع الحديث.

- (إني لأَفكر في خطة).

قفز رودومونت وقد ملأت ابتسامة فرح وجهه بالكامل: (إني

لأَفكر، إني لأفكر، سأجلعه موقوفاً عن العمل لأيام قلائل، ثم يدخل العمل كما هو وضعه هنا يا تاجيلينو، نلاحظه ونراقبه عن كثب، ونكلف أحداً ما أن يفتح عليه عينيه وعلى وسعهما ويحصى قدر إمكانه كل صغيرة وكبيرة عن سلوكه، وسوف ترى كيف أنه سيكتشف ما إذا كان ضدنا، ونضعه في وظيفة بحيث يتحتم عليه أن يظهر أو يعلن مع من هو، ومع أية جهة أو إلى جهة يتقلّب بالتأكيد. إنه لا يمكن أن يكون ليس معنا أو معهم، ولا حتى بمستطاع أناس من أمثاله أن يوجدوا، وإذا ما وجدوا فإن ألسنتهم تكشفهم وتفضحهم).

- (لا يمكن أن يكون فقط مولياً اهتمامه للبلاد يا سيدي).

قال السيد تاجيلينو مؤكداً، فرحاً بالفكرة الجديدة التي برزت له كما لو أنها اكتشاف وطفقت تذرع لسانه.

ودهش رودومونت وبدأ يتلعثم:

- (نعم، بالتأكيد، نعم، يمكن أن يوجد أناس مثل هؤلاء، يمكن، يمكن، يمكن). قال بشيء من شك: (لكن - وهنا - يتعين عليك أن تكون متيقظاً لتفهمني جيداً، لكن من هو الوطن؟).

- (أنتم، أنتم يا سيادة رودومونت، أنتم الوطن).

أجابه على نحوٍ خاطف وبإخلاص وتفانٍ.

- (أحسنت، ماهر أنت يا تاجيلينو، وذكي، نحن الوطن، والوطن هو نحن، إذن من ليس معنا ليس مع الوطن، هل فهمتها؟).

ـ (كم لديك من قول حسن وبديع يا حضرة، يا للمخ النظيف والقوي).

وعاد حضرة رودومونت فبدأ هانئاً مقتنعاً وغرق في الكرسي ذي الذراعين متطلعاً في الفراغ، وكان السيد تاجيلينو الجالس على الكرسي بمواجهة المكتب كما كان، والذي اكتشف أنه موليه ظهره قد نهض بخفة لا مثيل لها ودوّر كرسيه كي يكون وجهاً لوجه مع سيده.

ـ (أتمنى ألاّ يعود فينهض ويدور حول المكتب).

فكر السيد تاجيلينو في ذات نفسه وبشكل جاد وكانت لديه رغبة لا مثيل لها في أن يجد وسيلة للخروج من الغرفة.

ـ (لدي خطة، أقول لك، إسمع، حتى الآن، من هم موظفونا الذين يستطيعون أن يضعوه تحت أعينهم، خذ مفكرة، وبإمكانك أن تذهب).

خربش السيد تاجيلينو كلمتين في ورقة ونهض وخرج سعيداً لأنه ترك انطباعاً طيباً عند حضرة رودومونت، ومقتنعاً وممنوناً لأنه استطاع في النهاية أن يخرج من أمامه. وما أن قفل باب الغرفة حتى سحب نفساً طويلاً، وأحس ريحاً باردة تتسرب إلى أعماقه.

3

* أيام الإِيقاف عن العمل ظلت تطير أسرع من العصافير، وما كان هذا ليعجب (كارلو مانيو) الذي تمنى ولآخر دقيقة أن يقتنص هذه الفترة الذهبية التي وصلت إليه فجأة لتوها، وهكذا أخذ يستيقظ باكراً قدر المستطاع، يغتسل سريعاً، يشرب الشاي وينطلق إلى الخارج، مرة جانب البحر، ومرات أخرى في قلب الجدران الخربة، هو ذات الشيء الذي كان ينشده: الصمت. ليس ثمة زحمة وحشد من الناس هنالك، وحتى في أيام العمل ما كان بمقدور شيء أن ينتزع هدوء وعزلة الأنحاء. إن ماضي الكتب الجميل ومستقبل الحلم الملون كانا يلتقيان هناك مثل عاشقين بعيدين عن الحاضر الرتيب.

- (قلت لك يا تشربرو أكثر من مرة وأعود فأقول لك إن هذه هي الحياة الصادقة، الحرية، تقوم من رقادك حين تريد، تعمل ما تريد، لا تفكر، ولو كنت مكانك فلن أنسى هذا الإِيحاء. الحرية هي النفس الذي يشعرنا ويطمئننا بأننا ما نزال أحياء، وحين نفقدها فعلينا أن نعجّل في طلب مأتم. الميتون ليسوا فقط في المقبرة بل أيضاً في السجن).

قال (كارلو مانيو) كما لو أنه يخطب ضد جمع أمامه في غرفته المغلقة، فيما ظل (تشربرو) يدور هنا وهنالك، وكان في كل مرة يتذمر لوحده، وفي مرات أخرى يمتد على الأرض بكامل طوله متطلعاً إلى أعلى منتظراً. لم يدوما طويلاً حين خرجا من القرية حيث وجدا نفسيهما بين سماء وحقول، وتمشيا بخطوات وئيدة، لم يسرعا ولم يتباطأ، قابلتهما الجدران الخربة التي كان لها سحر كبير بالنسبة لكارلو مانيو لأنها تفكّره بأزمنة ما كان بها، والذي كان موقناً بأنها لن تعود، الأحجار دونما شكل، متراصة، الواحدة فوق الأخرى كما لو أنها تحتفظ بمعجزة يتعين عليها إظهار وتبيان الحرية الطبيعية التي كان لها شرفاً وسمواً وكرامة. إن جدراناً مثل تلك ومثلما هو يعتقدها ما كان لها أن تخجل من شيء أمام الجدران العصرية والحديثة الإِسمنتية المبنية والمقامة على حسابات بالغة الدقة، آجر فوق الآخر كأنها صناديق مقسّمة بالمقاس فوق سطح بلا مقاس. إن الفلاحين في الزمن الغابر كانوا يعتقدون في أن وجود مقبرة بمثابة إهانة للشعور العام الذي يخيّرك أن تبنى أين يروق لك وأين تريد أو تحتاج، تبدأ هنا وتنتهي هناك، حرية، حرية طبيعية؟ كان يتكلم لوحده: هنا وهنالك في تلك الفضاءات الهامدة المحروقة بنيران الشمس البيضاء كانت تبدو بالكاد المنازل الجديدة والدارات التي لا علاقة لها البتة مع القدم القروي، لكن النقود اشترت كل شيء، وكل أحد كان يتظاهر لوحده، يغضب، وخائفٌ في الوقت ذاته من أن لا يستغرقه وقت ليرى البردوزر قادماً رافعاً، خافضاً ومكتسحاً في منتصف ووضح النهار جهد أناس كثيرين انقضى على موتهم وقت طويل وقد تركوا من خلفهم الجزيرة التي كانت تعجبه، والتي أشرفت لتوها على الموت.

ـ (التقدم، هذا يدعونه تقدم، وإذا لم تدعوه كما يدعونه يقولون عنك: محافظ، وطني، عقلك مغلوق، عتيق الطراز أترى كم من كلام جميل تريد أو ينبغي عليك أن تختار لترمي بكل ما بناه أناسنا القدامى؟).

ظل يغمغم: (وعلى نحو فجائي اكتشفوا أن هنا ثمة بلداً قوياً ومتماسكاً به ما يمكن أن يُحطّم، يباع ويشتري، قانون التجارة، المضاربة يا تشربرو، قانون الجيوب التي تريد أن تملأ، هذه الثروة ليست لنا، ونحن نمتلك ما نمتلك بصعوبة ولا نريد في الواقع شيئاً أكثر لأنه لا ينقصنا شيئاً أكثر من الفقر الذي نحن فيه، لكن نحن لدينا الإذن فقط بأن نطأ الأرض ونرى إلى الجدران الموظبة ونتظاهر بالهدوء وبما يتمشى مع الأصول وقواعد التشريفات، في الخفاء وبشيء من دمدمة وتذمر مثل هذا. ها أنت ترى كيف يكون التقدم؟ التخريب والتدمير مقابل مبالغ كبيرة من المال، دنيا السادة، محكومة ومدارة من السادة وإلى السادة).

أبطأ تشربرو المسير وأبتعد فجأة عن صاحبه ثم عاد فرجع إليه فيما بعد وأخذ ينبح بصوت عالٍ.

ـ (ألم يعجبك الكلام؟ لماذا كل هذا النباح؟ ألا يبدو أني قلت لك أي شيء لم تسمعني أقوله من قبل؟).

تنازع معه (كارلو مانيو). وكان لحظتها أن ظهر كلب ضخم من بعد متهيئاً للقتال. في البدء ظل هادئاً حتى إذا ما لمح تشربرو يتحداه على الأقل بنظرته الحادة وأذنيه المنتصبتين إلى أمام وتقدم تماماً بالقرب منه ووقف باعتزاز فوق كدس من الأحجار حيث استطاع أن يرى كل ما أمامه وظل هناك متأهباً جاهزاً لما قد يحدث:

- (بو . . وو . . بو، وو).

أخذ تشربرو ينبح من غير أن يتوقف ليهاجمه.

- (دعنا من العراك، وحكّم عقلك، واسمح لي أن أقاطعك وأقول لك: امش، هيا ولتدعنا نذهب فالطريق طويلة، وما نزال على بعد، وما أن نصل حتى تكون هذه الحدة أو الانفعال قد أقلع عنك).

إذ ذاك رمقه تشربرو بنظرة رتيبة خلوة من أيما تعبير، وطفق ينبح:

- (إني لأَراك مغروراً بجمالك، لديك نزعة عنف، وإذ تظل هكذا فلا ريب في أنك ستتشبع ضرباً لأني أرى في ذاك الكلب ما فيك ونصف، أما أنا كديمقراطي ومحايد فلا أتدخل، فقط أراقب وألاحظ عن بعد دون أن أقف لا مع الطيب ولا مع الخبيث. هكذا أراني كما لو أني تمثال ملح، وحتى فيما بيننا لا أستطيع أن أقف معك لأني لا أعرف ما إذا كان معك حق أم لا، وبرغم إني أشاركك الأفكار والمعتقدات في زمن السلم إلا أني أبقى متساوي البعد في زمن الحرب وبمعنى آخر أنا أوجد هنا فوق الجدران الخربة، أراكما تتقاتلان كما لو أنه ما حدث شيء في الوقت الذي أرى وأرى فيه كل شيء).

- (بو . . بو . . وووو . . بو . . . وو).

واصل تشربرو.

- (دعني أكون عملياً يا صاحبي، لأننا لن نصل مكاناً بهذه النظرية، سأظل ماشياً كي لا أرى شيئاً حتى لا يأتي رقيب مركز الشرطة ويطلب إليّ أن أكون شاهداً، في هذه الأنحاء كل أربع

خطوات تجد أية شرطة متلهفة لتنفيذ الأوامر، وأنا هذه البليّة أو المصيبة لست في حاجة لها، أنا ذاهب وأظنك لا تعرفني، وأرجو ألا تطلبني شاهداً لأني سأقول وأمام الجميع: لم أرَ شيئاً).

- (بو. بو. بووو، بو، بو).

أخذ تشربرو ينبح، وكان حماسه قد بدأ يتناقص، وما كان ليولي اهتماماً وقد تنبّه للكلب الآخر الذي دوّر ذيله من ناحية إلى أخرى وانطلق بهدوء كامل من مزرعة البيت التي خرج منها، كان تشربرو صغيراً جداً فيما لو تحداه الكلب الآخر تحدياً جاداً.

- (أنت مقاتل عنيد، ثمة روحاً أسبرطيّة في دمك، لقد خطرت لي فكرة: أني لأرى فيك جهداً وقوة خارقة وموهبة وذكاء ينبغي عليك استغلاله).

استدار (كارلو مانيو) لصاحبه ورأى إليه بإلحاح جاد. نظرة إنسان متيقظ وحذر: (إسمع) قال له: (لماذا لا تدخل السياسة؟ تمتلك صوتاً قوياً، تنبح جيداً ولا يضايقك أن تعيد وتكرر وتعيد، العراك تأكله بالخبز، تدعوه وتضيّفه في الهدوء والراحة، تغضب حين تريد، تعرف كيف ترى وبحقد، وفضلاً عن ذلك فأنك تمتلك رأساً يابسة وعنيدة لا شيء ولا أحد بمستطاعه تبديلها، لا شيء يعجبك ويروق لك، أدخل السياسة، تخيّل أن تكون من أبطال مصارعتك يا حضرة تشربرو الكبير فيما يتعلق بمسألة مثل هذه وكمواطن يؤمن بالمشاركة ستجدني إلى جانبك من البداية وإلى النهاية لأن ذلك ما يتطلبه ازدهار وتقدم ورفعة البلد: أو أدخل أنا السياسة، أو أدفع بأي شخص آخر، أيّ شيء يا تشربرو أجمل

وأعظم من أن يكون كل أحد سياسياً؟ أعمل لك مع كل أحد، التقط لك صوراً جميلة وأذناك منتصبتان إلى أعلى، وبنظرة ملؤها العداوة أو البغضاء، ولسانك كله إلى الخارج، وثمة شريطاً ملوّناً ومدوّراً ومربوطاً ربطة مفتوحة بعض الشيء إلى عنقك، وترى ذيلك وهو يتلوى ويهتز فيما أطبع لك ألوف الصور، وأعلقها وألصقها على الجدران، وأكتب لك نداءات وتعليقات واستجداءات كي يرى الجميع أية تحرّق وروعة فيك، وكيف أنك تعين وتساعد كل أحد ومن غير ما تكون لك مصلحة في أيما شيء. اختر اللون الذي لم يختره أحد إلى الآن، واجعله دائماً وقفاً عليك، حتى إذا علا شأن ذلك اللون تكون قد ضمنت لتوك وعلى نحو آلي وطبيعي الدعاية. اذهب لأراك في الإذاعة المرئية. منذ سبعمائة عام يا تشربرو، سبعمائة كنت متلهفاً لأرى هذا الحلم الجميل. ولسوف نتفق من الآن يا حضرة تشربرو: عندما تصعد إلى فوق تذكرني، ولا تنس بأني أنا الذي أنتخبتك، خذ واعط يا تشربرو، وشارك الناس في أموالها، فالناس لبعضها البعض، ومثلما انتخبتك فقادر على أن أسقطك، لكن الآن دعنا من هذا، ومن الأفضل لنا أن نغذّ السير، وستتمكن من نقاش هذه المسألة فيما بعد لأنه ما يزال على الانتخابات زمناً طويلاً).

وظل تبشربرو ماشياً من غير ما يلقي أيما اهتمام لهذا التحريض أو الاستفزاز.

- (ماذا يظنني (كارلو مانيو) هذا حتّى يقارنني بأولئك الناس؟) فكّر (كارلو مانيو) في ما استطاع أن يفكّر به تشربرو.

- (لا تؤاخذني يا صاحبي، فلدي فكرة كبيرة مقارنة بفكرتك).

قال له فيما انحنى ملاطفه مربتاً على ظهره، وكان تشربرو أن نسي كل شيء، ورفع ساقه اليسرى وشرع ولبضع دقائق يبول على الحائط، ويهر وكأنه مع ذلك كله منزعج. كان نصف ما قاله (كارلو مانيو) مزاحاً ونصفه الآخر ـ على الأقل ـ جاداً، وذلك ليعلن له مفاهيمه ويسمعه في الهواء الطلق:

- (ما تود قوله فلتقله وبصوت عالٍ يا تشربرو كي أستطيع أن أجيبك.. ألم تعجبك فكرتي؟ كل ما قلته لك فقد قلته بكل ما أكنه لك من تقدير واحترام، لأني أتمنى لك السؤدد، ولو بمستطاعنا أن نوثق الصلة بيننا وتكون لنا رابطتنا نحن الاثنين.... أليست لدينا؟.. أي شيء أفضل من مقترحٍ مثل هذا حيث نمضي إلى أمام وفي لحظة ردّة صليب؟ إني لأتمنى أن أراك وقد صرت سيداً، أعني هكذا، ومن غير ما صعوبة واعتمال ذهن أو تفكير، سيداً محترماً مبجلاً من الجميع ومن غير ما تتعب نفسك أيضاً في إبداء مظاهر الاحترام والإِجلال.

ولست أقول لك أن ينبغي عليك أن تدرس أو تتعلّم أو تحكّم عقلك، فليس ثمة أهمية لأن تبذل أقل تضحية. في السياسة تدخل، إما تكون سيداً أو تكون فقيراً، إذ تكون سيداً فستكون سيداً أكبر، وإذ تكون فقيراً فسوف تكون غنياً، أنه ليروق لك يا تشربرو، ولا ريب في أني سأفرح قليلاً معك ولك).

لم يبدو على تشربرو شيئاً من الضيق كقبل، وهو لهذا لعّب ذيله بما ينم عن آداب المعاشرة كله ونظر نظرة خاصة ومتفردة ومتأدبة إلى صاحبه، وظل ماشياً لوحده. في منتصف الطريق كان عليهما أن يستريحا تحت شجرة خروب ممتلئة بدت ليست شائخة، وكانت تلقى بظلالها على رقعة واسعة من الأرض فيما ظهر لهما إثنان من قوة

الشرطة العسكرية. كانا يدخنان ويتجادلان فيما بينهما. أحدهما ما كان يمتلك صبراً، وهو لهذا أخذ يروح ويجيء أمام صاحبه، وكان من حين إلى آخر يشرع في تقليد محاكاة سير المناسبات الخاصة. لقد انقضت عليهما ساعات طوال في تلك الأنحاء معزولين عن الناس يحرسان سيارة محروقة في الليلة الماضية، وكان ثمة اشتباه في أن ـ السيارة لها علاقة بمغتال حديث.

ـ (أبقيا هنا، ولاحظا كل حركة تحدث في تلك الأنحاء، من شأنها أن تلقي أي ضوء على الحادثة).

أمرهم رئيسهم في اليوم السابق. كان الشرطيان قد أحسا بثقل مسئولية البلد فوق أكتافهما، على أن ذلك ما كان من قبيل إظهار أو إبداء مظاهر التشريف والاحترام فحسب بل أيضاً ولإِحساسهم بالافتخار الذي اعتمل في داخلهما.

ـ (يتوجب أن تكون مستعداً، قادراً على تنفيذ ما يريده وما يطلّبه ويتطلبه فريقنا وجهازنا يا (جان)، في البداية تمد رجلاً هنا ثم تمد الأخرى هناك، وتسير مستقيماً معتدلاً، أن الناس تتطلع إليك، تنتظر منك تنفيذ الأوامر، العدل والحق. أية مسئولية لدينا يا (جان) أمام الجماهير كلها. لا شيء في هذا البلد يحدث بدوننا. إذا ما نبح كلب في منتصف الليل وأوقظهم من رقادهم فستسمعهم يقولون لك: ناد الرقيب ليسكته. وإذا ما تخاصم اثنان في مشرب: اهتف للمفتش، وإذا ما أقيم معرض في ساحة قرية... على أية حال بدوننا ليس ثمة تقدماً في البلد).

كانت ثمة مسحة لا مثيل لها من الجدية على وجه (تشنسو):

ـ (الجماهير تحترمنا يا تشنس، معجبة بنا كثيراً، لكن ما أن يروننا

نقترب منهم ـ لا أعرف كيف أقول لك ـ حتى يبدون أناساً مختلفين) طمأنه.

- (أكون جاهزاً ومستعداً قدر المستطاع، أنظف البدلة النظامية كل يوم، أسوّي البارية[7] كلما تميل أو تنحني، أمشي مستقيماً، وجهي إلى أعلى، وبرجولة، أدعك الحذاء حتى يصير لماعاً، أتطلع محدقاً، أزم شفتي، أتكلم بصوت عالٍ، باختصار وعلى أية حالٍ أتصرف بكامل الكرامة ومظاهر الاحترام).

- (ولدينا بدل نظامية جميلة أيضاً يا تشنس، جد منضبطة على الجسم، لأن اللباس يعطي انطباعاً جيداً، وأنت ترى عندما أكون لا أعمل وأخرج بالقميص و البنطال القصير وقبعة القش فإن أحداً في القرية لا يوليك اهتماماً، وغالباً ما أقول لك أنهم يثرثرون ويسخرون مني، أما حين أسوّي البدلة النظامية وتبدو جديدة أو كذلك وأخرج بحذاء يسمع وقعه على الأرض فإنك ترى القرويين يا تشنس وهم محدقين وبالذات حين يروني أمرّ من بينهم، لا أكلمهم ولا يكلمونني، لأنه فيما لو تركتهم يطرحون فيك ثقة كبيرة فإنك لا تستطيع بعدئذٍ أن ترتدي بذل نظامية وتخبط أحذية، وبمعنى آخر: تضرب الطوب تلقى التراب[8] هكذا بإمكاننا أن نحافظ على الأوامر وننفذها).

تابع جاني.

- (ثمة من قادم إلى هنا، هل ترى جيداً يا تشنس؟ أني لأرى جيداً). قال له جاني: (إن عملنا يتطلب منا أن نكون صارمين،

---

(7) البيريه beret: قلنسوة مستديرة مسطحة لينة.

(8) مثل عربي ليبي مقابل للمثل الوارد: Kulma ghażel sarlu suf.

سأستعمل المنظار الثنائي، أحضر المنظار الثنائي يا جانّي).

فتح جانّي السلة الكبيرة التي كانت جانبه مملوءة خبزاً بالزيت وزجاجات جعة تنتظر ساعتها ولحظتها، وقلّب قليلاً حتى غابت يداه في القاع وأخرج منظاراً ثنائياً من النوع الكبير: (ها هو، هه، لكن من الأفضل أن تنظف العدستين قليلاً لترى جيداً). اقترح عليه.

أخرج تشنسو منديلاً ملفوفاً من الجيب ونظّف الزجاجتين مرة، مرتين حتى ظلت العدستان تلمعان جيداً.

- (أسرع، أسرع يا تشنس، لأن جماله اقترب منا، تقريباً وصل، أسرع، أسرع).

نصحه الآخر.

وضع تشنسو المنظار الثنائي على عينيه ورأى في البعد:

- (إني لأرى جيداً، بكل تأكيد، جيداً أرى قلت لك، أحد ما أقترب منا، نفّذ التعليمات التي أعطيتك، أحد ما ومعه كلب أيضاً، الكلب لتوه يهز ذيله وأذناه منتصبتان إلى أعلى.. أكيد، أكيد يا جان، رجل أقترب منا، اقترب ومعه كلب، لتكن جاهزاً، لنرى ما جلبه البحر هذا الصباح).

كان الشرطيان واقفين جنباً إلى جنب وعلى نحو مستقيم يسوّيان قبعتيهما ويثبتانهما جيداً على رأسيهما، ويشدان ويسحبان طيات صدر السترتين إلى أسفل ثم عقدا أيديهما خلف ظهريهما كان وجهاهما ممدودين، متجهمين، وعيونهما تدور وتتمعن بانتباه وحذر خاص، وكانا أن سرحا حنجرتيهما بكحات خفيفة وإن كان يمكن سماعها على بعد خطوات قليلة، ثم غمزا بعضهما البعض كناية على التضامن التام بينهما.

كان (كارلو مانيو) قد وصل تقريباً وبنفس خطوه، بيده غصن رقيق طويل وسلة مبرومة خلف ظهره، وكان الكلب يتشمم ويتمسح بقدميه: .

- (أنظر، ثمة اثنين من ممثلي العدل يقتربان منا يا تشربرو، سوّ وعدّل من وضعك، وتابع سيرك، والق عليهما السلام، أو من الأفضل ألا تلقي شيئاً، لأنهما غداً أو بعد غد سيكونان تحت أمرتك يا حضرة تشربرو، والآن فقط ينبغي عليك أن تتطلع إليهما فقط لتدرك كيف يكون العدل).

قال له في همس، اقترب، ألقي إليهما نظرة خاطفة من تحت وانطلق لا يلوي على شيء. وندى صوت أحد الشرطيين من الحنجرة:

- (عفواً، عفواً يا سيد).

صرخ لكارلو مانيو.

نظر إليه (كارلو مانيو) فجأة واستدار مدهوشاً:

- (إليّ؟، هل تتكلم إليّ؟).

تشربرو ظل ماشياً إلى أمام، متشمماً، مفتشاً في الأرض.

- (لمن إذن أتكلم؟ لا أحد سواك في هذه الأنحاء).

قال له تشنسو.

- (كيف؟).

بدأ كارلو مانيو.

- (لماذا تمر في هذه الأنحاء، أخبرنا؟).

قال له (جاني) في لهجة أمر.

- (أتمشى، أمر طبيعي.....).

أجابه (كارلو مانيو).

- (ولماذا اخترت هذه الأنحاء؟).

أردف تشنسو.

وشارف (كارلو مانيو) على أن يفقد صبره فيما أرتد الشرطيان قليلاً إلى الخلف حتى لا يسمعا، وشوشا، وعملا برأسيهما إشارة في ما بينهما، وعادا فاتخذا وضعهما السابق:

- (بعد أن أستشرنا أنفسنا وباسم العدالة). أوضح له تشنسو: (قررنا أنه ليس بمستطاعك أن تمر من هذا المجاز وسيكون عليك أن تبدّل من طريقك، هذه منطقة مراقبة من الشرطة، لكن، لكن ليس هذا كله، ذلك الكلب....).

وأضاف (جاني) مع صاحبه:

- (هل لديك رخصة لامتلاكه؟).

كارلو مانيو كان يعرف وبالضرورة أن ثمة حاجة ماسة للرخصة حين يكون للمرء سيارة، مذياع، جهاز إذاعة مرئية، متجر، غسّالة، ساعة حائط، نظارة مقرّبة أو طبّية.... لكن أن يكون لديك كلباً؟ هذا القانون لم يعرفه، ولو كان قد عرفه ـ هكذا قرر سريعاً وفي الوقت ذاته ـ لحطمه ويحمطه.

- (رخصة لامتلاك كلبي؟).

- (هكذا، هكذا، رخصة الكلب).

أوضح له تشنسو بنبرة أمر، في حين ظل (جاني) يوازن كل

شيء بدقة ودهاء لا مثيل لهما، وكانت يداه الاثنتان ما تزالان خلف ظهره وساقاه منتصبتان تلامسان بعضهما البعض، وشخصيته تتحرّك وتتصاعد لتظهر انطباعاً من جديّة جاهزة لما يمكن أن يحدث.

- (ليست لديّ).

صوته كان بين بارد وغاضب.

- (ما اسمك؟).

أمره تشنسو، وكان فرحاً مرحاً لكونه لم ينفق نصف نهار مراقباً الحقول دونما نتيجة.

- (لن أقول ما أسمي، اسمع، لمن تريد أن تتكلم؟، معي أو معه؟ إذا أنا أريد رخصة لأوجد أو أعيش فأخبرني، أما عن رخصة الكلب - يا حضرة الشرطي - فأسأله هو نفسه وليس أنا).

- (تريد أن تمزح، ها، ها، ها. . . .، هل سمعته يا سيد (جانّي)؟).

استدار وقال لصاحبه: (هذا المواطن يريد أن يفهمك العدالة نحن أناس جادين، مستقيمين، لكننا وفي الوقت ذاته نعرف المزاح، وما نزال نحتمله).

وتطلع الاثنان في بعضهما البعض بتضامن وتظاهرا بالضحك.

- (أترى يا سيد جانّي). تابع تشنسو: (كم لدينا من مواطنين طريفين في البلد، كم هو لطيف رغم أنه ليس شيئاً من العدالة. . .).

كان تشنسو متلهفاً - وعلى نحو فجائي - لأن ينفجر غاضباً من

الضيق الذي هو فيه وينقض بضراوة مثل صقر على الضحية المتعجرفة والمتغطرسة.

- (يا سيد، إني لا أمزح).

أجابه (كارلو مانيو).

- (السيد المسؤول. هكذا ينبغي عليك أن تخاطبني، السيد الشرطي المسؤول عن الأمن والعدالة). قاطعه تشنسو (واسمع ما يقوله لك السيد المسؤول عن الأمن، ولتكن منضبطاً أمام العدالة).

قال (جانّي) مدافعاً وقد وصل الغضب ولتوه إلى طرف أنفه. لأنه لم يستلم بيده بعد زمام المبادرة.

- (لا أمزح يا سيد، أهذا ما تريد أن أقوله لك؟ لا فرق عندي، وحسناً تفعل إذ تسأله، أقصد الكلب، لأنه يدرك مشاكله، وشؤونه الخاصة. هذا كلب مسؤول).

- (لا تطوّل لسانك أكثر، الآن انتهى المزاح، وإذا ما كنت تحاول أن تهزأ بي فإني أذكّرك بأنك تهين ولتوك البدل النظامية. ألا ترى البدل النظامية؟).

صرخ (تشنسو) في حين شدّ بيديه الاثنتين على حافتي طيات صدر السترة.

- (إني لأراها منضبطة ومستوية).

- (أراها أفضل).

- (جميلة ولطيفة أيضاً، تليق بك...).

-(هكذا، هكذا، من الآن فصاعداً تتكلم حين أسمح لك ليس لأنك لا تمتلك رخصة للكلب فحسب، بل لأنك أيضاً لا تشدّه،

برباط أوثاق. رقم مخالف للقانون. أي رقم هو يا سيادة الشرطي جانّي؟). سأل تشنسو صاحبه.

- (الآن سأقول لك أيها الزميل).

أجابه (جانّي) على الفور وعاد يقلّب في السلّة مفتشاً عن كتاب القوانين. أخرج كتاباً ممزقاً تقريباً، صفحاته متجعّدة وانهمك مقلباً ورأسه منكسة فوقه، وفي كل مرة كان مقدم سبّابته مبتلاً باللعاب: (الرقم، رقم 560، خمسة، ستة، صفر).

- (المخالفات رقم 5، 6، صفر).

قال تشنسو لكارلو مانيو: (ليست لديك رخصة ولا حتى مقوداً، ستندم وتنتهي آسفاً، وأنه ليؤسفني، لكن العدالة لا بدّ من أن تأخذ مجراها).

- (ذاك الكلب ليس كلبي، أنه صديقي الودود ويعيش معي ألم ترنا سائرين معاً جنباً إلى جنب؟ أنه مسؤول عن نفسه ولك أن تتعامل معه، اسأله، أما إذا أردت أن أقول لك: فإنه كلب متحرر، معتق، لا يحب من يربطه أو يشده إلى المقود كما لا يحب من يأمره ويسجله في دفاتركم، ولا يريد حتى من يعامله، ها ككلب).

تطلع الشرطيان في بعضهما البعض، وفي شيء من الجدية والابتسام وغمزا بعضهما:

- (ما اسمك؟ أخبرني ما اسمك؟ ما لقبك؟ أين تسكن وكم عمرك؟).

أمره تشنسو.

- (تشربرو).

صرخ (كارلو مانيو) بصوت عالٍ. وما أن سمع تشربرو اسمه وكان طوال الوقت متأهباً وأذناه مفتوحتان وعيناه مبرّقتان في الرجلين الاثنين غير المعروفين حتى استوى قائماً وأخذ ينبح بكل ما يمتلكه من قوة، ثم دار حول الشرطيين وبدأ يشم ويتشمم ويلامس ويلتصق بخفة بأطراف البناطيل والأحذية.

- (تشربرو). قال تشنسو محدثاً نفسه وبدأ يكتب: (تشر.. برو...) وتأكد جيداً من أن الكلمة مكتوبة حرفاً بحرف. وكان واضحاً أنه كتبها جيداً. رفع الكلب صوته أكثر وباهتياج، وكان الغضب بادياً في كل شبر من جسمه. تطلع إليه الثلاثة بانتباه مندهشين وفي صمت تام.

- (تشربرو، اسمك أو اسمه؟).

سأل تشنسو مستغرباً منزعجاً في الوقت الذي ثبّت رأس قلم الرصاص في فمه.

- (اسمه، اسم الكلب يا سيد).

نفذ صبر الشرطي، وكاد أن يتكلم بشكل سيء، وبدأ يلّوح بيديه الاثنين في وجه (كارلو مانيو) ويهدده بأن يعتقله في ذلك الوقت بالذات: (سآخذ عنك كل التفاصيل، ويكون عليك أن تذهب إلى محكمة العدل متهماً بالتقليل من قيمة ضباط العدل).

ظل (كارلو مانيو) يؤكد على أنه ليست لديه يداً على الكلب.

- (وأقول لك شيئاً آخر: هو ليس فقط كلباً متحرراً ومعتقاً، لكن لديه أيضاً أحقية وشرعية التصويت، وامتلاك بطاقة الهويّة،

ذلك أنه يعرف كل قرار يتخذه. قبل قليل كنا نتكلم، أنا وهو في السياسة، ولقد خيّرته أن يدخل الانتخابات لأن مجموع المؤهلات التي يمتلكها تتوافق ـ وبكافة المقاييس ـ مع مؤهلات السياسيين، وحتى مع مؤهلات أولئك الذين يحق لهم أكثر).

ظل يقول لهما وعلى نحو جاد. إذ ذاك تطلع الشرطيان في بعضهما البعض. كانا عابسين، مستغربين لهذا العمل اللاأخلاقي، مندهشين ومصدومين. وتنهد تشنسو الذي تكشّف له الآن بأن هذا المواطن مخطىء إلى أبعد حد، بما أنساه حتى قضية الكلب:

ـ (هذا يهدد أمن الدولة، لأنه يتحدى قادتنا ويتوعّد كما ينقص ويقلّل من اعتبارات وتقدير المواطنين لحكامنا، ويشوّه وينشر الإِشاعات والافتراءات).

وافقه جانيّ.

ـ (متفقين، متفقين، فكرنا واضح، نحن من أصل وسلالة، بعد أن استشرنا أنفسنا رأينا وبعد أن تعرضت لاثنين من ضباط الدولة لحماية الجماهير، كما تعرضت أيضاً لأساسيات شهرة وشعبية الحكام عند الجماهير فإن الكلام بشكل أو آخر سيكون هذا).

وتوقف تشنسو مفكراً فيما إذا كان ثمة حاجة لأن يراجع القوانين، ثم استدار لجانيّ وطلب إليه أن يخرج دفتر القوانين من السلة، وهكذا أخذ جاني يقلّب ويقلّب حتى غابت يده في القاع. بعد ذلك بقليل أوقفه:

ـ (لا، لا، أيها الزميل، لا حاجة لأن نبحث فالقضية واضحة جداً).

واستدار بعد ذلك إلى (كارلو مانيو) وتابع:

- (وفضلاً عن ذلك ـ وطبيعياً ـ ستكون متهماً بكل ما قلناه، وبما تصرفت واقترفت معنا). وتوقف وأردف: (الآن بإمكانك أن تكتب يا سيد الشرطي جانيّ).

أخرج جاني دفتراً صغيراً من جيب السترة، خربش بعضاً من الدوائر في أول صفحة انفتحت أمامه ليطمأن على أن قلم الرصاص جيداً، واستعد لأن يكتب ما سيقوله صاحبه. فصّل الكلام بهدوء ورويّة، والآخر كتب:

- (الآن، ليس بوسعك أن تهرب من أيدينا، ، الآن بمقدورك أن تذهب، وسوف نبعث في طلبك، لن تمزح، وسوف لن تمزح مع العدالة بعد ذلك. لا سمح الله أن ندعكم لتقلبون لنا البلد رأساً على عقب. أن أناساً من أمثالك خطيرون، وعلى فكرة: أيضاً أريد أن آخذ تفاصيلاً عن الكلب، احضره قليلاً إلى هنا).

لم يرق للكلب أن يقترب منهم وبدا ينبح من جديد. أدرك تشنسو أيضاً إن الكلب حيوان خطير في البلد، ولهذا خاف من أن يقترب منه ومقته، ثم رأى إليه جيداً ولاحظه قدر المستطاع. عقد (كارلو مانيو) ذراعيه فوق صدره وأخفى حقده وغضبه تحت بسمة خفيفة:

- (اكتب مثلما سأقول لك يا سيد جانيّ: الجنس ذكر، جنسه غير معروف، وفصيلته غير شائعة، اللون أسود ومنقّط بالأبيض، ساقاه طويلتان وأذناه أيضاً، ذيله قصير، عيناه الاثنتان كبيرتان وواسعتان وسوداوان، أسنانه طويلة وبارزة وحادة).

ركع تشنسو على ركبتيه وأكمل آخر التحقيقات والتقصيات عن

تشربرو، وقرر بأنه لم تتبقى تفاصيل إضافية:

- (يكفي).

واحتج (كارلو مانيو) بهدوء:

- (لا أستطيع أن أقبل باتهاماتكم).
- (بإمكانك ألا تقبلها، لكنها تبقى مع ذلك اتهاماتك).

أوجز تشنسو.

استدار (كارلو مانيو) لصاحبه ليذهبا معاً: (امش، امش أيها الحبيب لأن هؤلاء أناس لا نتفاهم معهم، ، هؤلاء يمتلكون القوة، ومن يمتلك القوة معه الحق، لكن.. يمتلكون القوة، أتعرف لماذا؟ لأنه ليس لديهم حقاً...).

الاثنان سمعاه، ولم يقولا له شيئاً. ابتعدا عنه قليلاً، وعادا فجلسا على أكداس الجدران الخربة المتهدمة من قبل:

- (عليك ألا تخاف هؤلاء الناس، ولا تضع لهم ـ في مخك ـ أية أهمية أو أي اعتبار أكثر).

أنذر (كارلو مانيو) تشربرو بعد أن سارا في مجازهما السابق، وأضاف: (هؤلاء يا تشربرو ضعفاء، ومن يأمر فهو ضعيف، دائماً هكذا حال الدنيا وكانت وتكون، لكنها يفترض أن تكون للجميع. أن بني آدم ولدوا بذات الحقوق والطموحات و الرغبات، والأرض كلها بينهم بالتمام، والكل متساوون، ومع ذلك فإن لكل حظه ونصيبه، وريث العائلة والطبقات. ثمة من ولد في الفقر والتعاسة، وآخر في الشبع والترف. ثمة من يموت بالجوع، وآخر بالطعام والذي ما أن يشرع في النمو حتى يبدأ في التثاؤب وتغالبه السمنة،

وهكذا ومن جراء هذا الصراع بين الأقوياء والضعفاء فإن الأقوياء يستطيعون فعل ما يريدونه باسم الضعفاء كما لو أنهم أقوياء بشكل خاص بحيث يقفون ضد البقية من الأقوياء. هذه ليست دنيانا يا تشربرو، بل دنيا أولئك الذين اختطفوها بأيديهم، بالقوة أو بالإِقناع، هم يثيرون الحروب، يخطفون كل شيء بأيديهم، وكل شيء يقررونه فيما بينهم، ويضعون الأغلبية تحت أقدامهم، ويدعونها تتثاؤب متمنية أن يكون ذلك آخر التثاؤب لأن الغد لن يصل، الغد جميل مملوء بالأمل، ولا وجود له إلا في عقلنا)، وتلبّس (كارلو مانيو) وفي مرة واحدة ضيق جديد: (لا، لا يا تشربرو، لقد ارتكبنا خطأ، هؤلاء هم أناس طيبون، يحبون الجميع، يريدون التقدم، ليل نهار يعملون، يتمنون أن يهبوا حياتهم، كما لو أن لديهم حيوات أخرى في الأعالي من أجل رزق وعيش الأغلبية، والأغلبية تعيش الحياة الصغيرة، حياتها، وتحاول أن تلحق بالعالي والواطىء الأغلبية ليس بوسعها فعل أيما شيء من غير المحسنين، تريد أن تحصل على مرتب، وتعدّه درهماً بدرهم، تريد أن تخلص فاتورة حساب كل عملة صغيرة، وتظل تعدّ بسبعة أعين كي لا تخالف القانون، لأنها بعد ذلك ستخسر ما تبقى لها من قليل، ولأن هذا القليل ما كان لها قط وما كان لها شيئاً عدا الضمير، هذا هو الأعلى قانون، ولسنا متساوين، والأرض ليست ملكاً لأحد، حتى للقليل من الأقوياء).

بدا تشربرو هنا وهنالك، وكان أحياناً يتطلع ويلقي نظرة إلى أعلى حتى يرى ماذا يريد صاحبه، وأحياناً أخرى يخفض نظره، في الوقت الذي يعمل ما يريده.

- (أنت يا صاحبي متميز، في الوقت الذي ليست لديك أية أفكار مكتوبة فإنك من ناحية أخرى ليست لديك حتى واجبات

مفروضة ومكتوبة. أفضل شيء ألا يكون لك شيئاً مكتوباً، تأخذ حقوقك بيديك حين تعرف أنها حقوقك، وترى إلى الواجبات التي ترى أنه ينبغي عليك أن تحافظ عليها. هكذا فقط يتوجب على البلد أن يكون: أن يكون كل أحد مثلك، متحرراً ومن غير ما حاجة لأن يدفع فاتورة حساب لأحد آخر ومطيعاً في الوقت ذاته ومستجيباً لمشاعر الحق التي ولدت معه، لكن فكر في هذا قليلاً ولا تغتاظ يا تشربرو: هؤلاء أيضاً فيهم شيء من جنسك، الحقوق والواجبات لا يضعون لها اعتباراً، كل ما يشعرون به ويحسونه يعتقدونه طيباً، وليس ثمة من يتعقب أولئك مثلك لكن مع فارق كبير واحد: هم يمتلكون القوة والرغبة في أن يطأوا البقية، إنك لتفهم عندما قلت لك أنه ينبغي عليك أن تدخل السياسة، وإذا لم تدخل السياسة ـ على الأقل ـ فإنك وبالضرورة تكون معتاداً عليهم وصاحبا لهم، تعينهم وتدفع بهم لأنهم مثل تماثيل الاحتفالات الدينية التي ليس بمستطاعها أن تحتفظ لوحدها وبنفسها في الأعالي إذ أنها في حاجة إلى Tal - fratelli[9] وإلى Tal - forcini[10] ألا ترى على الأقل أن تكون من Tal - forcini) سأله بنظرة ساخرة كأنها وردة تذبل لتوها في شمس يوليو. كان منتصف النهار قد حان أوكاد، وبعد بضع دقائق أخرى ستشرع الأنحاء في الدويّ وفي السكون الشمسي فيما تواصل أجراس كنيسة القرى القديمة

(9) Tal - fratelli ويقال أيضاً: AJK من Fraternity الأخوية وهم أعضاء أخوية دينية، يقومون على خدمة الدير، وهم هنا حملة التماثيل في المناسبات الدينية.

(10) Tal - forcini: حملة المساند والأعمدة المشعبة من أعلى في المواكب الدينية لإراحة التماثيل إثر انتهاء الموكب، وليسوا بالضرورة متفرغين.

قرعها مرسلة ألحاناً متباينة ومتشابهة، معيدة ومكررة نفس الكلمة وفي الوقت ذاته. أينما ترى فثمة حقولاً وجدراناً خربة متهدمة تبدو من فوقها ولوحدها كما لو أنها حراس أو خفراء على كل شيء، وكما لو أنها تحكم برج الكنيسة القديم والغائب في السماء، قمم كل قرية، الأطراف والحواف متحمسّة، متطلعة، محدّقة في ما إذا كان ثمة من مختفياً هناك كأنها ترى بإيمان الأطفال القرويين الناضجين الذين ظلوا يتذكرون الكلمة القديمة التي رواها لهم أباؤهم وأمهاتهم: عليكم أن تؤمنوا بالجو الجميل والجو الرديء، وفي حرارة وقيظ الصيف وبرد وعصف الشتاء اليوم نكون معكم، وغداً لن نكون، الحقول تحتاج إلى العمل، البهائم تحتاج إلى الرعاية وإلى العلف، فضلاً عن أن الله يريد أن ينمي كل شيء ويوهب الخير والعطاء. منذ مئات من سنين خلت كانت القرى قد ظلت قرى، والقرويون قرويون، القرى والقرويون ظلوا مثل صقور في الأعالي ما مست ولا نقّرت شيئاً من تحتها. العالم الكبير في الخارج ظل يسير حثيثاً وأصواته المتباعدة بالكاد يمكن سماعها لأن الجزيرة ظلت تتأرجح لوحدها وسط محيط تاريخي لا يتقلب إلا وجهه. أرجحة ما تبدلت قط رغم الصدمات أو خيبات الأمل الكبيرة، هكذا أراد القرويون العاقلون، وهكذا حدث. أن الحكام عاشوا حياتهم كما أرادوا، فبدلاً من بيوت المزارع الفقيرة والجميلة كانت لهم القصور والدارات حيث فن العمارة المزين والمزخرف بكامل الدقة والتفاصيل، والتي كانت تبدل في المشهد حتى الاحتياجات الصغيرة لكل يوم كان القرويون يرون ويعجبون بالأبهة عن بعد، وكان اتساع رقعة الحقل المدور مثل معقل أصم كتيم

بالجدران الخربة، ومحروسة بأمانة ودقة تامة من كلاب ضارية ومؤنسة مملكة أخرى بلا اسم وبلا قوانين مكتوبة. إذا ما كان الشجر مثقلاً بالثمار والحيوانات تسمن وتتكاثر وبيوت المزارع مهيئة كجو ومناخ لرابطة للكبار والصغار فإن الحكام استطاعوا أن يفعلوا كل ما يتمنوه أو يعيشوا حياتهم مثلما تروق لهم. دنيتان منفصلتان عن بعضهما البعض، مختلفتان، تدوران وتلفان في نسق واحد فوق رقعة بلاطة صغيرة. السكينة والغضب، الهناء والعدل انتسجا معاً كانضفار أو انشباك بشجرة ممتلئة بالزمن والقوة. وبعد قادة فرسان القديس يوحنا الذين بنوا Il - bereg[11] والكنائس المدهشة والمذهلة والذين لبسوا جديداً وجميلاً وكسبوا وخسروا وربحوا جاء الحكام الذين بنوا هم أيضاً نصبهم التذكارية والذين عاشوا في تخمة وهجعة ظهيرة دائمة لجزيرة معزولة كانت وكان عليها أن تكون من مصيف إلى من يريد أن يضعها في قبضة يده، مبتعدة عن ضجيج المراكز الأولى، مركزها هي ذاتها، ثم جاء بعد ذلك أصحاب المعالي[12] المخلصون والأوفياء جداً للأعراف والتقاليد، ممتلئون إعجاباً بأجدادهم فرسان القديس يوحنا وبأبائهم الحكام[13] وذلك بالاحترام والتقدير والإجلال الذي يستأهله ويستحقه التاريخ. أمنا التي تلد من غير ما تعب وإعياء، لقد فعلوا مثلهم، لكن

(11) Auberges - Il-bereg : عن الفرنسية : Borough بالانجليزية وهي مقاطعة أو بلدة ذات حكم ذاتي، لكن التسمية في الأصل عربية (البروج)، وهي هنا أديرة أو مدن محصنة عرفت بقصور الفرسان الثمانية، وأقاموها لإدارة شئون جنسيات الفرسان المختلفة.

(12) ما تعاقب على الجزيرة من مستعمرين.

(13) تعبير ساخر.

التواصل هو قانون الطبيعة، كل يريد أن يتواصل بنفسه ولوحده، في البدء يبقى ومثلما كان، الآن، الآن ودائماً، آمين.

- (أي آمين؟ أي آمين؟).

استشاط (كارلو مانيو) غضباً لوحده ما أن انتبه من هدوء وسكون هذه الأفكار التي سرت مع كل زاوية في مخه الذي ما كان ليعرف أن يستريح ـ على الأقل ـ ولو لمرة واحدة. كان ممتداً بكامل طوله تحت شجرة خروب شائخة جانب الحقل، وكانت فيما يبدو ليست لأحد، وكان قد أحنى قبعة التبن فوق منتصف وجهه تاركاً لما يظهر منه لأية نسمة رقيقة مؤاتية فيما استراح تشربرو، وقد هدّه التعب، وارتمى كم لو أنه صخرة كبيرة على الأرض وأخذه النعاس. كانت ثمة رغبة ملحة تعتصر الاثنين في أن يجدا أي حقل منعزل ويمضيا الوقت في صمت حيث يصير الحقل ولو لفترة وجيزة حقلهما ويحسان وقد أضحيا مالكين مزهوين:

- (تمدّد وانسجم، أرقد وأجر، افعل ما تريده في هذا الحقل).

قال (كارلو مانيو) لتشربرو: (لأنه وللآن بإمكاننا أن ندخل فيه دون أن يأتي أحد ما ليطردنا، كما لدينا من أين نأتي الأسبوع القادم، ونجد بردوزر وهو يقتل ويكسّر هذه الخروبة ويجر معها التربة والحشائش، ومن الممكن أن نأتي مرة أخرى فنجد دارة كبيرة وقد طلعت بدلاً منها مثل الزهور التي تنبثق فجأة من تحت التراب بعد هطول أول مطر. حتى هذه الأرض وهذه الخضرة سرقوها منا يا تشربرو، وهذه لنا نحن الفقراء، ولهذا فهم يأخذونها منا وليس ينبغي علينا غير أن نقفل على أنفسنا البيوت أو نمشي فقط على الإِسفلت، أو على الإِسمنت المسلح،

أو نكون في المنتصف ولا نقترب من مكان لأنه ليس لنا شيء ولا شيء لنا، نعجب فقط بمدنهم الجديدة، هذه الدنيا هي دنيا السادة يا تشربرو، واجبنا أن نصوّت فقط حين يقولون لنا، حتى أصواتنا هي أصواتهم، هم يخلطون ويقسمون ويتقاسمون، ونحن لهذا جالسين: نرى إلى كل شيء عن بعد ولا نتكلم، دنيا السادة للسادة).

كانت البيئة الشيء الآخر الذي يقلق ويزعج (كارلو مانيو) وكانت كما لو أنها أرضه كلها التي ورثها عن معمّري القدم الذين قالوا له وهم في رمقهم الأخير: (كارلو، فكر في أن ـ تهتم لنا بهذه الأرض، ولا تدع من يريد إهمالها أو تحطيمها وتخريبها، نحن بنيناها بالعرق، وأن أرجلنا لشاخت وتشققت وتقرّحت، وأذرعنا تقلصت وتيبّست إلى أن رأيناها مثمرة وخضراء ويانعة، وكما تراها أنت الآن. ثمة من يأتي إلى هنا فيخال هذه الجزيرة ذات التاريخ الطويل كلها ظلاماً وجهلاً وغرابة، بل ثمة من يحرضون علينا وضدنا، ويشوهون سمعه قبورنا، ويقولون لك كل يوم بأننا كنا معتوهين كباراً لأننا أنجبنا وخلّفنا كثيراً من الأطفال، وربينا عائلة من حولنا وفلحنا الأرض واهتممنا بالمزارع والحقول، وشيدنا وأقمنا الكنائس صخرة فوق أخرى ومن لا شيء وبمالنا وفلوسنا. إنك لترى المحركات قادمة لتحطم وتخرب في أيام قليلة كل ما أنجزنا على مدى سنين طوال أشاختنا وأكسبتنا رضا وقناعة وفخراً وكبرياء، سنموت فرحين لأننا قمنا بواجبنا، لكننا حزانى آسفين سنموت لأن قلوبنا تهجس وتدوي وعيوننا ترى وتتطلع في البعيد. تذكّرنا حين نكون في الأسفل، أسفل أشبار تراب قليلة، خطوات قريبة على بعد من هنا، هيا، ولتجهّز لنا الزهور، وادع لنا، لكن لا تنس أن على

كتفيك أن تجرا الثقل كله كي لا تنقرض أرض آبائك وأمهاتك، نحن نظل نبحث في الخفاء، لا نظهر ولا نبدو، لكن نرى ونرى كل شيء ونتذكر كل شيء، وعليك أن تعيرنا اهتماماً لأنك ستسمعنا نكلمك على أية حال، إذ تصمت تكون خائناً).

لم يخالف (كارلو مانيو) هذه الوصية (لا تسكت)، وما كان له أن يعمل ذهنه ويفكر تفكيراً مجهداً وعسيراً، فكل ما يأتي على لسانه يقوله، وحتى آباءه وأمهاته كانت لهم وصيتهم الناقصة وغير السوية: (لا يكفي أن تتكلم فحسب، بل تحتاج أيضاً إلى من يسمعك). وكان يعرف كمواطن أن ليس له حولاً ولا قوة على الإطلاق ليصل صوته إلى كافة أرجاء وأركان الجزيرة.

(الكلمة، الكلمة).

قال وقد قبض حفنة من تراب، وحكها بين راحتيه وذرها حوله:

- (الكلمة، الكلمة التي لو أشرع في قولها من هنا لسمعتني الطيور البريئة، والأشجار السامقة والشامخة، ولرأتني السماوات الوفية والمخلصة. ولربما يختطف فلاح أية كلمة، فلاح هو مثلي لا يملك مطلقاً قوة، ولا يمتلك شيئاً عدا اشبري الأرض اللذين تركهما له أهله وذووه، وعدا البهائم التي لا تعرف ماتفعل غير أن تطيع. الطاعة، هذه اللعنة التي ولدت معنا، هذا الفساد والضلال الذي علموه لنا كمنقبة أو عفة أو طهارة تريد أن تنظفنا وتطهرنا هي جذر الحروب وحجة وذريعة المحنة أو الضراء).

كان الظلام قد أخذ يحل، وكان عليهما أن يعودا فيقطعا الطريق

إلى البيت مشياً، ولقد أخذت العصافير تطلق لتوها أغنيات المساء فيما انسدلت الحمرة بلا حدود مثل حجاب على امتداد رقعة السماء مثلما يقول الشعراء أولئك ذووا العقول المرضى، والذين يفشلون التقدم.

- (هل نذهب يا تشربرو؟ لقد ليّل الليل واظلم، وما يزال لدينا ما نمشيه).

نهض على ركبتيه ومرّن أعصابه والتقط السلة ثم تطلع من حوله وتحرك: (لتسرع قليلاً، الليلة سنطهو أي شيء خاص لأننا وفي هذا البراح الصافي أحسسنا بجوع خاص، وباليسير الذي لدينا نستمتع بالحياة، كما لو أنها كأس نبيذ أحمر وإلى آخر قطرة).

تلك الليلة رقدا رقدة عميقة وحلما بأشياء جميلة ملونة لا تقدّر بثمن.

4

* التقرير ضد (كارلو مانيو) وصل المفتش بسرعة لا مثيل لها، الشرطيان الاثنان دخلا مكتبه، أديا التحية العسكرية بحركة واحدة وخاطفة، وكانت يداهما مستقيمتين ومرتفعتين مثل برق فوق رأسيهما فيما ظلا متسمرين أمامه متلهفين أن يرضى ويسمح لهما بالجلوس، ـ ويدعهما ليتكلما دون أن يقاطعهما أو يوبخهما ويعنفهما، وكان من فرح وسرور المفتش أن يدع دائماً وبالذات من هم تحت أمرته من الشرطة أن يظلوا بعيداً عنه ويرون ويتطلعون إليه باحترام، ولا يناقضونه أو يعارضونه في أيما شيء.

ـ (هذه قضية فضولية للغاية، أخبراني قليلاً كيف حدثت القصة، وأي نوع من البشر (كارلو مانيو) ذلك).

أمرهم، وروى (تشنسو) له القصة بكاملها، وكان من حين إلى آخر يستدير إلى (جاني) ليقرأ كل ما كتب في دفتره القديم:

ـ (الشيء الأول، هذه قضية تحريض على الفتنة والعصيان).

أجابهم بفرح غامر مفتخراً لكونه فاجأهم بقرار، وكلمة صارخة.

- (فتنة وعصيان).

ردّدا بصوت واحد.

- (بلى، فتنة وعصيان، تحريض على الفتنة والعصيان، هذا الرجل يحرض، وينبغي أن نتهمه بالتحريض، ثمة حاجة لأن يكون عبرة ومثالاً لكل أحد، لأن الكلام الذي قاله خطير وخطير لدرجة لا توصف.

- (وكذلك بدا لنا نحن أيضاً يا سيدي المفتش).

قال (جاني).

- (محرض؟ هـه، إذن فذلك الرجل محرّض، خائن، عدو للجماهير). تابع(تشنسو): (اذهب وتنبأ، حتى نحن لم نلاحظ، وأنه لمن حسن الحظ أن تكون أنت، أنت الذي لاحظت).

- (حسناً، يبدو أنكما فهمتما القضية جيداً، لكن ليس فقط لأنه لا يملك كلباً من غير رخصة أو لم يحكم ربطه بوثاق، الأمر الذي يشكل خطراً دائماً على الجمهور، بل ـ وهذا هو المهم ـ أنه تجرأ في واقع الأمر على أن يسخر بهذا العمل المشين من ساستنا، أنه لعقوق وخزيٌ وعار).

وتطلع المفتش في عيونهما ليقرأ قبولهما واستحسانهما.

- (بكل تأكيد).

كرر الشرطيان مرتين وبصوت ينم عن التقدير والاحترام وقد ظهرت على وجهيهما مظاهر التقزز من الفضيحة والافتراء.

- (هذا المواطن، أين يعمل؟ وما هي وظيفته؟).

سألهما.

تطلع الاثنان في بعضهما البعض، وكانا مدهوشين، مرتبكين لأنهما لم يعرفا كيف أن هذا الشيء قد انطلى عليهما أو لم يخطر لهما على بال.

- (والحادثة، متى وقعت؟).

- (.................؟).

حاول المفتش مساعدتهما، أخذت عيونهما تبحث وتفتش في الساعة، خفضا رأسيهما وزفعاهما شيئاً فشيئاً وتطلعا منزعجين في بعضهما البعض.

- (الساعة؟ أية ساعة كانت؟ الوقت؟).

سأل (جاني).

- (على تمام.... حوالى الحادية عشرة والنصف صباحاً، هكذا نظن).

أجاب (تشنسو).

- (إذن فهذه قضية أكثر جدية وأكبر مما كنا نعتقد-أو نظن. الحادية عشرة والنصف صباحاً هو موعد العمل، لدينا ما نفكر في أن هذا غياب وتقصير في آداء الواجب، وأنه لم يذهب إلى العمل).

أعلن المفتش.

- (من الممكن ألاّ يعمل، من الممكن......).

تجاوز (تشنسو).

- (لا يعمل، لا يعمل. ماذا يعني هذا؟ إذن هنا لا أحد يعمل؟ إذا كان لا يعمل فلأنه لا يريد هو أن يعمل، وإذا كانت لديه وظيفة فهذا يعني أنه متغيب عن آداء الواجب وإذا كانت ليست لديه وظيفة فهذا يفسر أنه لا يبحث عن عمل، لا يريد أن يعين

أو يساعد ويساهم في الرفع من مستوى إنتاج البلد).

صرخ المفتش فرحاً بالفكرة في حين دفع بالكرسي، وشرع يذرع ومن ناحية إلى أخرى أرضية الغرفة.

تطلع الشرطيان في بعضهما البعض، كانا مندهشين من قدرة مفتشهما الذهنية، وظلا يجاريانه ولا يعارضانه فيما تبدت علائم الاحترام والطاعة على وجهيهما.

- (سنبحث ونجد أين يعمل، إني لموقن بأن لديه وظيفة، وأنه لم يذهب إلى العمل، لقد قصّر في أداء الواجب وغاب عن العمل. إن أناساً من نوعه هكذا وهكذا يفعلون، يحطّون من قيمة وقدرة البلد قدر استطاعتهم، أن خونة مثل هؤلاء لا حاجة لنا بهم، لأنهم يعيشون على حساب الآخرين بالغش والكذب والافتراء. تصوروا بعض الشيء كيف بإمكاننا أن ننفذ الأوامر التي من شأنها أن تضع حداً لكل من تسول له نفسه أن يفعل مثلما فعل، ولتتصوروا في أية وضعية أو موقف نجد أنفسنا، فقط لتتصوروا؟).

- (نتصور، نتصور، لتونا نتصوّر).

أجاب الاثنان غريزياً وفي وقت واحد، ومعرفة ودراية واحدة.

- (عليكما أن تكونا فخورين بقبضكما على هذا البني آدم[14]، وأن الوطن ليقدر ويثمن مجهوداتكما، ويفهمكما تهانينا). ظل الاثنان صامتين، منتظرين، أن يزيد ويكثر من تفخيمه وتفخيره وتعظيمه.

---

(14) من الكبار في الدولة.

ـ (الشكر لك).

قالا له من جديد وبصوت واحد.

ـ (مسألة الوظيفة هذه سأتكفل بها ولتدعوها لي، أنا الذي سأبحث، و.. ثمة شيئاً آخر، هذا... هذا الكارلو مانيو، هل معنا أم ضدنا؟).

ـ (من الإِجابة يا سيدي لا يبدو أنه معنا، وإذا ما كان محرضاً وخائناً فمن المؤكد أنه ضدنا، وإذا لم يذهب إلى العمل وقلّل أو ضيّع من قدرة إنتاج البلد فهذا من المؤكد...).

قال (تشنسو).

ـ (لا تعجّل، لا تعجّل، إنك لم تعرف سؤالي بعد، ألا تعرف الناس جيداً؟ برغم أن إجابته تبدو إجابة إنسان يقف معنا إلا أنه قد يكون وفي الوقت ذاته واحداً من جماعتنا الذي ينوي أن يلعب بنا ويستغفلنا، ويفعل ما يضرنا حيث أنه معنا). حذّره المفتش.

ـ (يمكن أن يكون أيضاً). تنهد (تشنسو).

ـ (لكن لا أظن). كرر المفتش فجأة، كأنه يريد أن يلغي كل ما قاله: (هذا ليس معنا، كل ما نريد أن نفعله هو أن نكون متأكدين من أنه ضدنا، تذكروا قليلاً، أي لون كان يرتدي؟).

الشرطيان الاثنان قفلا عيونهما ورفعا حواجبهما ليتذكرا، وحدّق المفتش فيهما ورآهما يفكران ويفكران.

ـ (اللون؟ القميص كان بنيا وقاتما بعض الشيء، والبنطال يميل إلى السواد، رباط عنق لا يرتدي و... قبعة تبن. أنت تعرف

بأن للتبن لوناً واحداً).

قال (جاني) بعد أن عاد فقفل عينيه ليتذكر، ثم رجع بعد ذلك ففتحهما.

- (والكلب؟ أكان له وثاقاً و. . ألم يكن له شيئاً حول عنقه، أي ياقة؟ على أية حال، أي شيء من شأنه أن يلقي الضوء على هذه المسألة؟ ما هو لونه؟).

- (ما كان له شيئاً، لا، لا، شيئاً ما كان له.

تابع (جاني).

- (إذن سيكون لنا أن نحقق في هذه الناحية أيضاً وقبل أن نقيّم القضية. إذا ما كان معنا وكان قد ارتكب خطأ ـ وكيف لي أن أعرف؟ ـ بإمكاننا أن نصفح عنه، نوبّخه ونحذّره، وننصحه بأن يحكم عقله ويبتعد عن القيل والقال والافتراء على الآخرين. . إذا ما كان معنا، لكن لا يبدو أنه كذلك. كل شيء يدل على أنه من الأعداء الحالفين على معاداة البلد وبإمكاننا أن نطمئن أنفسنا على أنه واحد منهم، ومع ذلك كله وكي اطمئن نفسي أنا أيضاً فإني أحتاج لأن أبحث وأفتش عنه جيداً، اليوم يكفي، ولتعودا فتعطياني الاسم الصحيح والعنوان).

كان البلد قد أصاب حظه بين يدي المفتش، لأنه لا يعرف طريقه إلى التعب أو الإعياء، أوقات محدّدة للعمل لا يعرفها، أنه ليعمل، يعمل ويعمل من أجل أن يتقدم البلد ويمضي إلى أمام، وبخطوات الأجيال السريعة والمتحمسة والممتلئة رغبة وأملاً وطموحاً، والتي ما كان بمقدور الشائخين والمعمّرين من القدامى أن يبلغوها ويصلوا إليها. كان يشعر بواجبه كنهر دم يتدفق داخله،

لا يتوقف ولا يستريح مطلقاً كي لا يركد أو يجف، أو يذيق الموت من يمسه أو يقترب منه.

- (الدولة، دولة كل شيء).

قال لنفسه وزوجته وأولاده، وكانوا مجتمعين معاً حول مائدة الطعام، وكانوا يتوقفون أحياناً عن الأكل ويحدقون إليه منصتين وهو يعلن لهم البشارة الطيبة عن الدولة. هذا العملاق الضخم الذي لا يبين وجهه، ولا تلتمع عيناه ببريق بارد زجاجي، وأذناه لا تظهران، ولا يداه ولا حتى رجليه ومع ذلك وبصنيع الإيمان الجليل فإن كل أحد كان موقناً بأن هذه الدولة كان له وجهاً بعينين اثنتين، والبقية وجه كئيب مقيت، عريض لكن بقلب طيب، وبسوط غليظ وطويل في يده، وكتاب القوانين الضخم تحت إبطه، يداه كانتا تقلّبان دائماً صفحات المجلد العريضة حتى تجدا الفقرة ثم بعد ذلك العبارة الصحيحة والمطلوبة. كان مخه يجد ويكد في البحث ليشاركه كلمة بكلمة. الدولة كانت عملاقاً ضخماً، دينوصوراً ما ينقرض نوعه ونسله قط، والذي يعجبه ويروق له كل تقدير وأمانة وتبجيل واحترام:

- (الدولة منظمة الناس الذين لديهم الحق والواجب، الذين يقبضون على البلد بأيديهم، ويفعلون به كل ما يخطر لهم هم أصحاب الجاه والثروة، دائماً أصحابها، وهم فقط الذين يعرفون ما الطيب وما الخبيث، أما الآخرون فليس ثمة ما يدعوهم إلى أن يفكروا أو يشكّوا أو يسألوا ولا حتى أن يمتلكوا أو يتدخّلوا في نقاشات جماهيرية عما ينبغي أن يكون أو لا يكون كي يصير كل شيء مثلما هو مطلوب أو مرغوب، السوي والطيب يعرفه فقط أولئك الذين يمتلكون البلد في أيديهم، الفلوس في أيديهم

الفلوس وكل شيء).

كان أولاد المفتش يتوقفون عن الأكل من حين إلى آخر منصتين إلى هذا الدينوصور ذي القلب الحنون والطيب، لكن الزوجة والأولاد ما كانوا ليحسونِ بأنهم جزء من الدولة، وبرغم أنهم أناس عاديون فما كان طعم الامتياز يتقطّر لهم عسلاً وهم يأكلون، وبالذات ما أن يتذكروا بأن ذلك الرجل كان أيضاً رب الأسرة وعائلها. شرف عظيم، جال أحياناً أذهانهم، وخواطرهم، ونزل كندي على عائلة مختارة ومصطفاه. وأنه لمن يمن الطالع أنهم ما كانت لهم مثلما له من سلطة، لا يمتلكون بدلاً نظامية كبدله، ولا حتى شرائط وشارات رتب عسكرية ليعلقونها ولا أحذية ثقيلة لّماعة يصدر عنها وفي كل يوم أصوات خاصة فوق أي نوع من الأرض، أصوات مختلفة عن الأصوات الخفيضة لشباشب وصنادل البقية من البشر، لكن ذلك الرجل قريب منهم وفي متناولهم، وعليه فإن الدولة أيضاً صديقتهم وإذا لم يكن أخوهم فهو - على الأقل - ابن عم أو ابن خالة أو أي من ذوي الحسب والنسب، أو واحد من الجوانبين.

- (إذن هؤلاء الذين يحكمون الدولة معصومين من الخطأ؟).

سأله أحد الأولاد وكان أن خفض رأسه في الصحن المتلىء منتظراً الإِجابة.

- (يا بني) تابع والده: (كيف يخطر برأسك شيئاً مثل هذا؟ تبدو أنك ما تزال صغيراً، لا تخلص البقرة من الطين[15] ولسانك يأمرك ويقودك. لا يحق لك أن تسأل سؤلاً من هذا النوع،

---

(15) مقابل للمثل Mohhok fuq il-werqa.

واحذر من أن أسمعك وأنت تردده بين الناس. الدولة تعرف ما هو الطيب وغير الطيب. ألا تعرف أنت ما الطيب والخبيث؟ فكّر وانظر إلى أولئك الذين يمتلكون الفكر والقوة والقدرة والذين بأيديهم الدولة، اطع، اطع وسوف تدرك كم أن الدولة عطوفة ورؤفة ورحيمة رغم ما يبدو عنها من صرامة وتشدد. أن الدنيا تحكم وتقاد بالقوة لا غير، ولن يكون هناك أمناً واستقراراً وسكينة ما لم تستعمل القوة. الدولة تطمئنك، وليس ثمة ما يدعو الناس لأن ينزعجوا ولا حتى ليسألوا. لا تسأل، تلك هي صيغة السلام والأوامر).

تطلع الولد من حوله ونصف رأسه مرتفعة، وانتظر ردّة الفعل من حوله، لم يقل شيئاً، وساد الصمت ولم يسمع لبعض من الوقت غير صوت الملاعق وهي تقرقع مع الأطباق والأسنان، «قفة طالعة وأخرى نازلة»، وأخذت المرأة ترى إلى زوجها متبسّمة في الخفاء. كان فكرها نيراً ومشرقاً بما فيه الكفاية مما يجعلها تفكر بطريقة مغايرة ومختلفة، لكن ما ظل راسخاً و منطبعاً في ذهنها هو أن زوجها إنسان من نوع خاص لا يستطيع أن يخطىء كما يظن أو يعتقد. صحيح أن الإِنسان من الطبيعي أن يخطىء، لكن، وإلى الآن، وبعد مضي عدة سنوات من المشقة والأسى والهوان لم يِسلك مسلكاً خاطئاً، إن ثمة أشياء وتوقعات والتي تحدث عادة، ليس بالضرورة أن تزعج كل أحد، وهذا ما عرفته، وأدركته رغم كل شيء، ومسألة أن زوجها قطعة من هذا العملاق البينّ والجلي تعرفها، وقد رسخت في ذهنها وفي تفكيرها. وما عادت تشغلها أو تدفعها للتفكير: (بعد كل شيء). كانت تقول في ذات نفسها: (إذا ما كان معنا فلا يستطيع أن يبدي إلا وجهاً طيباً وبشوشاً لأن الدم لا يصير

مطلقاً سما، نحن من الجوانيين!).

لكن الدولة كانت مضادة ومعارضة للأغلبية من الناس في الشارع، وما كان نور العقل وإشراقه لينبعث وينتشر في ضمائرهم، ليس ثمة شباباً كثيرين في الدولة، بل لا أحد من الشباب رغم أنها تبدي وتظهر أنها من الجميع وإلى الجميع، أنها مثل الشبح، الذي هو في كل مكان ولا مكان، فقط في العقول. إن عجزها وعدم أهليتها تبدو من كلامها وإجابتها، تفعل الأشياء المشينة والمخزية بأفضل طريقة ممكنة كي يصير السيء سيئاً تماماً، وتحرّف الأشياء الجيدة والنبيلة كي يكون الجيد أيضاً جيداً بالتمام، كل فعل أو عمل متحلل بنفسه وبذات نفسه وليس وفقاً لمن يفعله أو يعمله. ليس ثمة ما هو صحيح لتفعله الدولة وليس ثمة ما هو خطأ لتفعله الجماهير. أن الدولة وفي كافة الظروف والأحوال لا تعدو عن كونها مجموعة متحدّرة ومنسّلة من الأنبياء ومطعمة بالقوة، والذين يصعدون بالعصا تلة عالية وراء تلة ليتسلمون ألواح الوصايا العشر[16] من مولاي نفسه، وليتكلمون بصوت عالٍ كي يستمع الجميع. الدولة لها عدة امتيازات لكن أكبرها الجهل، ولها القدرة على ألا تفهم ولا تتيقظ. كان الدين وصور يتطلع في المرآة ويتمنى أن يرى وجهه وكان الناس فيما بينهم يضحكون ويسخرون منه من تحت الألسنة وفي الآذان وينفقون الوقت ساخرين من كل حركة يقوم بها، لكن الدولة كانت موقنة من أنها تعيش على ارتفاع شاهق حيث الشمس والقمر والرياح العاصفة بمقدورها أن تمسها فقط مساً رفيقاً تقديراً وإجلالاً واحتراماً

(16) T-wavel Tal-Ligi: إشارة إلى وصايا النبي موسى عليه السلام في العهد القديم، استدلال ساخر.

وتؤنسها وتلطف لها الأجواء دارئة عنها تقلب الأنواء وذلك لتشرق الشمس بالليل ويظهر القمر بالنهار وتعصف الرياح بالصيف. ثلاثة خدم مشدودين إلى خيط قنّبيّ، أما الناس من جهة أخرى فكانوا يتطلعون من أسفل ويرون إلى الدولة، في الدرك الأسفل Cellan المترفين والمعوزين: جهتان اثنتان ومسافة متباعدة وبلا حدود تفصل القادة عن المقادين، تفصل الطيب عن الخبيث وبفرق واحد: ثمة جحيماً في الأعالي يعتقدونه جنة ونعيماً، وثمة في الأسفل جنة والتي ما تزال في الجحيم، لكن اليوم أو غداً سيدوي ويدمدم زلزال لينسف كل شيء رأساً على عقب.

- (والأحزاب، كلها الأحزاب تؤمن أنها على حق، لكن بإمكان الكل أن يأمر، أو من لا يأمر كثيراً يعتبر فاشلاً لأنه ومثلما قلت أنت: القوة...).

قال له الابن الأكبر.

- (القوة، القوة).

قاطعه والده: (معه الحق من معه القوة، إذا ما كنت قوياً فإن الحق سيكون إلى جانب جهتك أو ناحيتك[17] وإذا ما كنت ضعيفاً فلا حق لك. إذن أليست كل الأحزاب لديها حقاً؟ الحق فقط للحزب الذي يحكم والذي يدير شئون الدولة، الدولة والحزب الذي يحكم هما شيئاً واحداً، أو هما ذات الشيء لأنه في المنتصف هناك القوة، والقوة ليست في حاجة إلى الحقوق. دعك من الجدال ومن التفكير والفكر والفلسفة يا بني، لا وجود إلا للقوة التي حين تستعملها تكون على حق، وإذا لم تمتلك الأحزاب الأخرى القوة،

---

(17) ناحيتك: المقصود حزبك.

أعني إذا لم يكونوا الدولة فسيكونون خدماً للدولة ليس غير).

- (لكن الدول تتبدّل وتتداول، ويمكن أن يخرج الحزب الذي يفكر في معارضة الحزب الذي يحكم قبله).

تابع الولد. إذ ذاك كان المفتش عملياً:

- (دعك من الماضي والمستقبل، الآن، الآن، ولتكن فقط مع الحاضر).

- (لكن الزمن يمضي والأشياء تتبدّل، ومن يبدو معه حق اليوم فغدا - وإذا لم تكن له قوة - يظن أنه مخطىء لأنه صار ضعيفاً).

ارتبك والده ولم يرغب في مواصلة الجدال، وكان أن ثبّت راحتيه على المائدة ونظرة نظرة قاسية إلى ولده، نظرة مفتش، ثم مرّر عينيه مع كأس النبيذ الأحمر، وشربه دفعه واحدة حتى كاد أن يشرق فيما حمّرت شفتيه بعض من القطرات الصغيرة.

- (يا بني، لا تظن أنك وفّقت، إنك لتشبهني، لكن إذا ما ظللت تسأل أشياء كهذه فإن هذا ليس هو التعليم الذي علمتك. الدولة قائمة هنا لتخفض أنت أيضاً رأسك أمامها. إن جدا لك يقودك ويوصلك فقط إلى الفوضى والتشويش. هل تريد أن تناقش بفوضى وتشويش المثقفين؟ المثقفون من أمثالك والذين يبحثون في الأسباب والمسببات لا حاجة لنا بهم. لقد قلت لك من البداية: أن الدولة من شأنها أن توصلك إلى أن تقنع نفسك بأن لا داع لأن تعمل فكرك وتتعب عقلك كثيراً، وعلى فكرة، أسمعني، إنك لتفعل فعلاً حسناً وطيباً فيما لو ردمت هذه الأفكار التي يبدو أنها تنبت لتوها برأسك وبلا ضبط أو ربط، تردمها وتحتفظ بها لنفسك قبل أن يسبق السيف العذل، وأما

بالنسبة لي يا بني فلن وجدتني معك وإلى جانبك، إذا ما أفكارك تجرك وتأخذك إلى المحن والحظ العاثر. إنا ستجدني إلى جانب الدولة. فكر في إنك إذا ما وجدتين إلى جانبك أو أردت ذلك فينبغي عليك أن تفكّر بأنك ستكون أنت أيضا أو جد أو أكون. هل فهمتني؟).

سأله بنبرة قاسية، نبرة أمر وقد أشار له بسبّابته اليمنى ملوحاً بقبضته في وجهه ثم خفض رأسه شيئاً فشيئاً تاركاً القبضة المكورة والمعقودة تنفتح أيضاً وبالتدريج. وكان الولد أن خفض رأسه ونظف فمه بالمنديل ولم يقل شيئاً.

- (أفهمتني؟).

سأله والده من جديد في حين دفع بالكرسي من تحته بعنف وقوة وتظاهر بأنه سينهض ويترك المائدة.

- (فهمتك). قال له.

- (حسناً، حسناً، هكذا ينبغي أن يكون).

أجابه والده.

- (لكن لا أتفق معك يا أبي، وإنك لمخطىء في كل ما قلت، يؤسفني أن أقول لك بأنك ما تزال تفكر بمثل ما تعلمنا في كتب التاريخ عن الامبراطور وعضو محاكم التفتيش، ما تزال متخلفاً رغم أنهم يدعونك مفتشاً ويدعون رؤساءك الدولة. إنكم لم تتغيّروا إلى الآن، ومما يلاحظ فإنه ليس بإمكانكم أن تتبدلوا).

قال له الولد وكان يتحين أن يجد الفرصة والشجاعة. وكانت والدته وأخوته قد اندهشوا وظلوا خرسي، ممررين عيونهم ما بينه

وبين والده. كان غضب الوالد قد بدا كما لو أنه تناقص مرة واحدة، وكان الجميع أن التقطوا أنفاسهم.

- (يا بني، من الواضح إنك تقرأ أشياء كان ينبغي عليك ألا تقرأها، من أين أتيت بهذه الأفكار؟ من أين؟).

- (من الكتب. والكتب تتحدث عن الأشياء الصحيحة، التي حدثت في الماضي، تعلمتها من كتب التاريخ، الكتب التي تعكس الوقائع والأحداث التاريخية. من كتب فلسفة التاريخ). أضاف ولده بهدوء.

- (من الكتب.. الكتب إذن. ينبغي عليّ أن أقول لك أنها أضاعتك. الكتب مكتوبة لمن لا يعرف شيئاً، لمن يريد أن يضيع وقته في الكلام. العالم لا يحكم بالكتب).

غمغم لوحده حتى كاد كلامه أن يندفن تقريباً داخله.

- (لا تقل يا والدي ملاحظات وأشياء طائشة وغبية...).

رمقه والده بغضب لم يتحرك لأن الفضول دفعه لأن يسمع.

- (من الواضح أن أصحاب الدولة الذين حدثتني عنهم هم الذين لا يعيشون مع الكتب وهكذا يبدون لكن لديهم ميزة: لا يدركون أنهم ما يزالون متخلفين للغاية، فضلاً عن أنهم مقتنعون بأنهم يحملون العالم فوق أكتافهم. الكتب، الكتب يا والدي ليست سوى أفضل وأعظم الأفكار والحقائق لأن الأفكار هي الحقائق، والحقائق كانت في ذات مرة أفكاراً. عندما تبدأون القراءة ستكتشفون أنكم تعيشون مع الناس لأن الصفحات هي لحم ودم، المفكرون والحكماء الذين فكروا في الفوق وفي الأسفل، وكثيرون كثيرون هم يا أبي).

تابع ولده متمنياً أن يقنعه: «ولأن هذه الكتب قوية بما فيه الكفاية فإنها وفي دقائق قليلة تزعجك وتغضبك هكذا).

لم يرغب ولده في أن يصل إلى هذا الحد، لكنه وقد وصل إلى هذا فإنه سعيد، ولم يرغب في أن يتراجع:

- (تريد أن تقول أن الكتب لها القوة التي قلت لك. القوة عمل وليست ورقاً أو كلاماً مكتوباً فيها، كتابك نمزقه أما عملنا، قوتنا تخيفك يا بني، تخيفك القوة...).

- (الكتب هي القوة يا أبي التي تخافون منها كثيراً، الكتب أفكار، والشيء الذي لدينا ويخيف هو الفكرة، وكل شيء قد حدث وكان سيئاً كان فكرة وفي أية مرات. أن الأفكار يا أبي هي القوة، ولهذا فإن من ليس لديه الأفكار وقوتها يشعر بالحاجة الملحة لأن يجلب القوة من أي مكان آخر: من البنادق، من الدبابات، من السجون، من العقوبات كلها التي على الدولة أن تخلقها. إن محاكم التفتيش وأعضاء محاكم التفتيش مسألة يا أبي لم تنتهي بعد).

- (أتريد حرية أنت؟ حرية أكثر؟).

نبشه والده.

- (لا، لا يا أبي، أعرف أن الحرية قد تكون أيضاً سيئة، قد تكون عسفاً وتعسفاً وفساداً مثل محاكم التفتيش).

لم يكن المفتش على دراية وعلم كبيرين بمحاكم التفتيش وأعضاء محاكم التفتيش، لكنه لم يرغب في أن ينكشف، وكانت سحنته إن انقلبت لتشهد على أنه صار عصبياً، وقرر أن يقفل النقاش الساخن فجأة. وهكذا قام من المائدة وقد غمرت وجهه حمرة ثم ثبت القبعة

على رأسه وانطلق إلى الخارج صافقاً الباب من خلفه وبعنف.

تضاحك الأولاد والزوجة، برغم ما تدوي وتضج عقولهم بأفكار.

- (ما كان لك أن تتكلم كلا ما مثل هذا يا بني).

أنذرته أمه وبصوت أكثر هدوئاً، وأضافت: (أغضبتماني وأزعجتماني بعض الشيء، لكن ليس كثيراً).

- (لماذا لم تزعجين نفسك كثيراً يا أماه؟ أأزعجناك قليلاً فقط؟). سألها الولد.

- (أتريدني أن أنزعج؟).

قالت له بضحكة جادة.

- (لا، لا، لكن هذه أشياء ليست للمزاح..).

- (بلى، بلى، الجدل في نهاية الأمر يظل جدلاً، ولا يؤدي إلى نتيجة).

تابعت المرأة ببال وعقل مطمئن، وصوت بارد:

- (لا يا أماه، كل شيء يبدأ بالجدل وينتهي بالجدل، وحيث يكون السلام فثمة جدلاً عن السلام، وحيث تكون المشاكل والمتاعب - أتعرف لماذا؟ - لأن ثمة مشاكلاً تقبل الجدل وأخرى لا تقبل، الجدل هو الهواء الذي بدونه تنقطع الأنفاس):

- (لكنك تكلمت مع والدك عن القوة وليس الجدل..).

- (القوة يا أماه تدخل مثل مرض حين تكون الصحة قد تدهورت، والصحة توجد في التفكير، في البحث عن الأسباب والمسببات، وما دامت الدولة هي القوة وتظل دولة القوة،

وما دمنا ما نزال محكومين ومقادين بالقوة فإننا سنظل ونظل كالأطفال الذين لا يفكرون).

- (دعك يا بني من هذه الأفكار، وكن حذراً من أي من الكتب التي تقرأ).

- (إقرأ، فلتقرأ أنت أيضاً يا أماه، وسوف ترين كيف ستشعرين بأنك أكبر قوة من أولئك الذين يريدون أن ـ يأمروك، كما تحسين بأنك أرفع وأرقى مقاماً ومنزلة حتى وأنت تحت أقدامهم، فيما يغالبك الضحك فتضحكين من الحكام، ومن كلامهم ومن إجاباتهم، ويكون في إمكانك أن ترينهم من الداخل وكما لو كانوا شفّافين..).

- (لكن بصرف النظر عن كل شيء، لماذا تتكلم ضد الدولة؟ وضد القوة؟ إلا تكون وأنت تتكلم عن ذلك ضد والدك؟).

سألته والدته فرحة من أنها لامست هذه المرة قلبه. وتبسم الولد وحرك رأسه من ناحية إلى أخرى:

- (يا أماه، من يمتلك لقوة؟ أليس من هو قطعة من الدولة؟ والدي؟ والدي ليس سوى خادم، مثلي ومثلك ومثل كل أحد، لكن لديه فرقاً واحداً يعتقده امتيازاً، وأظنه عائقاً أو ضرراً أو خسارة: يوجد ضمن جماعة حيث ينبغي عليه أن يطيع وأن يحني رأسه، وما أن يقول لا ولا يطيع أو ينتقد فإنه لا يشعر إلا وقد طار، ولذلك يا أماه، يحاول أن يقنع نفسه ويقنع الجميع بأن الدولة لا تخطىء قط، مطلقاً لا تخطىء، لأنه وما أن يعلن أو يكون قد أعلن ذلك يكون قد انتهى).

- (لكن ثمة آخرين ممن يعلونه، والذين يأمرون أكثر ويستطيعون

القول، وأن كل شيء يصدر عنهم).

قال له أخوه.

- (حتى أولئك يريدون إقناع أنفسهم بأن الدولة لا تخطىء قط، وإذا لم يحني أحدهم رأسه يطير هو أيضاً. أنت يا أخي، أنت الذي ما تزال تذهب إلى المدرسة وتبدو أن ليس لك قوة، أنت أكثر منهم قوة، أتعرف لماذا؟ لأن فمك ليس به زمام منزلق، ولهذا فإنك تستطيع أن تقول ما تود قوله، ولا تطيع، في الخفاء، (هم يرآؤن (ويتظاهرون، وهم خدمُ الجماعة كلها، وفكرهم ليس بفكرهم).

- (إذن من هو الحر أو المتحرر بين جماعة الدولة؟).

سألته أمه التي بدت مظاهر إعجابها بابنها وبشيء من الشجاعة تلوح شيئاً فشيئاً على خديها.

- (لا أحد يا أماه، لأنهم جميعاً قطع، ليسوا أشخاصاً أقوياء، أنت تتذكرين عندما قال والدي بأن الدولة عملاق، وهم قطع صغيرة من هذا العملاق الغريب، قطع صغيرة، نحن صغار لكننا أقوياء، لأن الطبيعة لنا جميعاً وأيضاً لهم، خلقتنا صغاراً، ومن يقف ضد الطبيعة لا يقف ضد نفسه فحسب بل يكون قد فعل أيضاً الأسوأ والأسوأ شيء: يضحك من ذاته ونفسه.

- (لكن لا بدّ من وجود من يأمر ليكون كل شيء على ما يرام).

عارضته أمه.

- (إذ ما ولدنا جميعاً متساوون فليس من حق أحد أن يتجاوز الآخرين بشبر واحد، من يصعد إلى فوق ليأمر فإنه يحاول أن

يخرج عن طبيعته، ولكي يكون لدى من يأمرون الحق فعليهم أن يغيّروا من الطبيعة ويضعوا أنفسهم في مستوى أعلى من مستوانا الإنساني، لكنهم لا يستطيعون تغيير الطبيعة لأنها ليست بأيديهم ومثلما هم بنية أو بنى اجتماعية).

- (أنت تدعو إلى الفوْضوية Anarchism[18]).

قالت أمه مازحة.

- (وهناك نريد أن نصل يا أماه، في يوم ما يصبح الصبح، ويستيقظ الناس الذين هم جميعاً متساوون، ثم يكتشفون إلا شيء يرثونه غير الطبيعة، كما أنهم ليسوا في حاجة إلى من يحكمهم أو يأمرهم. فوضوية ممتلئة أوامراً تكون).

- (إنك لتحلم يا بني، لتوك تحلم، حلم جميل لكنه حلم).

- (بلى، إني لأحلم يا أماه، لأنه ليس هنا من شيء أكثر واقعية وممتلئاً تفسيراً، أكثر عمقاً من الحلم، حلم الألفي سنة الذي لم يتحقق بعد..).

- (ماذا تفعل بهذه الأفكار يا بني؟).

سألته أمه التي بدت الآن تفكر قليلاً: (هذه أفكار خطيرة).

- (أفكر وأحتفظ بها للآن ولنفسي، لكن في خطتي وحسابي غداً أن أنشرها وأوزعها، أترين يا أماه كيف أن أقوى شيء لدى الإنسان هي الفكرة؟ الفكرة التي يقدرها ويعزها الناس دائماً في

(18) الفوضوية: نظرية سياسية تقول بأن جميع أشكال السلطة الحكومية غير مرغوب فيها ولا ضرورة لها البتة، وتنادي بإقامة مجتمع مرتكز على التعاون الطوعي بين الأفراد والجماعات.

الكتب. مزق كتاباً فتكتب عنه مائة فكرة، مزق الأوراق وستجد الناس يستعملون الجدران. الكتاب أيضاً فوضوية لأنه يتحدى الزمن ويعيش ويعمر طويلاً، يتحدى مساحته لأنه وبرغم صغره يرفع ويقيم ويثبّت عالماً قوياً ومتيناً).

ذلك الوقت كان المفتش بمكتبه، وكان يهتف لواحد من ضباطه حيث يعمل (كارلو مانيو).

* * *

5

* في المرة الأولى التي دخل فيها (كارلو مانيو) الكنيسة صحبة الكلب أثار فضيحة في القرية بكاملها، والتي ما كان لها أن تكتمل لتظهر بحروف بارزة وخطوط عريضة في الصفحات الأولى من صحف الجزيرة، وذلك بفضل المساعي الحميدة لعدد هائل من المواطنين الطيبين، والذين بذلوا كل ما بوسعهم لتفادي إثارة ونشر الصحف للواقعة، والحد في الوقت ذاته من إمكانية اتساع وانتشار الفضيحة. ومع ذلك لم يتأخر مراسلو الصحف الذين تقاطروا من كل حدب وصوب، فيما أسرع المصورون والتقطوا الصورة تلو الأخرى لتشربرو وهو جاثياً بكامل وقاره على ركبتيه، ثم هرع بعد ذلك رئيس الكنيسة ومن خلفه الكاهن وممثلوا المؤسسة الدينية جميعهم مدهوشين لمرأى هذا المشهد. كان على (كارلو مانيو) أن يستسلم للأمر الواقع، ثم انتهت المسألة عند هذا الحد. وإذ ذاك ما كان لدى كارلو مانيو خياراً سوى أن يبحث عن كنيسة أخرى، فقيرة وقديمة ومدفونة و غَائبة في قلب الأشجار والحقول المنفسحة والطليقة والتي لا يطالها ولا يختلف إليها إلا القليل من الناس، لأنهم ليسوا كثيرين

في تلك المناطق والأنحاء.

كان الكاهن طيباً وواعياً ومتفهماً، إذ كان بمستطاعهم ذات مرة أن يضعوا الزهور والحشائش الأخرى فوق مائدة مولاي، كما استطاع المذنبون أن يدخلوا. والحيوانات ها، إذن حتى الحيوانات استطاعت أن تدخل، الحيوانات والبهائم كلها: البقرة وحمارة بيت لحم، وحمارة بيت المقدس، ومع هؤلاء المتميزين، أتباع المعلم الذين خلقوا واخترعوا هذه البادرة أو السابقة الجادة، وكان الكاهن فخوراً كامل الاعتزاز بنفسه وصحته، وما كان تحصيله العلمي الضعيف ليزعجه، وكان بمستطاع سكان المنطقة أن يدخلوا حفاة، مرتدين ما يعجبهم وما يروق لهم.

دخل الاثنان إلى الأمام مباشرة. ركع (كارلو مانيو) على ركبتيه، فيما ارتمى وانطرح تشربرو إلى جانبه بالكلية. جلسة هدوء وعزلة وسكينة مثل هذه كان يدركها رغم ضوء الكنيسة الضعيف والواهن والذي كان يرقّده شيئاً فشيئاً، والتماثيل المكفّنة في الظلام تثير فضوله، وكان يلحق بصاحبه ويتبعه أينما يحل، ويبقى حيث يبقي دون أن يشعر بضيق، ولا يزعجه رأسه.

- (يا تشربرو، لا أحد من هنا سيطردنا، لأنه حتى الآن ـ لا يأمر غير مولاي، وهنا، هنا لا أحد يتدخل في مولاي، الكنيسة الأخرى حيث كنا وقد طردونا لم تكن كنيسته، بل كنيسة الناس، مولاي رؤوف ورحيم بالفقير والمتشرد والضائع، ونحن أمامه، كارلو غير المعظم، وغير المبجل، وتشربرو غير المفدّي، وغير اللافخامة واللامعالي، نكون إلى الأمام، وهم، أصحاب الفخامة والسيادة والمعالي يكونون في الخلف، الخلف بالضبط، هم إلى الخلف، انظر، إلى الخلف تماماً، في الصف الأخير وإلى

جانب الباب، انظر، انظر).

وكاد (تشربرو) أن يفقد أعصابه، من يد (كارلو مانيو) التي تدور فوق قمة رأسه.

- (مولانا ذو قيم غريبة للغاية، وهو يستريح وينسجم لمن هو أصغر، يفضل من ليس عنده غروراً أو خيلاء، الآخرون على العكس تماماً. ألم ترهم كيف طردونا لأنهم قالوا لنا إن مخلوقين مثلكما لا يستطيعان دخول بيت مولاي؟ لكن حتى الآن هذا البيت ليس ببيتهم، بل بيته، وهو لا يتذمر ولا يتضايق ولا حتى يأمر، ولا يفعل ويقوم بأفضليات وأولويات بالمقلوب مثلما يفعلون، لتطمئن يا تشربرو، فنحن أقرب إليه منهم لأننا لا نمتلك شيئاً، مثله، لا مالاً ولا جاهاً ولا قدره، ولا حتى أوضاعاً اجتماعية، نحن لسنا كردنالية، أو أصحاب فخامة ومعالي وميزات وأفضلية. معلمنا معدم، فقير مثلنا وأمه امرأة مثل الأخريات، ومنذ أن ولد أرادوا أن يفنوه، ثم وقفوا بعد ذلك ضده، وأتهموه ما أن بدأ يظهر بين الناس ثم انتهوا فقتلوه، قتله خدمهم وعبيدهم. ألا ترى هناك إلى فوق يا تشربرو؟ انظر، انظر في المنتصف، أنه لو عاد وحاول دخول الكنيسة لما تركوه، لأنه يأتي حافياً أو بصندل، فقيراً رث الثياب ولا يعرفونه، وإذا ما عرفوه فإنهم يناصبونه العداء، ويقولون له: الآن وبعد مضي ألفي سنة بإمكاننا أن نبقى بدونك، يزعجونه ويضايقونه، يحاول أن يدخل ويطردونه. مثلنا، يا تشربرو).

قال (كارلو مانيو) في الوقت الذي ربت فيه رأس الكلب، وطلب إليه أن يرى إلى الصليب الكبير المتدلي في الأعلى فوق المذبح،

وكان أن لعّب الكلب ذيله، وهز رأسه ثم ألقي نظرة إلى (كارلو مانيو)، وكأنه يريد أن يفهمه بأنه قد فهم كل ما أراد أن يفسر له.

لم يراود (كارلو مانيو) أقل شك في أن كامل مسالكه طيبة، وهكذا كان المعلم أيضاً، مصلوباً بكامل طوله على عودين متصالبين، عرياناً أو مجلوداً مثل أي مجرم آخر مدان. في الكنيسة أيضاً كان ثمة عدداً من الحيوانات التي لم تستطع أن تدخل فحسب بل ولأهميتها كانت لها أماكنها إلى جانب القسيسين، مصورة ومرسومة في التماثيل، كان ثمة صورة ليوسف والعذراء والصغير يسوع وهم في طريقهم إلى مصر، كما أن هناك صوراً أخرى للوقا وبنيديكت وأنطون وفرنسيس وركو وآخرين، وإلى جانبهم بعض من الحيوانات.

نظر (تشربرو) في كل مكان وكما قال له صاحبه، وتطلع إلى إخوته وإلى أعمامه وأخواله، مرسومين ومنقوشين، وفرح وداهمه إحساس بأنه مهم وذو مكانة مثلهم، وحتى إذا لم يحظي بالاحترام والتقدير أو لم يتمتع بذلك بعد، فإنه يكفيه - على الأقل - شرف الانتساب لأقربائه، لأن الأسلاف جميعاً نسل من دم الأشراف والنبلاء.

- (. . . .، وانظر إلى هنا قليلاً الآن يا تشربرو).

أستأذنه وقد دوّر له رأسه باتجاه صورة ليسوع ممتطياً الحمارة، فرحاً بدخول بيت المقدس: (انظر، انظر إليه يا تشربرو، انظر وشدّد من عزمك، واسع إلى الأفضل، انظر كيف يفكر معلمنا، وكيف يفكر الآخرون الذين لا يريدوننا أن - نطأ كنيسة القرية الكبيرة، انظر كيف أن مولاي اختار الحمارة ولم يخجل منها، لأن تلك البهيمة لها قصة إذلال طويلة، تخدم ورأسها إلى أسفل، وليس لها جمالاً خاصاً،

ودماغها لا يحتمل كثيراً، ولا تذبح وتؤكل فوق موائد الأغنياء الممتلئة. ولا صاحبة فخامة أو معالي. الحمارة حمارة، وهو الذي ليس لديه أية متعة اختارها، وهم، هم لا يختارون هكذا، هم يمتلكون متعاً ومباهجاً أفضل ومنقوشة. آه يا تشربرو، لكم تأخر وبقي متأخراً مولانا، ولكم حمّر لنا وجوهنا وأخجلنا. كان ينبغي أن يكون لنا معلماً أفضل، منحدراً ومنسّلاً من عائلة أو طبقة نبلاء أو أشراف، والذي لا يخجلنا هكذا. الحق معهم، إن معلماً كهذا كيف لنا أن نفتخر به؟).

لم تكن ثمة روح في الكنيسة، المذابح كلها مطفأة عدا شمعة تدمدم بوهن واتضاع كامل قرب وعاء خبز القربان Tabernaklu ودون أقل هزهزة، وعاد (كارلو مانيو) فمسّد رأس صاحبه واستأذنه أن يبقى حيث كان، ثم نهض من مكانه ومشي لوحده باتجاه المذابح، تناول كرسياً، والتصق به قدر المستطاع بالمذابح، في حين أرتمى جالساً، ورسم إشارة الصليب.

- (لا أتمنى أن يستمع (تشربرو) لما أقوله لك).

قال محدثاً مولاه: (لأني لا أريد أن أزعجه وأغضبه، أنت تريد أن يعيش (تشربرو) ميزة من لا يعرف، على الأقل هكذا فهمت أنا، وإذا كان كذلك، فلا حاجة بي لأن أهمس له بأشياء لا تريد أنت أن يعرفها أو يفهمها، مضي عليّ وقتٌ طويل لا سرّب لك كلمة فيما بيني وبينك يا مولاي، ثمة أشياء كثيرة هنا ليس بإمكاني فهمها، الشيء الأول إني لا أستطيع أن أفهم صمتك العميق. أن كلمة واحدة منك - على الأقل - وفي أية مرة تستطيع أن تغيّر العالم في لحظة خاطفة، وأنت تختار على أية حال أن تظل صامتاً، الذي قله قد قلته، والآن انقضت الفاسنة وما نطقت من ذلك النهار إلى اليوم

كلمة أخرى. ألم ينقضي زمن كافٍ؟ لو نطقت، هه، لو نطقت لما تقولّوا فيك، وتعرضوا بالتشويه لإسمك، كلمة إيضاح - على الأقل حتى لا يواجه الكلام بالمقاطعة، أو يقاس كما لو أنه مبالغة، كلام من يأخذه بجدية أولاً؟ لا أستطيع أن أفهم..).

وأرخى (كارلو مانيو) رأسه وأراحه على راحتيه، كان يبدو من بعد مثل لفة سوداء معزولة وحدها في فضاء خالٍ، فيما هو هامداً لبضع من الوقت إلى أن بدا ومن خلف المذابح (دن - بنيامين) متوكئاً على عصا قديمة مرتدياً غفّارة[19] قديمة أيضاً لامعة غاب بعض من أزرارها، وأحنى القسيس رأسه قدام المذابح وظل ملتصقاً بكارلو مانيو، متحدثاً إليه من حين إلى آخر بسماح وبلهجته، وكان في بعض من المرات يتحدث غالباً باللاتينية مغمغماً لاثكاً الكلام بين أسنانه. ذاك الحين لم يكن لديه ما يقوله لكارلو مانيو، وكان (كارلو مانيو) لم يره منذ زمن طويل.

- (كارلو، كيف حالك؟ ماذا عنك؟).

قال القسيس وكان أن ربّت على كتفه بهدوء، ثم مشى بعد ذلك الهوينى فأحضر كرسياً. جره وجلس إلى جانبه، فيما رفع (كارلو مانيو) رأسه قليلاً ونظر إليه:

- (دن بنيامين، كيف أنت أيها الصديق؟).

قال وشد على يده اليمنى وضغطها: (اليوم، قدمت إلى كنيستك، لأن هذا الهدوء والسكينة والبساطة هنا، وهذا المكان لا مثيل له).

(19) الغفّارة Cassock - Suttana.

- (هكذا يريد مولاي يا كارلو، هكذا يريد، وحيث لا يكون صمت لا يتكلم، وحيث لا يكون ثمة بساطة يتضايق، ويغادر المكان. هكذا يريد وهكذا ينبغي أن نفعل).

قال القسيس بطيبة.

- (هذه هي رغبته، لكن وحسبما أرى ليست مطبقة في أي مكان، كل شيء على نقيض مع ما قال وما رغب، الدنيا ظلت تهدّني يا دن، تهدني وتتعبني، وأشعر كما لو أن كل شيء يقع ويتهدّم ولتوه من حولي، والأسوأ من هذا كله أن كل أحد يعتقد بأن كل شيء سائراً على ما يرام).

تناول (دن بنيامين) العصا بكلتا يديه، ونقّر قدامه بطرفها البلاط، كما لو كان فيلسوفاً ما ينتظر أن يتلقف لسانه المتلهف كلاماً عاقلاً ومتزناً، فيما هز رأسه مرتين ورفع نظره إلى أعلى حيث السقف: (وأنا أيضاً أشعر هكذا، لكن هذا لا ينبغي أن يتعبك ويكدّك، أن كلمته برغم أنها خفيفة وسهلة فإنها ثقيلة وصعبة للغاية، ومن السهل أن تفهم بالخطأ أو بالمقلوب، لكن فيما لو قرأته وتستوعبه جيداً مرة، فإنك تقول بأني وجدت الذي أفتش وأبحث عنه، واعتباراً من الآن ـ فصاعداً لا تنظر إلى الوراء). لم يقل (كارلو مانيو) شيئاً وظل يتطلّع في الفراغ، نظرته جادة، وعلى وجهه مظاهر الجدية.

- (الإيمان ووجع القلب لا يتوافقان أيها الصديق، إن ما قاله مولاي، وما تراه أنت من حولك لست في حاجة لأن تنتظران يتفقا معاً، يسوع أربك وحيّر كل أحد، حتى نحن الذين نتفق معه، وحتى الذين يمقتوه، من يمقت هو مرتبك ومتحيّر أيضاً.

آه لقد أربكنا وشوّشنا كثيراً). توقف قليلاً ثم تابع: ماذا تفعل الآن؟ أخبرني قليلاً، كيف تقضي الوقت الآن؟)، سأله دن بنيامين بفضول الأطفال.

- (الآن سيئاً وليس على ما يرام)، قال له واحني وأراح رأسه بين يديه الاثنتين. إذ ذاك ارتبك القسيس من الإجابة التي لم ينتظرها، وعاد فثبت العصا تحت إبطه اليمنى، واتكأ عليها، وتطلع إليه مستغرباً: (سيئاً؟). قال له.

- (بلى، يا دن، كل الناس ليسوا طيبين في الحياة، ليسوا كلهم، لو كانوا كلهم هكذا. . .).

وظل القسيس متطلعاً إليه منتظراً أن يعرف أكثر وأكثر وكان من خلال عينيه ومعالم وجهه تمنى أن يطلب إليه أن يتشجع ويحلل عقدة من لسانه. كان قد سلخ وقتاً تعلّم خلاله أن ـ أول الكلام مقرحاً دائماً ومندباً، ينسرب، ويخرج مندفعاً من المعدة وتضطك له الأسنان ليلفظه الفم، لكن وبعد أول المبررات يأتي الكلام بالكلام، وتنحل عقدة من اللسان، ويفرغ القلب، أو يكون قد أفرغ كل ما احتفظ به في الخفاء منذ زمن طويل. وحكى له (كارلو مانيو) عن وضعه في العمل والتقارير التي كتبتها عنه الشرطة، كان القسيس يتطلع إليه مباشرة عاجزاً على أن يجد كلمة مناسبة، وكان يعرف كارلو حق المعرفة، وبرغم أنه يعرف أيضاً أن إنساناً من نوعه قادر على التعامل مع مسائل أكبر من هذين الاثنتين إلا أنه لم يمتلك الشجاعة ليقول له ذلك.

- (تبدو مسائلاً صغيرة، كأنها مسألتان تافهتان، حدثتا معاً وفي وقت واحد، والناس الذين تورطت وتعاملت معهم ذووا

طموح، يبيعون أرواحهم ليعودوا فيشترونها، ولكي يعودون أيضاً فيبيعونها بأثمان باهضة، المزاد العلني الذي يظل قائماً على طول السنة بكاملها، وبأسعار كبيرة جداً، من الكلمة الصغيرة يخلقون أعذاراً، يخلقون من الحبة قبّة، وأنا ـ دعني أقول لك كيف أشعر ـ أنا لا أؤمن بكلمة ناقصة، لأنه ليست إجابة مخلصة تلك التي يضمرها المرء في نفسه، ولا يظهرها، يبطنون ولا يظهرون. إن أية كلمة إضافية قلتها، ولم أفكر بوزنها لا أعود قولها من جديد أو ـ أضيف عليها وأزينها أيضاً، هكذا خلقت، وأحس بأني مخلوق طيب، هم مخطئون، أناس فاقدة، وفاشلة، ولديهم السلطة، ولهذا فهم فاقدون، فاشلون، لأن السلطة هي خسارة في ذات نفسها، فكر، وانظر..).

- (إنك لتتكلم جيداً، وتقول كلاماً معقولاً، يا كارلو، هكذا ينبغي أن تكون، وتؤمن بأنه صحيح، وحتى إذا كان هذا يفسر على إنك خبطت رأسك على جدار صلب ـ لا أعرف أي الجدران أقوى وأشد ـ فإننا نتفاهم، لكن الجدران التي تتحدث عنها وتذكرها الآن هي جدران خاصة، وحسبما أعرف، فإن الشجاعة لا تنقصك، حين يكون لديك حقاً وتفقده فإنك تكون وفي الوقت ذاته قد ربحت، المصلوب عريان، مزدري ومذموم، وربح وحاز علي رضى مولاي.

دعا القسيس فيما هو يشير له بيده إلى الصليب.

- (الحق معك يا دن بنيامين، ينبغي علي أن أخجل من أني وفي بعض الأحيان أجد نفسي مخذولاً، ومتوتراً بل ويمتطيني التوتر، لقد عشت أشيائي الصغيرة وفضلت أن أظل وأبقى، أبقى وأريد أن أعيش وكيفما أؤمن، إن ـ عصياني وتمردي بسيط ومتواضع،

ومتغطرس أو متعجرف في آنٍ معاً، مثل تمردك وعصيانك يا دن). أوضح له متبسّماً. تبسم القسيس أيضاً وفرح لهذا الكلام. إن كبار الكنيسة ما كانوا ليضعون اعتباراً كافياً لهذا القسيس المضطهد والمنبوذ، ولم تكن له مهمة ووظيفة بين الحكماء، ولا حتى أظهر نزعات وميول وأهداف القادة الخاصة، ولم يذكر مطلقاً في مواعظ الكنيسة، لأنه ظل ينطقها على طريقة القرويين الذين ولد وتربى بينهم، وعاش كما آمن في الوقت ذاته بالأفضل، على بعد من سلطة الأرض وقريباً جداً من غرابة المصلوب، ولم تكن لديه القدرة ليتكلم بمعرفة وبصيرة ودراية بعض من أصحابه، لكنه وبطبيعته البدائية يتلقى الأوامر غريزياً من الإِنجيل، وكان أن حدث ذات مرة أو مرتين أن اكتشف نفسه بذلك مخالفاً لأوامر الكبار من رؤسائه، وكان رؤساؤه وهم يرون إليه لا يعتبرونه إلا قسيساً من الدرجة الثالثة أو الرابعة، ليس بالضرورة مؤاخذته على ما يصدر عنه من أفعال وأشياء صغيرة لأنه في رأيهم لا يساوي شيئاً كثيراً، وعلى الأقل إذا ما كانوا يفكرون هم بذلك، وبأنه مخطىء، فإنما لأن خطأ الصغار بالضرورة أن يغض عنه النظر.

- (علينا أن نختار يا كارلو، اختياراً واضحاً وصريحاً).

عاد فقال القسيس تقريباً وبصوت موعظة، والذي لا يختلف كثيراً عن صوته المعتاد:

- (لو قرأت أية مرة الإِنجيل لحدث لك شيء فظيع للغاية، أعني تواجهك عقبة كأداء تدفعك إلى التسوية، إلى المواجهة فقط لو تتمعنه وتستوعبه، وتدرك أوامره فستجد إنك وقفت ضد القوانين، قوانين الدولة والكنيسة، لأنها قوانين اصطناعية،

قوانين بشر مثلنا، وتقاليد تاريخية وثقافية ضربت عروقها في الأعماق، والتي ليست الآن فقط من الصعب اجتثاثها بل لو تخيّرت أن تهزها أو تلمسها لظنوا بأنك تريد أن تقتلع أو تجتث الإنجيل بكامله. ثمة إنجيل المسيح، وثمة إنجيلهم، الطبعة الأصلية، وطبعتها المكيّفة والمعدّلة. وأسفاه، ليس بأن لا أهمية للإنجيل، بل هو العكس.).

- (دن بنيامين، دعني أقول لك: لا شيء يا بنيامين، عدا الحصاد الوفير من التعليم، والذي لا يكشف الذنوب التي يتخبط فيهاا لأغلبية العظمى من أولئك الذين يؤمنون بالمسيح، يحلفون به، ولا يصدقون، يقرأون كلامه ولا يحسون به، يعتقدون بأن كل ما يريده المسيح هو أن كل واحد يعيش لنفسه وللعائلة وللبلد. أسهل شيء أن يدخل كل أحد الكنيسة، يسمع الإنجيل ويخرج منها في الوقت ذاته وكما لو أنه احتسى فنجان قهوة لا يمرّض ولا يبرىء، جعلونا نفكر بأنفسنا لأنهم هم أنفسهم يفكرون بأنفسهم. هكذا فعلت أوروبا والكنيسة والأسقفية والأبرشية والعائلة، وأنا وأنت ونحن أيضاً والفردانية (Individwalment)[20].

رفع (كارلو مانيو) صوته ثم توقف. كا ن دهشاً بعض الشيء: (نستمع إلى كلام المصلوب الذي يقول بأن الناس سواسية، وفي الوقت الذي يدافع فيه كل أحد عن الحاضر الذي لا يتبدل مطلقاً، حتى يصير الكل متساوين، لأنه هكذا كان ومنذ القدم وهكذا

(20) نظرية تنادي بأن المبادرة أو المصالح الفردية يجب ألا تخضع لسيطرة الحكومة أو المجتمع أو رقابتهما.

ما يزال، ومن لا يريد تغييراً من القاع كي يكون الناس سواسية فإنه لم يفهم الإِنجيل بعد. وأولئك الذين ما يزالون يذيعون ويشيعون ذلك للآن هكذا، يقولون لنا أيضاً: (ادعوا إلى السلام، والسلام يعني لديهم أن يزداد الأغنياء غني والفقراء فقراً).

وخاف (بنيامين) من أن ينتقد مثل (كارلو) فهو قد تعلّم الطاعة، وقد امتزجت لتوها معه، وكان يعتبر الكلمة الزائدة والمضافة ذنباً، لكن ثمة عويلاً ونواحاً يتنامى ويصدي بأعماقه، وليس بمقدوره ردّه، بل اتفق أن سمعه لمرات عديدة.

- (ليس صواباً، ليس صواباً أن تدع الكنيسة كل شيء وكما هو عليه..).

وأخذ ينصت، فيما تنمّلت وارتعشت شفتاه بعض الشيء ولم ينبس ببنت شفة في حين انتظر الآخر أن يتابع...

- (لا أحد من فوق منبر الوعظ من حقه أن يتهمنا بأننا نتخبط في الذنوب نحن الذين نأكل ونشرب كيفما وفي أي وقت نريد في حين تموت الملايين تلو الملايين ولتوها بالجوع. يقولون لنا بأننا نعيش حياة اعتيادية، نصرانية إذا ما اقتربنا من الكنيسة. هذا هو ذنبنا الذي لا ينقطع، ولتبدأ من أولئك جميعاً الذين لا تفكير لهم إلا في بلدهم، وكأن مولاي ليس هو الأب، أب الأرض وحدها وليس قادواً. لقد طمأنونا هم عندما دافعنا عن بلادنا في الحرب (العادلة) لأنه هكذا يدعوننا، وقتلنا من اعتدى علينا، ومن قتلة صرنا أبطالاً وقديسين... ويسوع لا يريدنا حتى أن ندافع عن أنفسنا، تصوّر قليلاً فيما لو أي أحد تذكّر ليالي الحرب العالمية. أن يسوع لا يريد فقط من لا يخلق الحرب،

بل ولا يريد أيضاً حتى الدفاع ضد من يهاجم أو يقاتل. ليست ثمة حرب عادلة مثلما ليس هناك دفاع عادل، أن أشياء مثل هذه أشياء واضحة، وجلية، لكنها تبدلّت وانقلبت إلى نقاشات ضبابية كي يتهرّب كل أحد من مسئوليته. هم فكّروا في أنفسهم وهكذا عليهم أن يفعلوا، وعلمونا عندما نفكر في أنفسنا وربما نقذف بقليل من المال في كيس الصدقة لنكون قد فعلنا كل ما يرضينا وما ينبغي علينا فعله. ليس بإمكاننا أن نتخلص من الذنوب قبل أن نتذكر إننا نمتلك القصور والكتدرائيات والدارات والذهب والفضة، والترف والبذخ في الوقت الذي فيه ملايين أخرى لا تملك حتى فتات وكسرة الخبز. إن هذه الثروة والغنى قائمين على جوع الملايين وعَوزها. ملامون أولئك الذين علّموا ويعلّمون الإنجيل، وحسبما ورد في دفاتر يومياتهم، والذين بدّلوا من هذا الكتاب الخطير ليضعوه في مستوى إنسان الطبقة المتوسطة، والـ. . أي شيء وأي شخص (Tal - kwalun kwista)[21]) صرخ (كارلو).

- (الـ. . . أي شيء وأي شخص).

غمغم (دن بنيامين: (وأنا أيضاً «أي شخص» يا كارلو، لأني لم أصرخ مطلقاً صرخة ولم أحتج، كما لم أحاول أن أخوّض المياه الراكدة لسادتي ورؤسائي الهانئين على الإطلاق، ولا أعرف، لا أعرف، لا أعرف).

وارتبك القسيس الذي وجد نفسه في مفرق طريق، بين أن يتابع

(21) Tal-kwalunkwista من Qualunquista: الشخص الذي لا يولي اهتماماً للسياسة، عن جهل أو معرفة، أو كما يدعي من العامة.

كما علّموه وما يتوجب عليه أن يعمل، وبين أن ـ يفتح فاه كما أحس أن يفعل).

- (الـ. . أي شخص، العامي، إنسان الطبقة المتوسطة، المجرم، يا دن بنيامين، الإنسان الذي لا يسأل ولا يستفسر، ولا يشتبه بمجرم، وبه وببساطته وعلى كتفيه وعلى حسابه تحدث الخوارق والمصائب الكبيرة. إن إيماننا ولد في الفقر ومع الفقر. موسى تربّى في قصر فرعوني، بوذا كان أميراً، محمد كان له شرف المقاتلين والمحاربين الأوئل، ويسوع ماذا كان له؟ إن قضيتنا انبثقت من هوان الفقر ومن الخزى والعار، ومن شقاء وكد العمل، وهكذا ينبغي أن تظل وألا تضيع، وهذه هي اللهجة المدنية النصرانية التي لم تفهم بعد مؤسسنا، ولن يكون هناك ضميراً حياً ونظيفاً ما لم يكن هناك تغييراً شاملاً يحطم الفروق ويجعل الناس سواسية. أن الكنيسة تطمئن من يسرح ويمرح في الترف والبذخ والثراء ويدخل الأماكن المقدسة، والمسيح يدفعه إلى الخارج كي ينظف ضمير قبل أن يقترب منه. من معه الحق؟ العالم الذي يغرق لتوه في الثروة، وعالم الـ. . . . . أي شخص، العامة الذين لا يفتحون على الأقل أفواههم كي لا يعافون ويشمئزون كلاهما عالم واحد مفتقد لمبدأ واحد يا دن بنيامين. مبدأ السلام، وسلام الوظيفة، وسلام الثقافة والرياضة والتسلية. . .) وتوقف (كارلو مانيو) حين نظر إليه القسيس نظرة صارمة ومتمعنة:

- (لكن، لكن). قاطعه بهدوء وقد مس يده مساً رفيقاً: (لكن لتعذرني، لأنك بذلك تكون قد شجبت وأدنت نفسك أيضاً. . .) تمتم القسيس.

ـ (هذا أكيد، أكيد أنا أيضاً، أنا أيضاً أعيش على نحو سيء، وأطيع، من قال لك لا؟ لكن هكذا ربوني: أطع، كن ولداً طيباً، التزم الهدوء، اسمع ما يقوله لك الكبار، وأطعت والتزمت الهدوء و. . . ألا ترى؟ العالم مغرق بملايين ملتزمين الصمت، ومغرق بقواعد وأساسيات الجور والظلم، أعرف اليوم أنهم علموني كل ما يجب أن يكون، منذ فترة طويلة أسمع الإنجيل الذي لم يعد يروق لي، أقرأ وأعيد وأقرأ: هل تعتقد بأني أفهم جيداً؟، وإذا كان كذلك فهم الذين يعلموننا، لماذا لم يحذروني أو ينذرونني بأن مَنْ يتّبعه يكون معرضاً للشبهة،؟ ولماذا أعطوني انطباعاً على أنه كتاب مقنع، فوق الخزانة الصغيرة ذات ـ الأدراج أو مرفوفاً بالمكتبة، ويدعوا لي السلام؟ أعود فأقرأه، وانتبّه إلى أن يقاس ككلام جميل وبلاغي وطاهر أو تترك كل شيء كما هو عليه، وألا تأخذه على نحو جدي وتظفر بحصاد وفير، يوقع في نفسك الذعر، وتحتدم من الداخل لأنه كتاب جذري وخلقي غير قابل للتسويات، مطلقاً لم يعلموني مطلقاً أن أعترف بأن ذنبي وخطيئتي في الملايين والملايين الذين يموتون وما يزالون يموتون من الفقر. لم يعلموني قط بأني أكون مخطئاً ومذنباً حين لا أصرخ في وجه الجور والبهتان التي خلفتها السلطات، لم ولم يخبروني بأني مذنب حين لا أتدخل فيما لا يعنيني، إذا ما كان ثمة قيمأف أو مسائل قيم. ما حدث أنه للآن لم تكن خطيئتي لوحدي بل خطيئة الكثيرين من العامة والبسطاء الآخرين الذين هم نصارى، والذين ينفقون أوقاتهم بالبركة الصغيرة ذات ـ المناقب والفضائل المتميزة والجليلة حيث بمستطاعهم أن يعوموا ويجذفوا بهدوء وارتياح في موجة غير

منتظمة ومتسقة. أي إفلاس هذا، إذهب لتغيّر من الدنيا إذا ما تبدلت هذه المفاهيم وبدت مسالمة).

قال (كارلو) بصوت حديدي: (لقد انتشرت عروقها وتمكنت من الأعماق، بل صارت مؤكدة كتذاكر الدرجة الأولى للجنة) الصق (دن نبيامين) راحتيه في بعضهما البعض، ووضعهما مستقيمتين على مستوى نصف وجهه كعادته وهو يدعو، ثم خفض رأسه وأغلق عينيه مثل أحد ندم عن فعل كبير، وكان (كارلو) أن تطلع إليه وتمعنه جيداً، وتمنى ألا يكون قد أزعجه في شيخوخته، لأنه ما كان في حاجة لأن يزعج. بعد ذلك هز القسيس رأسه مرتين ونطق بضيق:

- (لم نفهم شيئاً يا مولاي، شيئاً لم نفهم، لا شيء، لا شيء، لا شي. . .) حتى تبدّد وتشتّت الكلام وتابع: (لا أعرف ماذا سأقول لك يا كارلو، لا أعرف، أن يسوع يطالبنا بالكثير، ولا يدع لنا أي شك، كما لم يدع لنا أقل مبرر، لتونا نقع في الخطأ، نذنب، ونذنب بالفعل لأننا لم نعلّم كلمته بل كلمتنا، ومن الممكن أن يعذرنا ويعفو عنا لأننا وبعد ألفي سنة لم نفهم جيداً، ويعذر أناساً من أمثالي من الذين يحالون فعل وعمل الأفضل وقدر المستطاع في حيزهم الضيق، في قرية صغيرة ومعزولة مثل هذه. إني لأتمنى وأتمنى أن يعذرنا ويقفل عينيه).

توقف لفترة وأضاف: (ليس كل من هو متمرد أو عاصي نصراني طيب، لكن كل من هو نصراني طيب متمرد، وأنت يا كارلو متمرد، متمرد وعاصي، وبمعنى متمرد طيب). قال له بفرح.

- (وأنت يا دن، أيضاً متمرد).

قال ممازحه، وأضاف: (كل من يتحدى الرسميات وقواعد

تشريفات المجتمع، وكل من يقف ضد قوانين الإمتثال والخضوع واللاتفريقية يعتبر متمرداً. أن الإِنجيل عبارة عن كتيّب يهين حيادنا، متمرد، متمرد من يقترب من معانيه، متمرد وخارج عن معاني اللطف والكياسة).

- (متمرّد، أنا متمرد؟).

ضحك القسيس وكان مخلوع الفؤاد، في حين دوّر يديه الاثنتين حول العصا المنتصبة أمامه مباشرة: (دائماً عشت وأعيش في سكينة وهدوء هذه القرية المنكفئة والمعزولة على نفسها، والتي كما لو أنها في طرف قصي ومنسي من العالم حيث لا أحد يفعل شيئاً، ولا يحدث مطلقاً شيئاً. وعشت كما أحسست وينبغي أن أعيش، وإذا ما كانت الأشياء الطبيعية تمرداً وعصياناً فإنها تمرد وعصيان مثل الإِنجيل، تمرد وعصيان طبيعي، على أية حال، ودونما تفكير لا أحس بأني عاصي أو متمرد..).

وقاطعه (كارلو):

- (من يبتعد عن الإِنجيل، من الممكن إذن أن يكون متمرداً وضد الإِنجيل).

- (أجل، أجل، إنك لتقول الحق).

أجابه القسيس مغتبطاً لخلاصه من ثقل كلمة (متمرد) التي ما كان يعرف كيف يخرجها من شفتيه.

واستطرد:

- (ذات مرة كان الوقوف ضد الإِنجيل عادة. من يناصر الإِنجيل أو يعيشه يبدو كما لو كان متمرداً، لكن ليس كذلك).

إذ ذاك اقترب (تشربرو) منهما بهدوء، وانتصب واقفاً بينهما. فرح القسيس به ومسد له رأسه: (تشربرو، تشربرو). قال القسيس: (صديقنا القديم، أين كان كل هذا الوقت؟).

- (في مكان ما هنا). أجابه (كارلو): (قبل أن اقترب من هنا، وأدعو لوحدي). وأشار بيده إلى زاوية الكنيسة حيث جلس الاثنان في البداية.

- (لديك الصديق الذي يمكنك الاعتماد عليه) قال القسيس: (وأقول لك شيئاً آخر، أعني لا أرى ما يدعوك لأن تكون حزيناً آسفاً مثلما قلت. الانزعاج الذي أظهرته ليس بانزعاج وحالما يمضي كجو رديء).

- (أظن إنك محق يا دن بنيامين، وإن ما تقوله لعين الحق).

ورفع (كارلو) رأسه ومسد رأس الكلب أيضاً: (لا أعرف مشاعري وأحاسيسي على وجه الدقة، أحس داخلي بحراً هائجاً مضطرباً، تارة مندفعاً هناك وأخرى هنالك مثل قارب تتقاذفه الأمواه، لكن ما دام ثمة بحراً متماوجاً فثمة حياة، وأعتقد بأني سعيد لأني عشت وفياً ومخلصاً لنفسي، هم يلعبون بالأحزاب وأنا أضحك وأسخر منهم، هم يعيشون مثل قطيع من غنم وأنا أعيش لوحدي، هم يخفضون رؤوسهم أمام كل من يخيفهم ويهددهم وأنا ـ على الأقل ـ أحاول أن أسخر بهم). وتوقف (كارلو) فجأة كما لو أن إلهاماً جديدا أو وحياً قد تلبسّه أو نزل عليه وغيّر من مزاجه في غمزة عين): (أتراجع عن كل ما قلته لك قبل قليل: قررت إلاّ شيء يزعجني البتة، وكما أريد أن أعلن أيضاً عن سعادتي الخالصة. أنا موقوف يا دن، موقوف عن العمل، والشرطة كتبت عني

التقارير، ومع ذلك فأنا سعيد، سعيد جداً).

وكاد أن ينفجر ضاحكاً ما أن تذكر أنه في الكنيسة، وكان القسيس أن انتبه إلى صاحبه الذي غالب ضحكة كبيرة داخله وقاطعه:

- (ألا تخاف من الضحك أمام المعلم، إن معلمنا مصلوب وفرحان، ويريدنا أن نكون مبتهجين، وبالذات حين نكون متعذبين. هذا هو بيته، وليس ببيته أي قانون على الإطلاق عدا المحبة، ولهذا فهو أيضاً بيتنا، وبإمكاننا أن نفعل به ما نريد كأحباب وأصدقاء له. إضحك، إضحك ومرحباً بالجميع، مرحباً بكل أحد، لأنه لا خجل في بيته على الإطلاق. أن مولاي لا يتكلم ولا يقول شيئاً فحسب، بل أيضاً يُسر ويغمره الفرح).

وغيّر (كارلو) من جلسته على الكرسي، ونهض كما لو أنه يتمطّى، وحرك رأسه من جانب إلى آخر. كانت ثمة أشياء تشغل تفكيره:

- (هذا البلد). قال: (هذا البلد يزعجني، وهذا ما ينبغي عليّ أن أقوله لك. عاش حياته خافضاً رأسه للكبار ولكل ما يفعله الكبار، والآن أدرك أن رأسه دائماً إلى الأسفل. إذا ما فكر أو حاول أن يرفعه فإنه سيعقره ويوجعه، ويندهش ويقرر بعدئذٍ إنه من الأفضل له أن يعود إلى وضعه السابق. أدرك وأدرك بأن ينبغي عليه أن يفتش في الأرض، يدرك بأن فرسان القديس كانوا هنا، وجاء بعدهم الحكام، ثم جاء بعد الحكام أصحاب السيادة والفخامة، والذين هم جميعاً من دم نبلاء واحد. إن

الملاك الخاصين للبلد، ما هي جنسيتهم ووطنيتهم، أنهم الرعاة الحقيقيين لقطيع الغنم كله الذين يفكر نصفهم بأنهم ليسوا قطيعاً من الغنم إذا ما كان الحزب الذي يسيطر عليهم لا يحكم فيما يحاول نصفهم الآخر جاهداً أن ينسفهم ويطيح بهم ويستولي على الحكم، نصف إلى أسفل ونصف إلى أعلى وإن كان الاثنان في الواقع إلى أسفل، إلى الأسفل دائماً ووجهاهما إلى الأرض).

- (دعك من السياسة يا كارلو، السياسية ليست خبزنا وأنا كقسيس ينبغي عليّ أن أكون متيقظاً وبسبعة عيون وأكثر من أي أحد آخر لأن كل خطوة أخطوها يمكن أن تفسر خطأ حتى إذا كانت ليست لديهم أي معرفة خاصة بي. . .).

- (تلك ليست سياسة يا دن بنيامين، هذا هو الإحساس العام لهذا المجتمع الصغير الذي ما يزال في زمن الأباطرة والسلاطين الذين يشرقون الشمس في الصباح، ولهذا يستيقظون مبكرين قبلنا كثيراً ويغربونها في المساء كي يضعون القمر بدلاً منها، فكّر قليلاً، نحن نعيش فوق شبر أرض يطلب إلينا أن نعمل شيئاً ما، لأن هنا لا شيء يحدث مطلقاً، إننا لنُركب من هوس ومس شغل السياسة، ثمة من يضع شارة على صدره، وثمة من يرفع ويلوح ويجر الأعلام، كما أن هناك من يلف ويدور ليجمع النقود للحزب، ومن يكتب رسائلاً في الصحف، ومن يرفع أصحاب السيادة والفخامة فوق كتفيه وفي الاجتماعات، ومن يظل يجادل ويناقش، ويحتسي في المشرب، ومن يفتح أذنيه على وسعهما ليسمع دمدمة ولغو الآخرين وينشره ويذيعه في مكانه المحدّد، ومن يخرج أيضاً والصحف بين يديه ليراه كل أحد. على أية حال، ثمة مكاناً دائماً لمن يشعر بأنه مهم، ضرب من

قائد صغير للبلد، شكل منمنم لرئيس الوزراء، وهذه، هذه يدعونها سياسة؟ هل تظن أن الأحزاب هي زمر سياسية، أم قبيلتان اثنتان صغيرتان تضع في حوزتهما أو جوارهما كل أحد، مثل مكنسة تخبط رأسك، وتضغطه لتجرك معها؟ الجميع مكنوس، يا دن بنيامين، وحتى أنت).

- (ليس كل أحد، من لا يريد أن ينكنس فلا يكنس، كي استعمل تعبيرك، أنت، وكما نقول نحن، تشعر وكأنك متحرر من هذا كله).

قال له القسيس.

- (هكذا أبدو من الخارج، وهكذا أحاول أن أفعل، لكن الجو رديء وفاسد، تقفل فاك من غير حساب يا دن بنيامين، ليس بإمكانك العيش من غير هواء، أما تتنسمه أو تموت، ونحن علينا جميعاً أن نعيش كما نعيش، وهذا هو الجو، وفي كل مرة هو كذلك، نريد أولاً نريد، لا خلاص لنا منه، ولا مناص من أن يفرض علينا ونعيش به. كم من مرة قفلت عيني وسددت أذني وكان بإمكاني أن أسمع وأن أرى في نفس الوقت. الأشياء الصغيرة، الفضول، الإشاعات والدعايات، وفضلاً عن ذلك العلاقة التي بين شيء وآخر، . . . . ومن جراء هذا كله، فإن هذا المنفى في بلدك بالذات هو مخلوق صغير آخر ليس بإمكانك احتماله، غير أني في أعماق قلبي، أشعر بأني قوي ومتحرر رغم كل شيء. لأن ذلك الذي يأتي من الخارج هوخارجي، وحتى لو يحاول معي ما يحاول، ويبذل قدر مستطاعه فإني لا أحس بأنه قطعة مني. يوجعني، يتعمّق فيّ، أجل، يتعمّق، لكن أن يصير قطعة مني، قطعة مني؟ فلا، لا).

- (أفرح حين أسمعك تتكلم هكذا يا كارول، لأن كلاماً مثل هذا به بذور الثورة الصادقة القائمة أيضاً على رغبة وإرادة صلبة، وليس على الصّدفة المتخفّية تحت الأيديولوجية التي تؤدي فيما بعد إلى كسب المواقع. الثورة التي تنامت وتجذرت فيك لتوها، لكن أقول الحقيقة وهي أنني لا أعرف ما أقوله وأنا أرى كل شيء يحكم الوثاق من حولك ولم يكن قطعة منك. فيما بيننا ـ لأني أخاف أن أتكلم في السياسة، ولا أريد أن أشوّه في هذه الحياة اللباس الذي أرتديه ـ لا أعرف من منا مع هذا الجانب أو مع الجانب. ثمة من تربى لينظر إليها بشكل وثمة من تربى ليرى إليها بشكل آخر، أعني أن كل واحد وجد نفسه ومنذ أن ولد مزروعاً ولتوه في سلطة الحزب الذي ورث عن العائلة، وكان عليه أن يكبر في ظل مفاهيم حزب العائلة. إن كل جنس يمتلك اللون الذي يعرفه كل أحد لأن التصويت بيننا، أعني هنا لم يكن حتى شيئاً سرياً فكل أحد يصوّت لكل أحد، والتصويت والانتخاب صار أيضاً شعبياً). كان صوت دن بنيامين واهناً منماً عن ضيق، وكان أن رفع سبّابة يده اليمنى باتجاه فم كارلو مانيو وإلى طرف أنفه ليفسر له: (فيما بيننا يا كارلو، ما بيننا). قال له لأنه كان يخاف بالفعل عندما تصدر عنه كلمة من هذا النوع، على الأقل في الأذنين، فالسقف له عينين، والجدران لها آذان، وأيضاً أكثر من ذلك. كان يعرف.

- (الله شاهد على أن كل ما أقوله، لا أقوله إلا من قلبي).

تابع فيما مسحت نظرته المذبح، ونهض (كارلو مانيو) واقفاً ومشى خطوات قليلة، وكأنه يريد أن يبدّل من جلسته التي أمضي فيها وقتاً طويلاً، ثم اقترب من القسيس وربت على كتفيه مرتين:

ـ (دن بنيامين، الجو متنجّس، كما قلت لك، وكل أحد بيننا وُلد بلونه المختار له من قبل، لأنه لدينا العنصرية والعنصرية لا شأن لها بلون الجلد بل بلون الانتخاب أو التصويت، لكن لا شيء ولا أحد بمقدوره أن يتدخل في قلب الإِنسان إذا كان هو لا ريد، يكون موالياً ومناصراً لمن يريد، وإذ يريد، مسألة اختيار وضعف أيضاً. الإِنسان يدخل البحر إذا ما قرر هو. اللاتينيون يقولون: القط يريد السمك لكن لا يريد أن يبلل أرجله ـ ولا يدخل الماء، أنا أقول لك. أنا لا أدخل حتى إذا فكر كل أحد بأني أعوم فيه منذ مدة ومن البدء. هذا بحر ذو ماء راكد يتجمع فيه الحمأ والوسخ والقذارة، وسخ وقذارة طبقات حقيقية والتي ظلت وتظل تفكر بأنها أعلى من الأغلبية. لا شيء في قلبي يعمر سواي. لا أقسّم الفراغ الذي في داخلي إلى اثنين كي أحب بعد ذلك نصفاً وأبغض الآخر. أكبر من النصف قلبي بكثير لأملأه بنصف فقط. به مكاناً يتسع لكل أحد. للجانبين).

نظرة (دن بنيامين) كانت متسمرة فوق وجه صديقه وكان رأسه يعلو ويهبط متتبعاً كل صغيرة وكبيرة.

وتذمّر (كارلو):

ـ (هذه ليست سياسة يا دن، هذه عصبية قبليّة والتي ينبغي أن نتنظف منها. لا تنزعج لكونك تكلمت معي اليوم حول هذه الأشياء. إني لو كنت مكانك إذن لأعلنتها ونشرتها من فوق المذابح أيضاً).

ـ (ماذا أفعل؟ أي شيء هذا، يا مريم العذراء، إذن تريدني أن انتهى إلى السنة جماعة الأحزاب؟).

اندهش القسيس: (لا، لا، لا). ودوّت الكلمة في فمه.

(هكذا ينبغي عليك أن تفعل، رغم أني على يقين من أنك تحتاج إلى مزيد من الشجاعة، وأعود فأقول لك إنك لو تفعل ذلك إذن لكنت الأول، لأن القسيسين ظلوا مرتبطين ومساندين لجانب واحد، والآن الذين تمتعوا منهم بالسمعة بإمكانهم أن يذهبوا ليناموا، لأنه ليس من السهل جداً على الأغلبية أن تغير مفاهيمها ومعارفها، القيم، القيم هي كل شيء يا دن بنيامين، لا يساوي شيئاً من يتكلم عنها أو يرى إليها أو يهملها ولا يضع لها اعتباراً. القيم تريد من يحتضنها، ويعلنها وينشرها ويبشر بها، ليفكروا بما يفكرون به أولئك الذين يروك جميلاً أو قبيحاً. لا شيء يمكن فعله، أما أن تفوح وأما أن تنتن، وبصرف النظر عن كل شيء فإن المعلم لم يكن له أن يصوّت على الصمت).

- (لكنك تقول بأنك لا تفوح ولا تنتن مع أي جانب).

قاطعه القسيس، وكان فرحاً أن أصاب نقصاً في كلامه، متمنياً أن يتخلص من هذا الواجب غير المريح الذي كان (كارلو مانيو) يقدمه له لتوه ساخناً في صحن.

- (تنتن أو تفوح ليس في عيني الحزب، بل في عيني الناس الذين يريدون اختيار قيمهم، الخطر متوفر هنا دائماً، لأنه في كل مرة كل شيء يتخذ له لوناً، وعلى أية حال كل ما تقول سوف يلونونه، وكيفما يتفق، لكن القيم تظل قيماً، ولا تستطيع الصمت أمامها، ولو أن يسوع صمت إذن لما انتهى مجرماً على الصليب).

قال (كارلو) ورجع فربّت بلطف على ظهر القسيس الخائف.

المصلوب كان الثالث بينهما متدلّياً في منتصف المذبح، هامداً،

منصتاً، يرى إلى كل شيء، وعلى بعد بضع خطوات ثمة مسافات محيطات، وكان (كارلو) أن تذكّر ذلك الأعزب الشجاع الذي جمّع الناس حوله وكلّمهم بصوت عالٍ كي يسمعه سدنته أيضاً، كما تذكّر المرضى والفقراء والمبعدين والمزدرين الذين جروا خلفه مفتخرين ومعتزّين بأن وجدوا في النهاية قائداً لهم استطاع أن يحقّق لهم طموحاتهم القديمة والذابلة. رآه يتحدّى ويعنّف، رآه يدعو ويغضب، ويحب ويبغض، يتحنّن ويحبّ، يحبّ، سمعه يختار الكلمة التي تنفذ ولا تنسى، يختار حتّى الكلمة المعرّضة للخطر، الكلمة الجارحة التي قادته إلى المشنقة.

(كثيراً هم فكّرونا في يسوع وهو يدعو في الحديقة Ort[22] يا دن بنيامين، فكّرونا به وهو يعذّب ويجلد وينزف دماً، ولم يفكّرونا كثيراً بيسوع الذي لا يفكّر في الكلمة الصادرة مباشرة عن روحه، ويسوع الذي يتحدّى باسم القيم ولا يخشى الأخطار لقد أنسونا كل شيء، وأنسونا يسوع الذي ينفض من صندله أصغر وأصغر ذرّة من تراب القوة). كان (كارلو) يلوم ويعاتب وما كان القسيس يمتلك القدرة على رفع رأس ويدافع عن كلمة واحدة.

(حسناً، حسناً). قال القسيس في حين بسط يديه على ركبتيه وأخذ يملّس الغفّارة ورأسه إلى الأرض يحرّكه هنا وهنالك وفمه مقفلاً. إن تصريحات كهذه ما توقعها عمره قط، إذ أنها حيّرته وأربكته، بل أثارت فيه أشياء وأشياء.

- (هوّن عليك يا دن، إن قلبي ليتسع لكل أحد، أنه لكبير وواسع

---

(22) Garden of gethsemane: الحديقة الجثمانية التي اعتقل فيها السيد المسيح خارج القدس.

وبإمكانه أن يحتوي الجانبين الاثنين اللذين، هما صغيران جداً بحيث يملأنه، الاثنان يدخلانه ويتبقّى أيضاً متسع لأحد آخر. كم يحتاج لأن يكون له قلباً صغيراً ذلك الذي لا يتسع داخله شيئاً يسيراً من حزب واحد).

- (إذن فثمة الكثيرين هنا ممن لهم قلوباً صغيرة؟).

قال القسيس، وكان هذه المرة متأكداً من نفسه.

- (أنت الآن تقول هكذا، ومن المحتمل أن ما تقوله صحيحاً. يقولون لي: سحابة سوداء مرّت، أعني هكذا عبرت في الماضي فوق رؤوسنا وليس الآن، لكن وهكذا نحن اليوم، جانباً مشتبكاً مع آخر، كل واحد يرى نفسه جميلاً حين يرى إلى وجهه أو يرى وجهه في المرآة. وكل أحد قبيحاً حين يرى إليه أحد آخر).

- (يا كارلو).

تشجّع القسيس قائلاً له حين أحس بأنه ظفر بكلمة صحيحة: (لتنتظر، انتظر قليلاً يا كارلو.... الأحزاب تختلف، تختلف يا كارلو، ولا تتفق فيما بينها، إذن ـ كيف بإمكان المرء أن يكون.... عفواً، كيف بإمكانه أن يكون مع الاثنين حين يكونان ضد بعضهما البعض؟).

- (إذا كانا كذلك فهذا أفضل، يقولون إن أحداً متقدم والآخر محافظ. الشعارات لا تعنيْ شيئاً لكن لا نستطيع أن نمضي بدونها، وإذا كان كذلك فإن واحداً يريدُ أن ـ يسرع والآخر يريد أن يسير ببطء، وإذا ما نظرنا إلى الاثنين كمجموعة واحد متماسكة ومتكاتفة فرقها داخلها نظراً لوجود هيئتين أو مظهرين متعارضين بها فإننا سنصل إلى أن نرى كيف يساند ويعين الواحد

الآخر، حيث أن ذلك الذي يريد أن يجري سيدفع بالآخر ليتحرك، وذلك الذي لا يرغب في أن يتحركَ كثيراً سيهدأ ويشد على فرامل الآخر. بالفرامل والوقود تحت أرجلنا نحسنُ القيادة يا دن بنيامين، أما بالفرامل لوحدها فسننتهي إلى أن نقف دون أعمارنا، وكذلك بالوقود فقط سننتهي بحادث في جدار).

وبدا (كارلو) فرحاً بهذا التشبيه، وتطلع بشيء من الكبرياء إلى صاحبه وأضاف: (ماذا تظن؟).

- (لم أرى مطلقاً هكذا لهذه المسألة. فكرتك هذه ليست سيئة ينبغي أن تكوّن حزباً لنفسك).

عندئذٍ أنفجر (كارلو) ضاحكاً: (وبهذا أكون نسفت كل ما قلته لك. حزب آخر يمكن أن يكون كرة بين رجلي واحد من الأحزاب الكبار، لأن السمكة الصغيرة لا تستطيع أن تأكل السمكة الكبيرة فحسب بل ليس بإمكانها أن تقنعها حتى بألا تأكلها. في هذه الجزيرة دائماً ثمة حزبين، صرّف الصغار فتجد اثنين كباراً بشعارات أو ظلال مختلفة. متى يا دن - متى نسمو ونضع حداً للأحزاب ثم نمضي بدونها، لأن أرضاً صغيرة مثل هذه ليست في حاجة إلى أكثر من لجنة صغيرة لعدد قليل من الناس تسيّر كل شيء ووفقاً لإرادتها ومفاهيمها ومبادئها الشعبية، إن المعرفة الشعبية لواحدة لأن - الأغلبية واحدة، ولو تقيّم الأشياء، المساحة والعدد والسكان والبقية لأدركت بأننا لسنا في حاجة إلى أكثر من لجنة شعبية تجتمع في حجرة في حي Muxi أو حي Kaprat[23] لكننا تربينا في ذيول الكبار، وظللنا نفكر مثلهم وشرعنا نرى إلى (الكبير) أيضاً مثلهم، ودون أن نقدر

(23) Muxi, kaprat: أحياء وهمية - استدلال ساخر.

على أن نكون ـ ولا نكون ـ كباراً. أطفالاً في السياسة ما نزال برغم إننا شخنا أو شيّختنا الثقافة).

وتضاعف اندهاش (دن بنيامين) بهذه الأفكار والمفاهيم ولو قُطعت رأسه لما خرجت منها نقطة حمراء. مبهوتاً كان ومصعوقاً، وقد غمغم أيضاً: (لنمضي، ولنمضي من غيرها).

- (أجل لنمضي، لنمضي وإلى أفضل نمضي).

قال (كارلو) وأضاف: (لكن الآن دعنا من هذا. إن تلك أشياء لا يمكن أن تتحقق دون أن نتحرك ودون أن نترعرع ونكبر. أن الأحزاب لتجعل منا ولتوها أطفالاً، لكنها باقية وستظل باقية إلى حين ومع ذلك كله فهي ليست موجودة لا أنقسم وأتوزع وأتشتت بين اثنين، وعلى كل شيء وإلى الأبد. أنا أحمر مع الأحمر، وأزرق مع الأزرق، أعني أنا مع الجماهير كلها لكن مع جماهير واحدة ولست مع نصفين اثنين، أرى إلى طيب وخبيث الاثنين معاً، واحداً بواحد وفي مرة واحدة، أفرح معهم حين يفرحون وأبكي حين يبكون. لست مع الاثنين لآخذ منهما أيما شيء. لا شيء أريد من أشيائهم لأنهم لا يمتلكون شيئاً ليس لي برغم أنهم يفعلون ما يريدون مثل فرسان القديس يوحنا والحكام Il - Gvernaturei[24] لا شيء، لا شيء أريد من أشيائهم لأن ما أريده أعرف كيف آخذه بمقدرتي وبيديّ، ولأن البلد كما هو بلدهم فهو بلدي، وإذا لم يعطوني ذاك الذي هو لي ـ وأكون الخاسر على الأقل بين أيديهم ـ فإني أعرف كيف أتجاهلهم وأتأسف عليهم. أنا مع الاثنين وضد الاثنين لأن العمل الطيب ليس لأحد عدا من هو طيب وما له من لون، والشيء

(24) Il-Gvernaturi: الانجليز.

غير الطيب أيضاً. والطيب ليس هو الأحمر والأزرق يا دن بنيامين بل الأبيض وغير الطيب ليس هو الأحمر والأزرق بل الأسود).

- (كم ترى السياسيين قبيحين يا كارلو، أنا أخاف منهم، لكن لا أراهم قبيحين هكذا).

- (يا دن، السياسيون لا يدومون، السياسيون أناس عاديون، وخطأ من الأخطأ ضد الطبيعة: القوة. السياسي ليس سوى كل من يختار أن يخرج عن مجال ودائرة الإنسانية ويأمر. تخيّل مجموعة من كلاب، تتجوّل وتلف وتدور هنا وهنالك ثم ينتصب واحد منها وينبح قبلها، وتنبح البقية بعده، أو أنه يذهب ليبول أو. . . . وتتعقبه فتفعل ما يفعل وتوسّخ - يكون قد صار السياسي. وتصوّر أنت، تصوّر أن تأمر وقد صرت سياسياً، تأمر كثيراً ثم تقع وتصير عادياً. فكر قليلاً في أن القوة ليست شيئاً، وليست إلا عبارة عن مرض عقلي لا يشفي منه الإنسان إلا إذا قطع الأجنحة الاصطناعية، ونزل ومشى في الطريق مثل بقية البشر. على المرء أن يتأسف لهم يا دن حتّى إذ يصعدون فوق رؤوسنا. يجعلونك تنفجر ضاحكاً حتى إذا أغضبوك، ولماذا هم دائماً غاضبين؟ لا يخفضون أصواتهم مطلقاً ولا يعقلون إضافة إلى أنهم لا يريدوننا أن نستخدم عقولنا، ويتظاهرون بأنهم يستخدمون عقولهم عوضاً عنا. لو كانت لهم عقولاً سليمة لفهمنا لكن. . . هم ضعفاء، وخائفون دائماً من الوقت الذي يوقعونهم فيه من هناك حيث يريحونهم حملة المساند والأعمدة المشعّبة في الاحتفالات الدينية، وفي كل حين منشغلة عقولهم ودائمة التفكير في اللحظة التي يقعون فيها على الأرض. ضعفاء، ولتضع هذا في اعتبارك، ضعفاء يا دن

ومرضى، ولتقل هذا لكل أحد كي لا يظل الذين معك خائفين من ظلّهم. ليس اعتباطاً وقد أصبحت عادة حين يخاف الناس الطيبون لسبب أو لآخر من التفكير في أن يشوهوا ويوسّخوا بالسياسة).

وتنبّه (كارلو مانيو) إلى أنه قد بدأ تقريباً يرفع من صوته كثيراً، وخجل من نفسه ما أن تذكر حيث كان. وما كان بمستطاع (دن بنيامين) أن يداري إعجابه:

- (ينبغي أن تعلّمهم المواعظ، أتظنني أنا؟).

سخر منه بابتسامة جادة وأضاف:

- (لكن، وأقولها كما هي...) توقف، ومسح بنظره الكنيسة كلها ليتيقّن من أن أحداً لا يستمع إليه: (لكن، تكون مخلصاً، قل لي: يبدو أنك تعترف، و.. هل من الممكن إلا تساند أحداً؟ أليس لديك حزباً؟ كيف لا يمكن أن يكون ذلك، إذا كان وبالضرورة ومن حين إلى آخر يتطلب إليك أن تنتقل من ناحية إلى أخرى كي تقول كلمة؟).

- (تظن ألا ليس لي يا دن بنيامين، لكن ليس مثلما تفكر أنت.. أنا أقف مع من يوافقني الآن. وإذا كان هذا لا يتفق معي الليلة فلا أتفق معه، وحتى هو لا يكون معي، لا أحد منهم بقادر على أن يشتريني إلى الأبد كي أوافقه على كل شيء، وكي احتقر وازدرى دائماً الآخر. أن حزبي يتبدّل ويتغيّر وفقاً لمفاهيمي ومفاهيم الحزب المختلفة، لديّ عقلاً أفكر به، استعمله واستغله وألا يكون قد تعطّل، وإذا ما أشتغل وقبل بأي حزب فليقبل، وإذا لا فلا، أن لوني أحمر بالأزرق، أو أزرق ـ بالأحمر. هل

يعجبك لون هكذا؟).

ولم يكن بإمكان القسيس أن يجيب سريعاً على أسئلة غريبة: (لم أرى في حياتي قط لوناً كهذا يا كارلو) قال ساخراً: (رأيت الأحمر، والأزرق أيضاً، أما أحمر أزرق، أو أزرق أحمر فلا).

وقال له كارلو:

- (لم أسألك إن رأيته أولاً، بل سألتك إن كان يعجبك).

- (يعجبني، يعجبني).

قال القسيس بسرعة ضد عواطفه: (لكن لم أره قط، وإذا لم أره فلن يعجبني، لكن يعجبني، يعجبني).

توقف قليلاً وساد الصمت، وكان الجدل قد وصل تقريباً إلى أن ينتهي.

- (دعنا نذهب لنحتسي قهوة، اعتقد أنك تعبت الآن من الحديث). طلب إليه وعاد فتابع: (وتشربرو أين هو؟، أظن أنه شعر أيضاً بالجوع).

نهض من على الكرسي بهدوء، وتوكأ على العصا وخفض رأسه قدّام المذبح في حين رفع يده اليمنى وفتح راحته مسلماً: (لنذهب).

ومشى (تشربرو) معهما موازياً لخطو القسيس البطيء، ثم خرجوا من الباب الأول، وأراد (كارلو) أن يؤكد له.

- (هذه هي القيم التي ينبغي أن تنشرها بين مواطني القرية يا دن بنيامين). قال له: (يتطلّب أن تفهمها لأولئك الذين لا يخجلون من أن يظلوا أطفالاً غير شرعيين للسياسيين، أكد لهم بأن أصحاب السيادة والسعادة هم فرسان قديس زماننا، ومن الممكن

أحقر منهم أيضاً، صحيح أنهم ليسوا جميعاً سواء، لكن أعطهم السلطة: القوة وتكون قد أعطيتهم ضربة، وخذ منهم السلطة وسوف ترى كيف يقعون أمامك أرضاً).

توقف (كارلو) وتطلع مباشرة في عيني القسيس: (لكم تمنيت لو كان لديّ منبر وعظك يا دن بنيامين). ثم مشى إلى يمينه ويده اليسرى خلف ظهره، وظل يتكلم إليه ويلوح بيده وكان صوته وهو يجلجل مثل تدفق مياه، وأحس القسيس كمن يمشي على شوك متلهفاً أن يتخذ النقاش مساراً آخر بعيداً عن المشاكل، وما كان بمستطاعه أن يلفظ أو ينطق كلمة واحدة لأن (كارلو) كان مسرعاً في كلامه ولم يتوقف ولو لفترة قصيرة وظلا سائرين على طول الساحة أمام الكنيسة وهبطا الشارع الكبير الذي لم يكن في الواقع كبيراً على الإطلاق إذا ما قورن بالشوارع الضيقة وأزقة المناطق. وأخذ الناس ينصتون إليه ويتلصصون وهو يتحدث، فيما داهمته رغبة ملحة في أن يرفع من صوته أكثر فأكثر كي يفهمه القرويون كلهم.

- (لا تصرخ، يا حسرتاه، لا تدعهم يسمعونك وأنت تتكلم عن هذه الأشياء). توسل إليه القسيس بلطف.

وزاد (كارلو) فرفع من صوته حتى بدت الأغلبية وبدافع من الفضول تتجمّع، في حين خرج البعض من وراء الأبواب الرجال والأطفال، أسرعوا الخطى باتجاهه، وظهروا وهم متجمّعين من حوله مثل خرشوف.

- (من أي حزب هو؟).

سأل القرويون بعضهم البعض، وانتقل السؤال من فم إلى آخر.

- (متى ستدركون بأن لديكم أطفالاً، وبأن هذا هو بلدكم وليس

بلد السياسيين؟ إلى متى ستظلون ماشين على أقدامكم وتفكرون بآذانكم؟ تذكروا أنكم أنتم الذين أفلحتم الأرض، وبنيتم كل ما حولكم. هذه هي أرضكم، كلها هنا هي، ولكم الحق في كل شبر تطأونه، لماذا إذا ما وقفتم وفكرتم ترون أن كل ما هو هنا خدمتموه أنتم، وإذا لم تكونوا أنتم فأباؤكم. خرج فرسان القديس يوحنا ليأتي الحكام، وخرج الحكام ليأتي بعدهم أصحاب السيادة والشرف والمعالي).

الكلمة الأخيرة أو هذه الجملة كانت تستريح في قلبه، وترقص فوق شفتيه. وكان الجمع قد خيّم عليه صمت لا مثيل له، وكادوا أن يأكلونه بنظراتهم.

- (والآن، فكروا في أنكم مثلما تخلصتم من الفرسان والحكام تتخلصون من أصحاب الفخامة والسيادة أيضاً، لأن أولئك كلهم دم واحد، النسل الذي ظل متحدراً إلى زماننا ليحكموكم. إن وجود الحزب هو أن تفعلوا ما تريدون به لا ما يريده بكم، إلى متى تظلون مؤمنين بالحزب كحزب وتظلون ترون فيه أباكم، وتدخلونه بأرواحكم وأجسامكم سوف تظلون لحماً مباعاً. أطفالاً ـ هكذا ستظلون، وهذا الخوف من أصحاب السعادة لماذا؟). وتوقف (كارلو) قليلاً ودوّر عينيه من ناحية إلى أخرى في الجمع: (من منكم لديه سبباً يجعله يخجل أمام السياسيين؟ إذن أنتم لستم أفضل منهم و هم الذين يسخرون منكم ويهزأون بكم في البرلمان، ويدفعون ويستلمون النقود من وراء ظهوركم فيما ينفقون حياتهم يتشاتمون ويتعايرون، وتتحمّر وجوههم وآذانهم ويكيلون السباب والشتائم أمام وعلى مرأى من الجميع؟ صفقوا لهم، دللوهم وامدحوهم لأنهم يستأهلون أن. . . تحركوا

وتشجّعوا، وقوّوا من عزائمكم واحكموا وتولوا شئون بلدكم، لأن هذه الأرض هي أرضكم وليست أرضهم، لقد سرقوها من بين أيديكم والآن يتطلب منكم أن ترجعوها، لأنها هي الأرض التي أفلحتموها وتعبتم فيها ومن أجلها).

وانطلق البعض مصفقاً لأنهم فكروا في أن (كارلو) واحد من الناطقين الشجعان بحزبهم.

- (هذا من حزبنا).

تمتم كل واحد للذي بجانبه. وشجعّهم آخر:

- (صفقوا له، يا أخوة، هذا معنا، صفقوا، صفقوا له).

- (انتخبوه، انتخبوه، نريده، نريده).

صرخ آخرون.

البقية من ذوي اللون الآخر أخذوا مباشرة انطباعاً على أن هذا الرجل مشوّش، وأنه جاء ليتحدث ضد حزبهم. كان ثمة من عقد يديه فوق صدره أو خلف ظهره منتظراً ما لذي سيحدث، أو كان ثمة من تأكله يداه، محاولاً أن يقترب منه ليرسل له وكيفما يتفق ضربة أو خبطة ما.

- (لا داع للتصفيق).

طلب إليهم (كارلو): (لأني لست من حزبكم)).

وخيم صمت لا مثيل له فوق الرؤوس، وكانوا محدقين، متطلعين في بعضهم البعض، وكادوا أن يرفعوا من أصواتهم ليلعنوه ويشتموه، في حين رفع هو يده ليواصل و: (أنا أتكلم باسمكم جميعاً، لأنكم أنتم شعب واحد، وأن أفكاركم هي أفكاركم وفي مرة

واحدة، الصحيح هو صحيح ولكل أحد، والخطأ هو خطأ ولكل أحد، لا تظلوا تسألون ما إذا كنت مع جانب أو آخر، بل ينبغي أن تروا إلى الذي أقوله وما إذا كان صحيحاً أم لا. أخبروني: صحيح ما أقول أم لا؟). سألهم بصوت قوي في حين مسح بنظرته كل وجه عابس متجهم أمامه، وكان الناس وهم يتطلعون بعضاً لبعض لم يعرفوا ما لذي سيقولونه، خائفين من أن يرتكبوا خطأ ويبعدون من أصحابهم الحزبيين. أن ـ كلامه قد أربكهم وحيّرهم وشككهم، لأنه من ناحية أو أخرى كان يبدو متأرجحاً من اليمين إلى اليسار، وأحياناً في النصف، ومرة يثير إعجاب البعض أو يثير سخطهم ومرة وفي لحظات ضد الجميع، ومرة أخرى مع الجميع، إن هذه اللعبة كانت قد تقطّرت ونزلت سماً للقرويين.

- (من أين قادماً هذا). أخذوا يتمتمون فيما بينهم: (يعرف ما يقول لكنه مشوّش تشويشاً كبيراً). قالوا: (أي ريح قذف به إلى هنا؟ يا له من سيّد).

وانتشرت الكلمة بين الجمع ولم ينتظروا طويلاً حتى بدأوا يعيّرونه ويسخرون منه بكل ما تلقفته ألسنتهم، وأنه لمن الثابت والمؤكد لو كان هو القديس Pietru[25] لذكّروه بالصردوك، ولو كان القديس Wistin[26] لا لغوا له تاريخه كله. لا شيء كانوا يعرفونه عن (كارلو) لكن كلامه كان كافياً. وفي لحظة فلت واحد من بين الحشد وركض إلى مركز الشرطة وأحضر معه اثنين من الشرطة العسكرية

(25) Pietru: واحد من حواري المسيح تنبأ له المسيح بأنه سيجحده ولا يوشي به أمام خصومه وذلك قبل أن يؤذّن الصردوك ثلاث مرات (العهد الجديد).

(26) Wistin: أسقف مدينة هيبو في القرن الخامس، شن حرباً على روما بالعصا والإنجيل. والمعروف بأوغسطين.

اللذين انحشرا وفي لحظ ردّة صليب وسط الحشد واستمعا إليه لوقت قصير ثم تطلعا في بعضهما البعض وتغامزا وقررا اعتقاله حيث تملكتهما همة و نشاط وقوة وسرعة الصقور لينقضا عليه.

- (تنحوّا افتحوا الطريق، ابتعدوا عن المنتصف).

صرخ الشرطيان وهما يدفعان الناس ثم أنهما وصلا إليه وقبضاه من ذراعيه بعنف:

- (اصمت، اصمت واقفل فمك، وهيّا، هيّا إلى المركز).

واندهش (كارلو) رغم أنه كان متوقعاً هذه الحادثة من حين إلى آخر وسألهما:

- (وماذا فعلت؟ ما لذي ارتكبته؟).

- (لا تملك تصريحاً لتتكلم إلى الشعب). قالا له: (ثم إنك جمعت حشداً من حولك. لتتخلص من ذلك وإلا ستندم على فعلتك وتظفر بما لا يسرك ويروق لك).

ثم مشيا به مرفوعاً على وجه التقريب عن الأرض، وكانت الأغلبية أن تحركت شيئاً فشيئاً من خلفهما وهما يجرّانه وتبعتهما على الطريق.

وصرخ (كارلو مانيو):

- (تشربرو، تشربرو، أين أنت؟) ودوّر رأسه من ناحية إلى أخرى علّه يلمحه.

- (من هو؟ أين هو؟ من هو تشربرو؟ هل معك أي شخص آخر؟) سأله أحدهما: (ومعك أيضاً شريك؟).

وصرخ (كارلو) من جديد:

- (تشربرو، يا تشربرو، لتكن متيقظاً ولتحافظ على نفسك ولا تثق بهم). كان الكلب في مكان ما وعلى مقربة منه هاراً ورأسه بين ساقيه معرّشاً كي لا يفقد صاحبه من أمام عينيه ثم نبح قليلاً، وبدا من الواضح أن شجاعته قد نقصت بعض الشيء.

- (من الأفضل لك أن تخبرنا عن صاحبك).

أنذره الشرطي الآخر.

(تشربرو، هل ثمة من يدعى تشربرو هنا؟ أين هو؟ من الأفضل له أن يأتي على خير وسلام، لأننا اليوم أو غداً سنجده، ليأتي لأن هذا ليس في صالحه، لا شيء، لا شيء بخافٍ عنا ولا يضيع من بين أيدينا).

تكلّم رجل طويل وافر البنية بصوت عالٍ وهو يلف ويدوّر رأسه في الجمع كله. وظل (تشربرو) ماشياً بالقرب منهما وما كان أحد لينتبه إليه فيما تطلع (كارلو) و (تشربرو) في بعضهما البعض، وتفاهما.

وتمتم (كارلو) من تحت لسانه.

- (دن بنيامين، لا أحد يعرف أين اتخذ سبيله).

لكن القسيس كان ببيته، وكان أن مضى عليه وقت طويل هناك منقعاً وغامساً خبزاً جافاً في القهوة منتظراً عودة صديقه على مهل، وقد طفحت رأسه بأفكار غير سارة.

6

* لا شيء يشد انتباهك في زنزانة دائرة الشرطة فمن فصّلها كان له ذوقاً سيئاً وسخيفاً بالمرة، كذوق من يفتحها بالمفتاح الكبير والثقيل ويدفع بأي ما داخلها ويقفل خلفه، وهكذا ومن خلال الجدران ثمة دليلاً واضحاً على مدى حرية الصوت المخنوق والمكبوت للإنسان المضطهد والخائف: الخربشة والتشطيب، إذ لا ريب في أن كل من دخلها خربش ورسم ونقش كل ما خطر بباله بقلم الرصاص، بالموسى وبكل شيء آخر من شأنه أن يطبع علامة أو إشارة واضحة ومفهومة فوق صخرة.

- (الجدران النظيفة دليل على الخوف أيضاً).

فكر (كارلو): (أجل، وحيث ليس ثمة ملصقات على الجدران إذن فثمة صمت الناس الذين أما لأنهم نسوا الفنون ذات - الأفكار المدوّنة والمكتوبة، أو أنهم ردموها في قاع أرواحهم لأَنهم خافوا من إعلانها أو لأنهم ليسوا في حاجة إلى أن - يغضبوا. لا وجود لنظام سياسي قديس على الإطلاق، كما لا يوجد نظام قديسي يقوده قديسون. أن تلطيخ وتشويه الجدران شيء طيب لأنها أي الجدران

مقامة لذلك، وليس فقط من أجل أن تدعم الأسقف بل لتنظف جو ومناخ الحرية وتدعه ليلف ويدور حتى يدخل وينفذ إلى المختبئات والمتخفيّات كلها. إن الجدران تتغلق وتنفتح، والسجن به الجدران، لكن في ذلك الغم والانغلاق تظل تتوقد ومن غير ما تنطفىء جمرة الحرية المتوطنة في قلب الأسير الذي رغم الأصفاد والأغلال والسلاسل والإِهانات والتسويط بمقدوره أن يشبك أصابع يديه في بعضها البعض، خمسة في خمسة، ويتناول قلم رصاص أو حجرة أو موسي ويرسم الكلمة (لا) بالشكل أو الصورة التي يعرفها وبكل اللسان الذي يتذكره. تعيش الجدران الملطخة والمتسخة.

لم يكتب (كارلو مانيو) شيئاً على جدران الزنزانة لقد ارتمى جالساً فوق المقعد الصغير ذي الذراعين في زاوية الحجرة ثم أراح رأسه بين يديه الاثنين وذراعاه منتصبتين على ركبتيه. كان ثمة صمتاً بالإِمكان تقطيعه بالسكين، وعلى الرغم من أنه وفي بعض الأحيان كانت تتناهى إليه أصوات خشنة ومتحشرجة من الحجرات البعيدة عنه بعض الشيء إلا أنه ما استطاع أن يفهم كلمة واحدة، إضافة إلى أنه لم يجد الرغبة أو الدافع في أن يتابع ما يحدث.

- (هل تستطيع أن تحضر لي كتاباً أو صحيفة من فضلك؟).

طلب (كارلو) من الشرطي الذي وصل بجانبه حاملاً فنجاناً مملؤاً:

- (لا، لا أستطيع) قاطعه الشرطي فجأة.

- (أي شيء يمكن أن أقرأه، ألا أستطيع أن أقرأ؟).

- (دعك من القراءة، ليست لدينا كتباً هنا).

- (أليست لديكم كتباً، هكذا إذن، هه، أفهم، إني لأفهم..)

وخفض (كارلو) رأسه.

- (الكتب التي لدينا بها أسماء أناس من أمثالك، تلك التي لدينا أما الكتب التي تريدها فلا نمتلكها ولسنا في حاجة إليها).

وناوله الشرطي فنجان الشاي وأمره أن يشربه لأن المفتش سوف لن يتأخر، وقد يفاجئه من حين إلى آخر.

- (ليست لدي الرغبة،، أشكرك في الوقت ذاته).

قال (كارلو) دون أن يرى إليه.

- (من وضعيتك يبدو أنك واحد من أولئك... واحد من أولئك الذين لسنا في حاجة إليهم بحيث نراهم وهم يجرون على سيقانهم في الشوارع. خذ واشرب).

- (قلت لك بأن ليست لدي الرغبة).

كاد الشرطي أن يفقد صبره ويستعمل القوة: (لا أصدق بأن ليست لديك الرغبة، فنجان كل أحد يأخذه. حتى من أجل حاجة صغيرة مثل هذه ليست لديك القدرة أن ـ تخفض رأسك). ومرّر (كارلو) أصابع يده اليمنى الخمسة في شعره وخفض رأسه أكثر: (إنك لست غبياً إلى حد كافٍ أيها الصديق، من الخير لك أن تظفر بدرجة أخرى في فرقتك. الشاي لا أريد أن أشربه، لأني لا أريد شيئاً من عندكم. هنا في الداخل لا شيء يعجبني، حتى شايكم، ولكي تفهم فإنه ليست لديّ الثقة بكم).

- (لا تطوّل لسانك). صرخ الشرطي.

- (لكن لتعذرني يا صديقي).

أسرع (كارلو) أكثر: (أتراجع عن كل ما قلته لك، أنت لا

تخطىء في شيء لأنه ليس بإمكانك أن تفعل أيما شيء آخر ذلك الذي يأمرونك، وأنا أظن بأن لديك عائلة، وعليك أن ترعاها، وأنا لهذا أعذرك، أعذرك. إن أول قانون للطبيعة هو أن الحياة ينبغي أن تتواصل. هل لديك أطفالاً؟).

خرج الشرطي من الزنزانة وقفلها، ثم شبك وعقد يديه الاثنتين حول القضبان الحديدية وتفرّس (كارلو) من قمة رأسه حتى أخمص قدميه وبنظرة مشبوهة. إن هذا السؤال فضلاً عن ذلك جعله هادئاً مقترباً شيئاً فشيئاً من الشاب حيث ظل يفكر فيه قليلاً وظل متطلعاً إليه بشفقة ورقة.

- (لدي ثلاثة أطفال).

وأخذ (كارلو) يرى إليه منتظراً أن يحلل عقدة من لسانه على الأقل بكلمة أخرى. لقد أدرك الشرطي من ناحيته أنه كان يضع لتوه وفي كفة واحدة كل الناس الذين كان ينبغي عليه أن يدفع بهم في الزنزانة ولقد كانت خبرة لها طبيعتها ورونقها وشكلها الخاص لأنه كم يتشابهون ويتشابهون أولئك الذين يتدافعون في الداخل، كل قصة كانت تختلف عن الأخرى وكان يومض الخيال الجامح لكل من يعرفها بألوان برّاقة ومتلألئة، إن هذا الشاب ذو نوعية أخرى، لسانه خفيف حين يتكلم، لكن لا يتكلم ببذاءة، قد يقول كلمة زائدة لكنها مع ذلك تشهد له أكثر وأكثر بالشجاعة من الغطرسة والعجرفة. إن اتهامه لكي يتم إثباته ينبغي أن يكون اتهاماً معروفاً، لكن الإتهام لم يكن شائعاً على الإطلاق، وما كان بمستطاعه أن يتذكر وقد أنفق وقتاً طويلاً في هذه الخدمة واحداً مثله. طفق يتطلع إليه وكان أن دفعه إلى أن يتنبّه إلى أنه ما كان ليعاقبه ولا إلى أن يراه قبيحاً وأسوداً سواد الفحم من أعلى إلى أسفل. لم يقل كلمة أخرى

ومكّنه من أن يتمنّاه أن يتكلم أكثر:

- (أسعيد في هذا الشغل؟).

سأله (كارلو).

حرك الشرطي رأسه دون أن يفتح فاه وابتسم ابتسامة مريرة تاركاً للآخر أن يفهمها كيفما يريد.

(ليس خطاؤك، لكن هذا ليس عملاً مناسباً، في البيت متعوداً أن تربّى وتحب، مع العائلة تتبسم وتمزح وهناً يريدونك ترى وتنظر بحقد وكراهية. هنا يعلمونك صنعة وحرفة التسويط والحقد. ينبغي عليك أن تعرف كيف تقص وتسرد أيها الصديق...).

قال كارلو وعيناه مثبتتين في عيني الآخر وما أن تنبّه إلى أن الآخر قد وافقه بغمزة خفيفة قال له: (وإذا لم تفعل ذلك، وإذا لم تعجبهم فإنهم سيطأونك، لأنهم يمتلكون أحذية ثقيلة، وأنت عائل لثلاثة أطفال، وتريد إطعامهم. أن تسرد وتقص خارج خشبة المسرح هو شيء جميل، لكن أن تدع أطفالك يموتون جوعاً فهو شيء مشين حقاً).

بدأ الشرطي يقترب أكثر من الشاب وتشجع أن يفتح فمه. دار شيئاً فشيئاً وتطلع من حوله ليطمئن إلا أحد ينصت إليه، رفع يداً واحدة من على قضبان الزنزانة ولوى فمه بشكل نصف دائري: (والآن أنت أيضاً ينبغي عليك أن تسرد وتقص، اسمعني جيداً، سيبعث المفتش في طلبك في الحال وسيشرع في الصراخ ويحاول أن يخيفك ويضغط عليك، لكن حاذر من أن تفلت منك كلمة زائدة، أسرد أنت أيضاً وستخفف عنك العقوبة، أبد له مظاهر الاحترام والقوة التي يمتلكها وسوف ترى كيف أنه سيهدأ ويتغيّر وإذ تشعره

بذلك تراه وقد خرج عن طبيعته، وليس عليك أن تبدو متجهماً، إنك لتبدو ابن مدرسة، والكلمة تعرف كيف تقولها وتستعملها، فقط لتسرد وتقص والله يعينك جيداً، هكذا حال الدنيا، ينبغي أن تظهر وجهاً بوجه، وينبغي أن تظهر الوجه الذي يختارونه هم لك وإلا تورطت في المشاكل. هذا الذي أقوله لك لا تنساه، ولتحفظه بيني وبينك، هل فهمت؟ وإلا . . .) قال في الوقت الذي وضع سبّابته أمام فمه. في حجرات بعيدة بعض الشيء كان ثمة كلاماً مسموعاً دون أن يفهم، وكان ثمة جواً من كلال وتعب وعزلة وخمول في الأنحاء، فالجدران مضى عليها وقت لم تبيّض فيه، والأرض احتاجت إلى تنظيف جيد، ولو تغسل لكان أفضل. رفع (كارلو) نظره في أرجاء الغرفة وتفحص كل ما وصلت إليه عيناه ثم جعّد وجهه وعاد فخفض بصره إلى الأرض. ما كان بمستطاعه أن يجد ما يسره أو يرضيه، حتى البناء وطريقة البناء.

- (أفهم كل ما تقوله لي لكن ألا يبدو لك أنه من المفروض أن تكون ثمة طريقة أخرى تمكن الناس من التعايش فيما بينهم؟ أنتم تسردون وتقصون، والناس لا يعون بأن تحت البدل النظامية التي ترتدونها والمصداقية التي تظهرونها ثمة شيئاً ما مختلفاً تماماً، والناس وكما تقول لي أنت الآن يكون لهم أيضاً أن يسردوا ويقصوا أمام الناس الذين يأمرون، وألا ينتهون نهاية غير سارة. هذا سرد واحد. . .).

تنهد (كارلو) بصوت واهن وحزين.

- (مؤكد، مؤكد).

قاطعه الشرطي: (سرد واحد). وكاد أن يبتسم فيما غمرت

لتوها وجهه نظرة وامضة حديدية:

- (لكن ليس ثمة طريقاً أخرى، وسوف أقول لك هذا أيضاً، حتى كبارنا يسردون ويقصون للذين من فوقهم وإلا لما استطاعوا ويستطيعون الانضمام، والناس الذين في الأعلى هم أيضاً يقصون ويسردون. عندما يحين الوقت الذي بإمكان المرء أن يسترد فيه النفس دونما عقبة أو خوف أعني حين يجد المرء نفسه في الحبس، أو في ضائقة أو صدمة صغيرة فإنك تسمع أي واحد من أولئك الذين من فوقنا يقول أية كلمة زائدة لا يعرف أحد منذ متى كانت داخله مخبؤة ومتسترّة، ثم أقول لك وكي لا تنسى بأن الإِنسان ومن أعماق قلبه ليس سيئاً وشريراً، ولا يود أن يرتدي حتى البدل النظامية، لكن يحدث ما يحدث، ويجد نفسه في وضعية لا مفر من اختيارها وقبولها، ولا يطرد أو يضطهد أو يتحطم أو يبتلع مفاهيمه ومعارفه حيث يصطدم بها، ويفعل ما يقولونه له، وهذا لا ينطبق علينا نحن فقط الذين من المفترض أن نطيع، والذين أمامكم أنتم أناس الشارع نبدو لكم إننا نأمر. أي أمر لنا؟، هذا ينطبق أيضاً على أولئك الذين أمامكم وأمامنا والذين يبدون كأناس يمتلكون القوة كلها في قبضات أيديهم، أن الكبار هم نعاج أخرى ترتدي لباس الأسود، وفي كثير من الأحيان ينتزعونها، كما أقول لك، لأنهم يعرفون بأنها لن تعجبهم وتروق لهم ويجدونها منضبطة عليهم. صب لهم قطرة زائدة، أظهر لهم شيئاً من الخبل وأسمعهم...).

- (لا أحد يأمر، كل أحد يطيع، حتى من يبدو متربعاً في القمة).

وتنهد (كارلو) ليشعره بأنه قد فهم كل شيء.

- (خذنا كمثل، أنتم تروننا سيئين، تفكرون بأننا رجال ذووا قلوب قاسية ومتحجرة وخلوة من الإحساس ومن أيما شيء، وكأننا مجموعة متوحشة تريد أن تنفذّ الأوامر في الجماهير ونحن نحمل البندقية والهراوة والأشياء الأخرى. هذا هو الحزب الذي يتوجّب علينا أن نخدمه كي نحصل على ما نأكله. إني وأمام الجموع لا أرى فقط إلا لأناسي ولأصدقائي وأحبابي، وغداً إذا ما انتزعت البذل النظامية مثلما أتمنى فسوف أدخل في الأغلبية وأفعل مثلما تفعل، وأجد مكاني كما هو. أن كل أحد يعرفني ويناديني باسمي، ولساني أيضاً ينحلّ وسوف ترى فيما بعد ما إذا كنت مختلفاً عن الجماهير أم لا، الجماهير، من هي الجماهير؟ أليست أمي وأبي والزوج والأطفال والأخوال وأبناء العم والأحباب والجيران وأصدقاء الأصدقاء؟، من، من هي الجماهير التي يتحدث عنها كل أحد؟).

ورفع الشرطي يده ليعبر عن آخر سؤال ثم أنزلها بهدؤ وأدخلها في الجيب.

- (أتدخن؟) قال له وقد أخرج علبة التبغ.

أخذ (كارلو) واحداً ووضعه بين شفتيه وانتظر أن يناوله القدّاحة: (ثمة من يحاولونَ لسبب أو آخر أن يدخلوا في رؤوسنا بأن الجمهور هو جنس آخر من الآدميين. أن القوة شيء سيء في حد ذاته، وبالنسبة لي من يبحث عنها أو يستعملها هو مريض، مريض من يخيف الآخرين الذين هم أقوياء، لأنه من غير القوة ثمة من بإمكانه أن يصعد الدرجات الخشبية، لأننا ما نزال نعيش في عالم

ممتلىء بالدرجات والسلالم، والذين ما أن يتطلعوا إلى أسفل الدرجة حيث يكونون حتى يرون النمل أسفلهم ويتخيّرون أن يهبطوا ويدوسونه. السياسيون وأولئك الجالسون في الأروقة والدهاليز حيث يتخذون القرارات التي تصطاد وتهدّد كل أحد إني أتكلم عن أولئك، وحتى عن هؤلاء اتفق معك لأنهم الناس الذين عليهم أن يطيعوا لكنهم يبدون وكأنهم يأمرون، وحين يمضي على الإنسان زمن طويل وهو يأمر يكون قد تأسّف وتحسّر على كل شيء. الجماهير مسكينة، مسكينة الجماهير، حشد وجمعٌ كبير في حاجة إلى الدفع كي يمشي، وكما لو أنها أي الجماهير فيل ضخم لا شيء قادر على تحريكه، فيل ضخم وغير معافى، ومن الأفضل لو كان ناموسة، خفيفة وضعيفة مثل السياسيين، ناموسة تطير، وهكذا تبدو قوية.

- (ألا تؤمن بالجماهير؟).

سأله الشرطي مرسلاً زوبعة من دخان عبر وجهه.

- (أي شيء في الدنيا بعد الله غير الجماهير، والبهائم والنباتات والصخور؟ الجماهير، مواطنية الطبقات الصغيرة والتي تأمر، والتي هي لهذا دائماً طبقات غنية والتي وصلت إلى أن تكون غنية لأنه حيث ليس ثمة ثروة وغنى إذن ـ فليس ثمة إمكانية لوجود قوة مادية، وكما قلت أنت بعد كل شيء، أحمل بندقية بيدك، أأمرني بكل ما تريده، وأنا أستمع إليك لكن لا بدّ وأن نصل إلى وقت حيث نكون متساوين بالكامل ولن تكون هنا طبقات عدا طبقة واحدة: الجماهير، الجماهير التي تقود نفسها بنفسها ومن غير تدخل طبقات عالية).

وكاد (كارلو) أن يستشيط غضباً وتوقف.

ـ (هش، لا تصرخ، لأنك تسمع).

حذّره الشرطي على الفور.

وتكلم (كارلو) بصوت خفيض:

ـ (حين نكون متساوين يكون لكلمة (ناس) معنى صحيحاً وقوياً، ويعتنقها الجميع، إن هذه الكلمة وللآن تفسر بالطبقات، طبقات أولئك الذين يحكمون).

ـ (أنت اشتراكي، حسبما أرى).

سخر منه الشرطي بابتسامة غريبة.

ـ (أنا أسوأ من اشتراكي).

قال له (كارلو مانيو)، وأضاف: (أنا نصراني، وهذا كله ينبغي أن يتعمّق وينبت في الداخل، في أعماق ضمائر الجميع. إن الاشتراكية والشيوعية إلى جانب المسيحية أشياء خفيفة وبسيطة للغاية. هذا كله ما قاله وعاشه يسوع قبلنا وأكد على صحته لكن الناس الذين يؤمنون به اتخذوها بشكل هزلي. آمنوا به على الطريقة التي أعجبتهم، وظنوا أنه كان يتكلم في الفراغ، وإذا ما كانت الاشتراكية تهدف إلى هذا العدل الاجتماعي إذن فأنا اشتراكي، لكن هذه ليست مسألة كلام، بل مسألة عيش، وإذا بالإمكان أن تتأكد وصية يسوع وفقاً لشكل المجتمعات الحديثة وبقوة وقدرة الاشتراكية إذن فالمرء لا يبقى له أي خيار عدا أن يكد ويجتهد من أجل أن يقوّي هذا الحق الذي أعلنه ونشره يسوع وحث عليه بعزمه وإرادته وموته بقوة حزب سياسي معاصر مقاد من أناس ليس بمقدورهم مطلقاً أن يصبحوا سادة أغنياء دون أن يكذبوا ويخونوا المبادىء التي نطقوها ولفظوها بأفواههم).

وتطلع (كارلو) مباشرة في عيني الشرطي ليقرأ تفكيره.

- (الجماهير؟ أين وضع الجماهير؟).

سأله الآخر.

- (الجماهير فقط تحكم في المجتمع، لأنها هي المجتمع، ما قلته لك هو الصحيح، وإذا ما أرادت الجماهير الشيء الصحيح والسويّ فإن كل شيء يصح ويتسوّى، وإذا ما أرادت شيئاً آخر، ها، فإني أقول لك بأن كل ما تريده يتحقق وينفّذ أيضاً. بين الصحيح الذي هو صحيح وبديهي ومسلم به وبين إرادة الجماهير التي قد تكون شيئاً أو آخر ليس دائماً وبالضرورة ثمة توافقاً واتساقاً. اشتراكية ديمقراطية إذن. أريد الحق وأبحث عنه، بل ليتأكد فقط ذلك الذي تريده الجماهير. أتمنى أن يكون كل أحد نصرانياً، لكن ليس من حقي أن أطلب من كل أحد أن يكون نصرانياً مثلما ليس من حق أحد آخر أن يأمر من لا يساوي شيئاً).

- (والحق، ما هو؟).

سخر منه الشرطي، وقد علت وجهه ابتسامة جديدة.

- (تصوّرني بيلاتو Pilatu[27] يسأل أسئلة ليس لها من جواب قط...).

- (الحق؟ أتريد أن تقول لي بأن الناس مختلفون، طبقات مختلفة ترى إلى الحق من خلف نظاراتها. ليس ثمة حقاً قبل أن يكون

(27) بيلاتو: Pilatu هو Pontius pilate: حاكم روماني وقاضي مدني في جوديا A.D) 26. 36) حاكم وسأل المسيح ولم يردّ عليه. (العهد الجديد).

الناس سواسية. نظل مختلفين لأنه هكذا فعلت بنا الطبيعة، لكن مع ذلك نظل متساوين، نكون مختلفين ونظل متساوين. السلام والأوامر بين الطبقات ليس حقاً أنهم الماء العكر الراكد حيث يقيم أصحاب القوة والتحكم إذن ليسوا هم إرادة ورغبة يسوع لأن يسوع يوم أن جاء إلى الأرض جاء ليوقد ناراً وأوقد، لأن الدنيا وبعد مضي ألفي سنة ما تزال في حاجة إلى أن تقترب من الخطة المحرضة التي فصّلها، وكتابه الذي يحقق أكثر مبيعاً ما يزال كما هو كتابه، خذ وجهتي نظر مختلفتين في عالم السياسية، فثمة من يقول بأنه نصراني، وثمة من يقول بأنه شيوعي. أليس من حق الاثنين أن يقولا ما يودان قوله؟ لا يتفقان ولا يعرفان كيف يتفقان. البعض يقولون بأنهم وجدوا الجنة في الأرض، في الخضوع والإذعان، آخرون يريدون السلام دون التغيير الذي يجلب الحق، لأن هذا تغيير يجلب المشاكل معه، وآخرون يبحثون عنها، حتى في الإلحاد يحس هذا السحر الخفي، وآخرون هم حمقى للغاية بحيث ينسون في الوقت ذاته بأن ذلك الذي أغراهم بالحق والذي يريد الشيوعية حتى إذا كان ملحداً اسمه يسوع المسيح).

- (لم أكن لأعتقد أيها الشاب بأن لديك هذه المفاهيم كلها ومختزنة فيك. حين أحضرتك دورية الشرطة إلى هنا أخبرني أحد صحابي بأنهم اعتلقوا أحداً ما، مشوشاً ويقول في الناس كلاماً فارغاً وأجوفاً، وأكثر ما أعطوني انطباعاً على أنك أبله يريد أن يبدو لطيفاً، أحد ما من الكثيرين الذين يسخنون ذلك الكرسي من قبلك، إني لأدرك وأعرف ما تريده، إذن. . .).

ووقف الشرطي لائكاً الكلام: أعود فأقول لك: إحك، أروِ

وقص، هذا كلام جميل لكن الكلام الجميل يدوي سيئاً في الآذان غير الطيبة، كل ما قلته هو ضد السلطة، وسوف تقف أمام أناس لا همّ لهم إلا السلطة، وإذا ما تكلمت معهم مثلما تتكلم معي فإنك بذلك تنكرهم في الشيء الوحيد الذي يبقى عليهم أحياء: الرغبة في الأمر والتسلط. أنت أيضاً أعلنت بأن القوة مرض، وحين تنكّر هؤلاء الناس فأنهم يغضبون ويهتاجون) وقطع الشرطي كلامه فجأة ما أن سمع صوت خشن من حجرة بعيدة بعض الشيء وقال له بسرعة ومن تحت لسانه:

- (سأخبرك). ثم انطلق. أثر ذلك بوقت قصير وصل شرطي آخر وأخذ معه (كارلو):

- (المفتش سيتكلم إليك). قال وقبضه من ذراعه وجرّه بخطو سريع. كانا سائرين في دهليز ليس به حتى إطاراً واحداً، ثم دخلا حجرة صغيرة جداً احتل نصفها كله مكتب غير نظيف وغير موظّب، كرسيان وقليل من الأرفف مثبتة إلى الحائط مرصوصة بكتب مائلة مغمورة بالغبار. سحب كارلو كرسيا، دفعه في النصف قبالة المكتب وارتمى جالساً. رفع المفتش رأسه من فوق صفحة الكتاب الفارغة أمامه وصرخ:

- (من أذن لك بالجلوس؟ من؟).

ودوّي الصوت الغاضب في الأركان الأربعة. كاد كارلو أن يضحك من جديّة المفتش الزائدة وسؤاله لكنه رزن وضبط نفسه قدر المستطاع.

- (من سمح لك؟ أسمعتني؟).

عاد فسأله.

ظل (كارلو) جالساً وخفض رأسه منتظراً أن يذهب عنه هذا الانفعال.

- (ألا تتكلم؟ ألا تعرف بأني أمتلك القدرة على أن أتهمك بالمشاكل العويصة والجادة؟).

- (لم يسمح لي أحد، جلست، هكذا، رأيت الكرسي فارغاً فجلست).

- (انهض، عد وانهض من على الكرسي، وانتظر أن أسمح لك بالجلوس).

انتصب (كارلو) على قدميه ودفع الكرسي قليلاً خلفه وادخل يديه الاثنتين في جيب البنطال ونظر إلى المفتش نظرة كمن وصل إلى حافة الصبر.

- (الآن بإمكانك أن تجلس، أجلس).

طلب إليه المفتش بصوت أمر. ظل (كارلو) واقفاً في وضعه السابق، وكان المفتش أن أخذ يتطلع إليه بعينين لامعتين من خلف العدستين السميكتين منتظراً أن يطيعه الشاب: (قلت لك بأن تجلس، الآن بإمكانك أن تجلس).

أشار له (كارلو) إشارة برأسه ويداه تتحركان في جيبه الأمر الذي فهم معه المفتش بأنه يريد أن يظل واقفاً.

- (أنت لا تريد أن تجلس؟).

صرخ المفتش فاقداً شعوره ثم نهض فجأة على قدميه وقلب الكرسي خلفه، فيما أثار الصوت الآخرين في الحجرة وأسرع أحد الشرطة من خلف المكتب وأعاد الكرسي إلى مكانه.

- (أرغب أن أظل واقفاً). قال (كارلو) بهدوء.

- (ألا ترى الكرسي خلفك؟).

- (وليكن؟ أنت قلت لي في الوقت ذاته بأن الكرسي ليس هنا كي أجلس عليه، وفي الواقع سوف لن أجلس).

إذ ذاك سارع شرطيان، ودفعاه إلى أسفل بعنف حيث وجد (كارلو) نفسه جالساً، غير أنه عاد فانتصب واقفاً وأنزلاه بقوة من جديد وأحس بقبضات أيديهم.

- (الأوامر، الأوامر أيها الشاب، ينبغي أن تنفذها، تنفذها، وإن أمثالك من المتمردين يتوجب علينا أن نتولى أمرهم وكما نعرف نحن، وإذا ما دعت الضرورة فإننا نعرف كيف نتخلص منكم، أنت ما تزال شاباً وتنوي أن تلعب لعبة المتمردين. أليس كذلك؟ لكنك ستكبر الآن وتبدّل من مفاهيمك وتتكلم. إننا لنعرف من أية نوعية أنت. في البدء تتكلمون كلاماً حلواً وجميلاً وبصوت عالٍ، تحلمون، تحلمون، ثم تدخلون بعد ذلك في جلودكم لكن سأنصحك).

قال وقد أشار بسبابته اليمنى مباشرة في وجهه: (سأنصحك، ولا تظهر مرة أخرى أمامي، أوصيك بأن تدخل أنت نفسك في جلدتك والآن بالتحديد أو سندخلك نحن فيها، هه، وإذا لم تدخل فهناك القانون الذي سيدخلك هو، ألا تعرف أيها الشاب ما هو أعلى من القانون؟ لا شيء).

- (الحق أعلى من القانون، القانون أنتم الذين صنعتموه أحياناً جيداً، أحياناً أخرى سيئاً، ليس ثمة قانوناً طيباً على الإطلاق، وإذا كان بإمكانكم أن تغرقوا البلد بأسوأ القوانين فإنكم

ستكونون أنتم أيضاً وبلا ريب من السيئين بل من الأسوأ).
وانفجر المفتش ضاحكاً، ولم يستطع أن يخفي شيئاً من التفكير الذي طفح فوق جبينه، فالقوة كانت بالنسبة له كل شيء وإذا لم يتمكن بعقله فبيديه. كانت بذله النظامية نظيفة، الأشرطة والسيور لّماعة، البارية مستوية وموظبة والحذاء ثقيل لماع والمكملات المناسبة الأخرى التي كان لها بالضرورة أن تترك أثراً في فن الشفاء والمداواة على أي تقرير مزعج يطرح أمامه. وكان أن انقضى عليه وقت طويل وهو يربيّ شاربين أيضاً ويدعهما ليمتلئان ويتكاثفان وينبرمان ويلتويان كما تودهما وتريدهما أمنا الطبيعة لكنهما لم يعجبا امرأته ولقد حذّرته ذات مرة:

- (أما أنا أو.. الشاربين، وعليك أن تختار).

وبرغم أنهما كانا يناسبانه كضابط عدل إلا أن ما لحق به من إزعاج من ورائهما أثّر بشكل أو بآخر على وضعيته في العمل ودفعه إلى حلقهما، وكان ـ وقد انقضى زمن ـ كلما واجه مصاعباً في العمل أو تراجعت أموره الوظيفية إلى الخلف، أو واجهته بعض العراقيل تبادر إلى ذهنه بأن ذلك كان السبب المباشر: ليس له شاربين. وهكذا وفي بعض الأحيان حين لا يحرّك مظهره المشين ويهز من الداخل شخصاً تافهاً وحقيراً يقف أمامه كان يستجمع كافة مواهب وقدرات البشاعة والقبح ويبذل قصاري جهده لإظهار العنف. بذيئاً، وساخطاً وداعراً، ومتوحشاً وسليطاً، الخ. إن رفاقة كانوا يتأثرون وكانوا يقولون فيما بينهم أن البلد قد حقّق في هذا الإنسان هدفه ومبتغاه، وأنه لدعامة من دعاماته الأساسية.

- (إضحك، إضحك أيها المفتش).

قال (كارلو): (الضحك مفيد لك، لكن لا تضحك كثيراً، إن القانون في حد ذاته لا شيء على الإطلاق، مجرّد مطاط شديد التمغّط، تمرنه كيف ومتى تريد، أو مضيغة أو علكه التي تلوكها وتقطّعها مائة ألف قطعة بين أسنانك).

وارتسمت معالم الجدية على وجه المفتش ثم تبدّدت الضحكة في لا شيء، ثم نظر نظرة غاضبة وغيورة وهدّد وتوعّد:

- (هذه هي النكت التي قرأتها في الكتب. لتحتفظ بالكتب لنفسك، نحن نعيش بدونها، لتستشهد لنا بالكتب ونحن نستشهد بالقوة ونستعملها، وسوف نرى أيا منهما سيفوز، كتبك أم ضربنا وتسويطنا).

- (لا أشك في أنك لا تؤمن بالكتب، واضح عليك يا سيّد المفتش. العقول الفارغة تفكر تماماً وبالضبط مثلك وحين تذهب العقول يكون قد حان الوقت لأن تمتلىء اليدين - وكما تقول أنت - بالضرب والتسويط، استعمل الجلاز وسير الجلاز يا سيّد، لكن سوف لن تربح شيئاً، اضربني، سوّطني، مزّق كل الأوراق التي تقول بأني استشهد بها، لكنك تظل في الوقت ذاته كما وأين أنت، ربيّته على القوة مخاً فارغاً ممتلىء اليدين، لكن أن تقف ضد الفكر الذي لا تمتلكه فذلك ما يتطلبك أن تفكر. خطاؤك إنك لا تعرف تفكر جيداً، ولهذا عليك أن تختار طريقاً أخرى، فرقع الجلاز لأن هذا عملك، قد توجعني وتؤلمني لكن لا تحركني قيد بوصة واحدة، وإذ تفعل تكون قد وطأتني شبراً آخر إلى أسفل وفي التربة حيث أكون وأريد أن أبقى، أين هو فوزك وانتصارك؟). ولم يحتمل المفتش هذا الكلام أكثر، وهو لهذا نهض بخفة من مكانه وأسرع إليه وهزه بقوة أربع مرات

وضغط على كتفيه بالطول تاركاً أصابعه لتغوص بجلده، وبدا على (كارلو) شيئاً من التوجع. كانت أظافر المفتش قد انتزعت قشرة من جلده، وأحس (كارلو) قطرات دم تنبثق من القميص.

- (لا تفقدني صبري يا أحمق، وصلت أن أفقد أعصابي، ولا احتملك أكثر، إني أمتلك القدرة على أن أدفع بك في الزنزانة، وأحرق أعصابك، هكذا يريد مني القانون وهكذا سأفعل).
صرخ وظل (كارلو) صامتاً، وأخذ المفتش يذرع أرضية الغرفة جيئة وذهوباً نافذ الصبر، يداه الاثنتان معقودتين خلف ظهره قابضاً وضاغطاً على قبضتيه. رأسه ترى أحياناً إلى الأمام وأحياناً أخرى إلى الأرض كما لو أنه يفكر وكان أن ساد قليل من الصمت وعادت الأمور تقريبا إلى وضعها الطبيعي وعمّ الهدوء والكل أخذوا يتطلعون في وجوه بعضهم البعض منتظرين أن يحدث أيما شيء آخر.

- (سوف ترى كيف أنك ستتراجع عن كل ما قلته لي، وسوف تتراجع عنه أيضاً. هذا لا يعد وعن كونه تشويشاً ضد الدولة، ولا أستطيع أن أدع مواطناً مثلك ليقول ما يود قوله أمامي هنا في الداخل).

- (أنت نفسك قلت لي بأن الكتب لا تساوي شيئاً، ولا تعني شيئاً، وتضع اعتباراً للقوة، القوة فقط. وبناءً على ما جاء بكلامك ذاته، يفترض أن تعاقبني فقط حين استعمل القوة لأنك لا تعرف غير القوة، وأنا ليست لديّ قوة، أنت مفتش، تمتلك القوة، وفي الواقع استعملتها ضدي).

أجابه كارلو: (لكنك أنت نفسك تعرف أنه لا ينبغي أن يكون

ذلك برغم أنهم علّموك وأمروك أن تفكر هكذا، وإذا لم تفكر كما علّموك، ولم تردّد الكلام الذي علّموك على علاّته فإنك ستطير أيضاً، تهدّد وتسبّ وتشتم وتتورط مثلما فعلت معي. أين هي قوتك؟).

ثم توقف وكأنه يريد أن يرى الأشياء المنطبعة على وجهه وتابع:

- (إني لأراها الأفكار، الكتب، وأنها في الواقع لتعني الكثير إنك أنت نفسك تتهمني في كلامي. أن خطيئتي كلها إنني فكرت وتكلمت ذلك الذي فكّرت. في البدء في الشارع وأمام حشد من الناس والآن أمامك. إنك لترى أيها المفتش، وأن الأفكار مهمة حتى بالنسبة لك، وها هي تخيفك الأفكار، وأنك لقلق ومنزعج من الكلام).

- (أبله ومتعجرف).

قاطعه المفتش بوجه متجهم عابس.

- (الحق معك حين تخاف من الأفكار لأنها وحدها التي تساوي كل شيء، فهي التي تحرّك وتنسف العالم من الأعماق. وهي التي تضعه في مكانه الصحيح. فقط لتسترح ويغمرك الهدوء، الهدوء، لكن فرقاً واحداً لم يكن بإمكانك الانتباه إليه في التناقض كله الذي تعيشه: إن كتبي لم تكتب بعد، لا تستطيع أن تحرقها لي، أنها ما تزال هنا في مخي) ونقر (كارلو) رأسه بقبضة يده اليمنى ثلاث مرات فيما نفرت خصلة من شعره وتماوجت فوق جبينه وردها إلى مكانها (ضعني في الزنزانة، انتزع ملابسي واتركني عرياناً، خذ كل ما تبقّى لي، لكن عقلي سيظل هو عقلي، مشرقاً ممتلئاً وكما أريده أنا، ولكي تصل إلى ما تريده

وتبتغيه تحتاج إلى أن تفرغني وهذا الشيء ليس بيديك).

صرخ ولم يحوّل عينيه عن وجه المفتش، وراقب كل حركة صادرة عنه:

- (لست من النوع الذي أؤاخذك على محمل الجد أيها الشاب، كل ما تحتاجه أن تحكّم عقلك، وألا تدع لسانك ليحكمك ويأمرك وتكون بذلك قد تورطت في المشاكل، ينبغي أن تتعلم كيف تغلق فمك وتصون لسانك حين تستعمله، تكلم مثلما يروق لك أيها الشاب، لكني أرى أن الكلام لن يفيدك ولن يصل بك إلى مكان ما، تصرّف بعقل يا بني...).

دعا المفتش الشاب، وأدرك أنه وبرغم أنه كان يجنح وهو يتحدث إليه إلى المزاح وأحياناً إلى الجدية إلا أنه لم يكن جاداً بالنسبة لكل شيء.

- (لا، القوة التي تتحدث عنها لا أملكها. أتعرف لماذا؟ لست في حاجة إليها. القوة توجد في الأفكار أو لا توجد في مكان قط. القوة كما قلت لك ليست بقوة عدا حيث لا يوجد العقل).

- (إذا ما كانت كذلك فقط أيها الشاب فليس ثمة ما يدعوني لأن أضيّع وقتاً أكثر معك. الكلام لا يخيفنا، سأعاملك بشكل مختلف لو كنت مسلحاً لكنك لست كذلك. نحن نتكلم فقط بالقوة ونتكلم أيضاً وفقط مع من يستعملها، أنت لست مخيفاً ومرعباً وستدفعني تقريباً لأن أنفجر ضاحكاً، أنظر، أنظر إليّ، سأضحك...) وأطلق ضحكة مجلجلة وقوية غمرت وجهه بالكامل. الشرطيان اللذان كانا هناك تطلعا في بعضهما البعض كما لو أنهما أعطيت لهما الأوامر ليضحكا هما أيضاً وفي مرة

واحدة وهكذا ما أن تطلّع إليهما المفتش حتى دوت عنهما ضحكة طويلة ومتكررة إلى ما لا نهاية ثم وقفا بعد ذلك معاً وقفة استعداد، وعادا يتطلعان في بعضهما البعض في شيء من الجديّة والصرامة.

- (حتى هذا تناقض يا سيادة المفتش، أنا أؤمن بالعنف لأني أؤمن بالحقيقة، الحقيقة هي العنف، توجع وتضرب يسوع قال: من يقتل بالخنجر يموت بالخنجر، وبالنسبة ليسوع قتلوه لكن كيف قتلوه، لماذا؟ أليس بالخنجر؟ خنجر الكلام الذي قاله والذي سبب له المشاكل، ومن فعل فعله وتكلّم انتهى أيضاً مثله، أنت أيضاً قلت لي بأني استعمل القوة، لتوّك كم تهجمت عليّ وأوجعتني، استعملت معي القوة لأني تكلمت الكلمة أيضاً إذن هي عنف، تؤذي وتجرح وتوجع وبموجب ما صدر عنك. لكن السلاح الذي امتلكه لا تمتلكه ولا حتى بمقدورك حيازته يا سيادة المفتش...).

- (ولماذا؟ أخبرنا، أخبرنا لنتعلّم). وتبسّم: (انظروا إلى من يريد أن يعلّمنا، انظروا لهذا يريد أن يطوّرنا بكتبه. علمنا، علّمنا).

وضغط المفتش على نفسه وبذل مجهوداً ليضحك وطلب ضحكة أخرى من الشرطيين اللذين ظلا مركزين طوال الوقت بكامله عيونهم عليه منتظرين الأوامر.

- (أنت لا تستطيع أن تفكر مثلما تريد يا مفتش. أنا الذي لا يستطيع أن يأمر أحداً آخر بإمكاني أن آمر نفسي، أنت الذي تبدو أنك تأمر الآخرين ليس بإمكانك أن تأمر نفسك، أنت لست حراً على الرغم من أنك تبدوا إنساناً ذا أمر. أنت واحد

من الخدم وأنا لست كذلك لكني لا ألومك مطلقاً. يحق عليك اللوم لكنه لوم الضعيف، ولوم من في ضعفه يصادف أمامه شفق المهمة أو الوظيفة. أنت ذو عائلة، وعليك أن تعولها ولتعولها عليك أن تخفض رأسك مثلما يخفضونه الذين من فوقك أيضاً).

وكاد المفتش أن يضربه في حين أسرع الشرطيان في الحال وقبضا كارلو من ذراعيه كي لا يدعا مفتشهما من ناحية أن يعود فيفقد صبره، وليظهرا من ناحية أخرى أنهما يخيفان الشاب ويكرهانه بالتهديد:

- (خذوه إلى الخارج، خذوه في الحال، في الزنزانة، الزنزانة من جديد، هنا ستظل، هنا حتى يخطر ما يخطر ليّ، إذهب، إذهب أنت ومعرفتك، سترى كيف تنقذك أفكارك وتنقذك الأوراق الكثيرة التي آمنت بها).

وأمضي (كارلو) ليلته بالكامل في الزنزانة. لم يأكل شيئاً وفكّر كثيراً:

- (أعطوني قلم حبر، وبعضاً من الأوراق من فضلكم).

طلبهم.

- (ليست لدينا، لا نستطيع أن نعطيك).

قاطعوه.

تلك الليلة تنبهت زوجة المفتش إلى أن زوجها واقع تحت وطأة حالة عصبية حادة ومريعة. أكل قليلاً وأخطأ في حقها دونما سبب. وعذرته وسامحته:

ـ (هل صادفتك أية مشكلة خطيرة وجادة؟).

سألته، وكان بإمكانها أن تتنبأ بأن كثيراً من الحوادث كان لها كالعادة علاقة مباشرة بكل ما أزعج الحياة الزوجية في البيت. وسرد المفتش الحادثة بكاملها وأعقب كل كلمة بابتسامة، وحدس أنها أعجبت بهذا الشاب الذي لم تره قط.

ـ (إنك لتعذرينه فيما يبدو؟).

قال ما أن رأى ابتسامتها الجادة والساخرة.

ـ (ليس ثمة ما يدعوني لأن أعذره، لا أعرفه، حسبما تقول لي أنه لم يفعل شيئاً لم تفعله أنت).

قالت له.

ـ (ماذا تعني؟) رفع صوته.

وقالت:

ـ (كل ما فعله أنه تكلم في الهواء الطلق وأمام جمع من الناس لكنك تتهمه ليس لأنه تكلم في الجماهير، بل لأنه قال ذلك الذي قاله).

ـ (حسناً).

قاطعها: (لكن الأفكار التي قالها في الناس وأمامي. . .).

ـ (ومع ذلك لا داع لأن يوضع في الزنزانة، كما ليس بالضرورة أن تتخذ ضده حتى إجراءات).

ـ (لماذا؟ ماذا تقولين هذه الليلة؟).

وقطب الرجل جبينه كثيراً ولم يستطع أن يرفع عينيه فيها عادت

المرأة فتبسّمت وقالت بلطف ودماثة:

- (عن أي شيء تتكلم، إذا لم يكن ليتكلم عن ذلك الذي تشعر به وأشعر به أيضاً؟ ألست أنت أيضاً مخطئاً إذن الذي يفكر هكذا والذي هنا معي في الداخل تخبرني عادة الكلام ذاته؟).

رفع المفتش رأسه شيئاً فشيئاً وأخذ يتطلع في الفراغ، واهتاج:

- (ليكن ما أقوله بيننا). قال لها: (هل فهمت؟ حتى الأولاد لا أريدهم يسمعونه). أمرها.

- (تماماً ولتطمئن، لكن الأولاد أذكياء أكثر منا ويعرفون كيف يفكرون في هذه الأشياء لوحدهم، قبلنا أو أفضل منا، لكن لتدعك من هذا، إن خطأ ذلك الشاب كونه تكلم في الهواء الطلق وأمامك عن كل الذي تفكر به في الخفاء وفي السر. إن خطاءه كونه شجاعٌ ومخلص. فهل ستتهمه لأجل ذلك؟ هل تنوي...؟).

سألته. ولم يتنفس الرجل. وعادت فسألته بإلحاح:

- (أليس معه حق؟). في الوقت الذي انتظرت الإِجابة من عينيه، ونقر الرجل رأسه مرتين ليتفق معها:

- (معه، معه...) كرّر بصوت مشبع بعض الشيء وضد عواطفه وزفر بقوة وأسقط رأسه فوق المائدة.

- (الشباب الجدد سيكونون مختلفين عنا، سيكونون أفضل منا، ومتحررين أكثر، وهذا هو واحد منهم مثل أولادك يا سيادة المفتش) قالت له سعيدة.

(غداً أبعثه إلى بيته) قال متذمراً: (غداً أبعثه).

ودفن رأسه بين يديه وأراحه فوق وجه المائدة.

7

* كل شيء على ما يرام في جزيرة (كارلو مانيو) باستثناء الناحية السياسية، الشمس تقوم بدورها على أكمل وجه، تشرق في الصباح الباكر وتطيّر نعاس الجميع ما أن تتسرب داخل البيوت وشقوق الأبواب والنوافذ فيما تظل تسخّن تسخّن وتنوّر إلى ما قبل المساء الذي يحل بحمرته، وكان البياض والاحمرار ينتسجان معاً كل يوم تقريباً، ولا شيء بمقدوره أن يستميلها أو يخيّرها هكذا سريعاً على أن تنزل من هناك، فهي حتى الناس العرقانة تحتها تراهم بحجمها الكبير وبالكاد نملاً صغيراً. والقمر كان كذلك لطيفاً، فالليالي المضيئة بين يديه، وكان يدع الناس ليخرجوا حتى في عز الشتاء والمطر خيط من سماء، خفقانه الواهن معتدل فعّال، ينفرش فوق كل بيت، بيوت الأغنياء والفقراء بالتساوي مثلما تفعل رفيقته التي ويحجمها كله ما وفقت قط لأن تسخّن الدم أكثر وأكثر كي تضعف القوة، وتتعب وترهق المكافحين. صراع يؤكل بالخبز[28] وثمة كثيراً من العقلاء

(28) تأكيد على الرغبة في الصراع: مثل شائع.

يفكرون بأن ذلك من جراء الشمس ويلقون باللائمة عليها، وكان القمر يقوم بدور الوساطة حيث ينحشر في النصف ليحل المساء مضيئاً مشرقاً ومفعماً بالرطوبة ومعتماً في الوقت ذاته ومظلماً يتخلله نفثاً من ضوء وعتمة لا يشكلان وضعية طبيعية ليبلغ الصراع أشده وهكذا كان القانون واضحاً وجلياً: ما أن تنزل هي، الشمس حتى ينزل كل واحد العلم من فوق البيت، وكل أحد يتراجع عن الحشد وكما لو أن شيئاً لم يحدث، لكن ليس من البساطة بمكان أن تُرطّب الأدمغة بانفضاض وتأجيل التأنيب والتوبيخ هكذا، كما ليس من السهل أن تنسرب أشعة الشمس وتتلاشى بمجرد أن تذهب الحرارة لأنه في الآتي يشرع كل شيء في وضعه السابق والمعتاد وكأن الليل ما قفل عائداً إلا ليستريح ويتهيأ من جديد. حتى البحر لم يكن سيئاً على نحو كافٍ ذلك أنهم وبكامل التقدير والتبجيل يحلفون به، لتدعه يضطرب ويتماوج رويداً رويداً ويرقص متهملاً في وجه نسمة تسخر وتضحك به دونما حصافة وحكمة وتدبر وهو العملاق الرابض الشجي الذي لا تفقده صبره سخرية أو مهانة. راقداً كان يظل وساكناً، هادئاً كأن شيئاً لم يحدث. أليس كل أحد مثله؟ مباركاً يكون بحر هذه الجزيرة الذي تفكر وتبحث الألسنة البذيئة والسليطة عن ما تتقوّل فيه أيضاً وحوله تثرثر: تملؤهم البهجة والغبطة وهم يرددون بأنه يمتلك بطناً رطبة ورأساً يابسة، ويظل هو مصراً دون أن يُستمع إليه غير أي شاعر لم تكن بطنه رطبة فحسب بل رأسه أيضاً، وفي بعض الأحيان حين كانت تغمره الكآبة كان يرسل رشة غاضبة ومتذمّرة ويطلب إليهم أن يهتم كل امرىء بنفسه ويكيّل باشبره، وعلى ذلك فهم يعيرونه بأن رأسه يابسة، لكن البحر تمتع بسمعة طيبة ولم يفقدها مطلقاً منذ أن تمتع بها. السماء كانت مثل بساط بلا قياس

وليس مبقّعاً أو مصبوغاً سقف مثل هذا إذ كانت فيه بهجة عظيمة كانت بعيدة مرتفعة إلى أعلى، وكانت ثمة حاجة ـ على الأقل ـ لأي من المواطنين المتذمرين وكي يروها أن يرفعوا رؤسهم. عالية كانت وبلا حدود، وحجتهم كانت أن يرفعوا من شأن البلد ويغيّرونه معاً من أفضل إلى الأفضل، بل ثمة من اختار أن يفعل مثلما فعل حكماء وأصحاب برج بابل، مسلحاً تسليحاً لا مثيل له، مرتفعاً ومرتفعاً حتى يمس السقف، وإذ يمس فإنه ينزّل قليلاً إلى أسفل، قليلاً أو كثيراً، جيداً أو غير ذلك، كان ينبغي أن يقوم التغيير على عاتق الجميع ومعاً وذلك من أجل حياة ومستقبل أفضل، ومن هذا كله لم يتحقق شيئاً، ومع ذلك ظل الحلم قائماً وقد أخذ القمر يطلع في المساء ويتخذ هناك في الأعلى مكانه، رويداً رويداً وبالتدريج، وقرونه في جيوبه[29]. الريف نما وترعرع وتقدّم من تلقاء نفسه، ولهذا ليس له الحق في أن يظل مربكاً للتقدم المتحمس الذي هو الآن مثلٌ أعلى وأعتى الأمواج التي تغرف الثروة في أحضانها ووصل في النهاية فوق هذه البلاطة[30] المتدلية فوق البحر مثلما تربيّ وتعوّد الشعراء المدللين على كلام منتقى ومختار من كتب منسيّة، إذ كان الشعراء فيئة مبتذلة تظل وتظلل الأغلبية، ولم تكن محقة. لكن البلاطة ما كانت متدلية على الإطلاق، بل حجرة صماء. لقد ظلت العصافير ردحاً من الزمن مستريحة هانئة في أعشاشها دون إزعاج، والأرانب المتوحشة كانت مطمئنة لأن المواطنين لا يفكرون بها. بينما أصدقاؤها الأرانب المتمدينة كانت تنتهي وعلى نحو أفضل مسلوخة ومجزّرة وفائحة في الصلصة في أطباق وصواني مملوءة كل يوم في

(29) تعبير عن الدهاء ومقابل للمثل: فلان سيل عشب.

(30) البلاطة: مالطا.

الأعياد والمناسبات بل وفي العادة في يومهم الوطنيIl - Mnarja[31].
الأشجار كانت تنمو لوحدها حتى حين يشح المطر ويظل مخزوناً في الأعلى، نافراً ساخراً وكارهاً، وتظل الأرض جدباء، ناشفة، طالبة على الأقل أن تتحايا وتترطّب. الأشجار نمت وتسامقت رغم كل شيء، كل غصن أثمر وثقل، وكل ورقة متفتحة، مخضرّة ويانعة وكل فرع منتشر ومثقل. فمن أفرغ برميل ماء لشجرة خروب؟ من خرج ليروي سعف النخل والزيتون والأروكاري L -awrikarji[32] وأوكالبتوس L-awkalipti[33] وهذه متربّية بروح المبادرة الشخصية ومتدربة على الإِحساس والشعور الوطني الذي لا مثيل له حيث يأتي بلدها وقبل كل شيء في المرتبة الأولى لقد كبرت وتسامقت مثيرة إعجاب ودهشة كل أحد. ينقصها الماء ولا شيء ينقصها، لا تتذمر لأنه ليس لديها ماتشربه، لا تتواني ولا تتخلف عن آداء واجبها الأول الذي مكنها ويمكنها من العيش: أكبروا وتكاثروا. رفاقها المتفانون، الصغار، النباتات الجوانية المدللة والمرويّة والمغذاة والمطعّمة كانت تذبل وتنشف وتخيّب آمال الجميع. فماذا تريد الطبيعة؟ لكن يوماً لك ويوماً عليك، والله يعرف متى تشرق الشمس وينزل المطر، يعتزم المرء أمراً ويقدّر الله أمراً، لقدوصل البردوزر مدفوعة مقدماً له حزم الليرات ودخل بفعالية مبادىء الإِنتاج كلها وأوقع شجر الخروب

(31) احتفال للقديسين: بيتر وبول، تقام طقوسه في كاتدرائية المدينة العربية (الربط) ويحتفل به المواطنون في حدائق (البوسكيت) فيتناولون وجبات ذكور الأرانب.

(32) الأوركاري: Araucaria: شجر من فصيلة الصنوبريات للزينة مشتق اسمه العلمي من ولاية بشلي: Chile Pine.

(33) أوكالبتوس Eucalyptuses: شجر من الفصيلة الآسية يستفاد من ورقه وزهره طبياً كالمطهر المانع للعفونة Antiseptic.

والنخل وأزال الأوركاري والأوكالبتوس وتهاوت الجدران الخربة لأن هذه الجدران، ما كان لها أي شكل أو صورة، حجرة فوق أخرى، لا واحدة منها تشبه التي بجانبها وكأنها مخزن أحجار مرمي مبنياً الواحدة فوق الأخرى، متماسكاً وغير متماسك ولا تقع واحدة منها على الإطلاق إلا بالبردوزر، لكن الخطأ خطاؤها وإلا - لخفق البردوزر أمامها. لقد زحف التقدم وأخذ الريف في الاختفاء كي تدخل وبكامل الجلال والوقار وعوضاً عن بدائيته مدنية الشقق والدارات والعمارات. إن كسل الطبيعة التي توانت وتخلفت لقرون وقرون كاملة انتهى وبشكل لائق ومهذب بانتصار فاعلية المحركات والإسمنت المسلح. هكذا يكون التقدم. لأنه وفي النهاية: أرضنا أرضنا وأرض الانجليزي وخرية في وجه الجرمانيزي[34] وهناك من يفضل أن يقول: أرضنا أرضنا وأرض الطلياني وخرية في وجه الكورياني. لكن وبما أن الطليان أخذوا يفقدون شعبيتهم منذ أن تركوا موسوليني ليفعل ما يريد بهم فإنهم لم يظلوا بذلك شعباً ذا شجاعة مثل شعب هذه البلاطة، ولأن الكوريين لا يروق لهم سوى التبجيل والتوقير ذلك أنهم لم يغشوا ولم يخطئوا في أحد لهذا فإن المثل لم ينطبق عليهم.

كان (كارلو مانيو) يعيش في الجزيرة، لكن الجزيرة كانت أيضاً تعيش فيه، لقد وعد وعاهد نفسه وفي مرات كثيرة أن لا يستمر في التفكير فيها وإلا يحبها أكثر غير أنه وبمرور الزمن صار التفكير استحواذاً وصار الاستحواذ كيان روحه كما لو كان شاباً أمام شابة ما أحب سواها ولم يتزوجها مطلقاً لأنه لم يحبها كثيراً ولم ينسها مطلقاً

(34) مجاراة للأقوال الساخرة ضد تقدم الغزاة المادي المزعوم.

لأنه لم يكرهها كثيراً: هذه الجزيرة، كان يقول في ما بينه وبين نفسه: كانت في حاجة إلى شيء جديد، وكان على الفصول أن تتبدل. تنفتح الأدمغة ويبرد الدم، لا شيء أكثر بعداً من الحقيقة التي أسفل أنفه كالحكم الذي في داخله. أن الجزيرة لم تكن جزيرة بل ناحيتين اثنتين مرتبطتين معاً رباط دم ولحم كما لو كانت ربطة محلولة. المواطنون يتزوجون من بعضهم البعض، يتعايشون معاً، يقطنون في ذات الشوارع والساحات والأزقة، يشترون من الحوانيت ذاتها والمتاجر، يسكرون ويرقصون يرقدون ويقومون معاً غير أنه حين تدخل مسألة الألوان فلا يكون ثمة اختلاطاً: أما معنا أو ضدنا لأنه نحن هم نحن وهم هم تماماً مثلما يفعل الأطفال وهم يلعبون الغمّيضة In - noli[35] ويصيحون من هو في الداخل فهو في الداخل ومن هو في الخارج فهو في الخارج هكذا ظلوا يفعلون الكبار الصغار الذين كبروا يلعبون الغميضة في الساحات وفي الشوارع وفي الزوايا والكنائس و. . . في البرلمان، اللعب الجميل دائماً وفي كل مكان. ولم يوفق (كارلو مانيو) لفهم هذه الأشياء التي كانت من بين الأشياء جميعها حقائقاً تمس باليدين وتبدو للعينين. وكان أن ثمة من دعاه: (هيّا إلى نادي الحزب لنسجلك عضواً، تدفع اشتراك العضوية وتلعب معنا It - tombla[36] نأتي إليك بالسيارة فنأخذك معنا ونذهب في جولة، وحين تكون لنا لقاءات نعطيك علماً لتحمله وتلوّح به مثلنا ثم نعلمك الأغاني، ولا يمكن أن تتخيّل كيف ستنسجم وأنت تغنيها ثم تعود فترددها وترددها وكلما ردّدتها أكثر تذكرتها أكثر وأكثر وأعجبتك وتقطّرت لك عسلاً، كما أنه لدينا قبعات جميلة لرأسك،

(35) نوع من اللعب الجماعي للأطفال Hide and seek.

(36) هي البنغو Bingo: لعبة من ألعاب الحظ والمقامرة.

لائقة ومريحة ومناسبة للشمس والمطر، ولدينا أيضاً رباطات لعنقك، أنيقة للغاية، ولدينا مناديلاً وصافرات، كل شيء لدينا، فهيّا). وكما أنهم لم يوفقوا لأن يستميلوه كثيراً فإنه ما وفق هو أيضاً لأن ـ ينسى مع هذا كله بأنه يعيش لتوه في أرض حيث تتخذ هذه الأشياء مظهر وشكل وقائع وأحداث كبيرة وهامة وتاريخية يروق لها ويسرها ويناسبها أكبر وأجمل فراغ متيسّر في الصفحات الأولى من صحف كل يوم حيث تتحول غداً أو بعد غد إلى فصول طويلة في مجلدات التاريخ. إن الصحف لا تتفق في شيء فإذا ما كانت واحدة تقول بأن هذا الشيء أبيض تخرج فتسارع الأخرى معلنة بأنه أسود. إن اللون يحدّد ويقرر سياسة من يتكلم أولاً وفي البدء، نصف الجزيرة فاقة وعوز وحرمان واعتلال والنصف الآخر ثروة وبذخ واستقرار وعيشة راضية، جانب يلمح سوء الأحوال الجوية وتبدّل الطقس ما أن يعبر نورس فزعاً فوق البحر، وجانب آخر يحتفي باعتدال الأحوال الجويّة حتى عقب تواصل رخ المطر الذي يغرق الحقول. «مائة إنسان ومائة مفهوم» كان أحد الأقوال التي تم تكذيبها وتكشّف زيفها على نحو مشين لأنه ليس هنا في الواقع سوى مفهومين اثنين، جانب أحمر والآخر أزرق، إذا ما التقيا في منتصف الشارع وهما مرتديين الألوان يتقاتلان وإذا لم يلتقيا يتعانقان ويقبل بعضهما البعض، لكن اللباس ذا الألوان كانا يرتديانه كل يوم، ولو صادف أن قذف أحد ما حصاة بقوة فإن أخرا يقول بأنهم ضربوه بحجر على رأسه، وهكذا وما أن تهدأ الأمور ويتم التضامن حتى يكون القتال قد بدأ واشتعل، تمرق ناموسة في طريقها فيظنونها حثتهم وأستفزتهم فيما تعلن حالة الطوارىء وتستدعي الشرطة وتخرج بسلاحها لمواجهة الأغلبية بأحجارها، وقد يوجّه أحد ما كلمة بذيئة للآخرين فيكز

الآخرون على أسنانهم ويطحنونها ويعيدونها بالمثل فترد إليهم أكبر من ذي قبل فيما يبلغ التقاذف أشده وتكون المشعلة Bonfire[37] قد أضرمت والشرطة لا تستطيع التدخل فيما لا يعنيها لأن العين بالعين والسن بالسن، لكن عندما ينتزعون البدل النظامية وينفض احتفال الحمر والزرق وتطوي الأعلام وتوضع المناديل مكوية في الصناديق وتتوقف الأغاني المتذكرة الأعداء يصيرون أخوة والنظر الحاقد يصير ابتساماً، والتعبير يتحول إلى مجاملات والضربات والكدمات والخبط يصير تقبيلاً والدفع يكون عناقاً وكما لو أن شيئاً لم يحدث، يأكلون ويشربون، يرقصون ويتراقصون، يتزوجون ويتزاوجون، يتمتعون باليوم لأن الغد لا أحد يره، ولو لم يكن هذا البلاء وهذه اللعنة التي تنفرش وتنبسط مثل قرنيطة فوق اليوم بكامله لما وجدوا أناساً مثلهم، أطلبهم عيناً فيعطونها لك، اقصدهم حين تجد نفسك في طلب حاجة ما وسوف ترى كيف أنهم يصلبون من أجل أن يعينونك، لكن اللون يظل هو اللون، وباقياً كما هو، وإذا ما سولت لك نفسك أن تمسه فلا تخف إلا على رأسك، بل ولربما يدور من حيث لا تدري، . إن حضرات السادة كانوا يتلصصون على كل شيء ويسجلون كل ما يرونه في يومياتهم السريّة. في سوء الأحوال الجوية يسخّنون القاعدة وفي الأجواء المعتدلة يفرحون ويبتهجون من الخارج ويغضبون ويتذمرون من الداخل. عبر (كارلو) كل شارع وألقي السلام على الأزرق والأحمر، وصادف في مرات أن مال إلى جانب وتنكر للآخر وتناسى، وفي مرات أخرى فعل العكس. إن هذه السمة الطيبة كانت تكده وتثقل كاهله لكنه فرح بها، ليس لأنها كانت بمثابة سمة

(37) نار تضرم في الهواء الطلق.

اليوم الذي يريد، أن يأتي، بل أيضاً وأكثر من ذلك لأن أحد أما استطاع أن ينتزع من رأسه بأن تلك هي الطريقة التي خليق بكل أحد أن يسعى إليها. كان الحمر يظنونه أزرقاً، والزرق يحلفون بأنه أحمر. وكان له لوناً مثلما كان له من الآخر لكن لونه الحقيقي كان إنسانياً، لون إنسان مسفوع ومحروق بوهج وحرارة وقيظ البحر المتوسط:

- (هذا هو لوني، هذا، هذا، ليس غير، وكل ما عداه مجرّد لباس، بذل نظامية لا تروق لي، البسها والبسها لكن ليس بمقدورها أن تمس جلدتي الجوانية، بإمكانها أن تمرّضني لكن لا تبدّلني. إن جلدة الطبيعة لا تبدّلها أو تنال منها أية بدلة نظامية).

قال (كارلو مانيو) وهو بمحاذاة المقبرة. إن رفيقه مات فجأة وكانت نهايته بشكل غير متوقع: برق في جو صافٍ أذهل كثيراً من الناس: يأتي بالدهشة أو بالانتظار كله، الموت ملكة كل شيء وكل أحد، وهنا، هنا ينبغي عليهم أن يأتوا أولئك الذين يفكرون بأن البشر فوق راحاتهم ليحركونهم ويقودونهم من ناحية إلى أخرى، فيا أنتم أيها القادة الذين تمتلكون جلدة اللون والذين تؤمنون بأن الطبيعة صورتكم مختلفين عنا نحن الذين نسير خطوة بخطوة بتعب وألم وإرهاق في مسار الجميع، أخرجوا من البُطاح delirium[38] الذي دخلتم به، أفيقوا لرشدكم وتطلعوا في المرآة، مسوا وتحسسوا الهياكل العظمية التي لتوها تتبدّى وتتفسّخ أروا لون الموت الذي ينتشر ويتفشى من الآن، اقرأوا الآتي القادم وفصلوا منه ومن خلاله سياستكم الخاصة).

---

(38) البُطاح: هذيان الحمى.

وفيما كان قاصداً المقبرة أزعجته السيارات العابرة والسابلة المستعجلة. كانت الحياة تصل بكامل قوتها إلى بوابة هذا البيت الكبير: (فكّر): لكن من هنا إلى الداخل كل أحد أخذ حبّة منومة لا يفيق منها قط، منازل جثمانية فوق أخرى ممتدة على طول الحقل الكبير المغرق بأشجار السرو العالية التي لا تذبل على الإطلاق والتي لا تفعل شيئاً غير أن تتحرك شيئاً فشيئاً حين يضايقها أو يزعجها الريح بعض الشيء. إلى هنا الحياة ومن هنا إلى الأمام الموت، مدخل وأعقبه درج طويل يؤدي إلى كنيسة صغيرة في المنتصف. إن الوجود بالنسبة لكارلو مانيو كان سؤالاً واحداً كبيراً وصعباً للغاية لا يمتلك نفساً ليلتقطه فيجرّه، قرأ وفكّر، لا حظ وسأل، بذل كل ما بوسعه ليجيب لكنه ظل خجلاً: ولدت وأعيش لتوي وهذا مؤشر ودليل على أني سأموت وسأموت دون أن أعرف متى وكيف وإلى أين. أن تجلّي ونبض الحياة لمشرق وجميل، وأن المشاهد التي تحتفل بها الشوارع والطرق لدليل طافح بالبهجة على إلا شيء يندثر أو ينقرض، وجوه ريّانة، مستنيرة وأخرى مصفرّة ذابلة لتوها وكالحة كما لو أنها تريد أن تنبىء أو تخبر من هم حولها أو أنها تخبر نفسها ذاتها بأن الفصل الأخير من هذه المغامرة القصيرة قد شارف سريعاً على الانتهاء. كل شيء في مسارب ومسارات الحياة كان محسوباً، كل درهم يكسب ويضيع ويخسر، كل حق كان ينبغي أن يؤخذ وكل جمل بالضرورة أن يرفع وكل صراع ينجغي أن يكسب ويفوز، وبعدئذٍ؟ في قاعات المستشفى ليس هناك صراخاً للخيلاء والزهو أو العجرفة، بل عويل ونواح الوجع، في حجرة الموتى حيث يدخل السكان جميعهم متباطئين متمهلين سراً أو بصورة شخصية، جثماناً تلو آخر كي يذهب ليفسح مكاناً لأحد آخر وما كان هناك سوى وجوه ترى إلى

أعلى حيث السقف مثلما ولدوا وسألوا من أين جاءوا، في الشوارع والأزقة فقط قليلاً من الخطوات من هنا، من الحقيقة كانت الحياة تبدو كما لو أنها سرمدية، المراسي تدفع إلى أسفل حيث القاع ثم تثبّت وتربط بإحكام وترتطم وتتكدم مع البلاط الشائخ الذي مطلقاً لا يشيخ. في الشوارع كان الحلم ممكناً واللهو متوفر ـ إذ تسعف الذاكرة. كان (كارلو مانيو) ذا ذاكرة طيبة، لم يحاول مطلقاً أن ينسى ومن ناحية إلى أخرى ما نسي. بل إنه غار على من ينسى عادة، وفي العادة بكاه: (مساكين السياسيون). كان يعيد لنفسه: (ينسون، وهم يفكرون بأن هذه الأرض أرضهم، وأنهم كانوا من البدء وسيظلون إلى النهاية، لذلك يكنزون الثروة ويشغّلونها ويرونها تزيد وتتكاثر وتتزايد وتكثر ولهذا يرفعون من مستوى القوة، يستغلونها، يمضغونها مثل لحم طري بين أسنانهم المتخلخلة فرحين بها هم أنفسهم، ويركبون الخيول ذوات الرجلين الاثنين مثلهم ويهرولون بها لأن الراكب يفكر مباشرة بأنه أفضل من المركوب، وترى إليهم وهم ممتطينها شادين على سيور الألجمة فيتبادر إليك انطباعاً على أنهم ذووا قدرة واستطاعة لا متناهية وكلية الوجود. الحصان يكسب الرهان والراكب يفتح يده للهدية.

ـ (قدرة هؤلاء الناس الذين يضحكون من أنفسهم).

أعاد (كارلو مانيو) (هي مرض، ولأنه يخدع ويغرّر بأحد آخر فهو خطيئة، لكن أن تخدع وتغرّر بنفسك فهو جنون، مرض جنوني. كان شيئاً ذا قيمة أن ينسى السياسيون عروق وأسس الحياة الأصلية والأساسية وكانت ثمة حاجة ملحة إلى أن لا يذكر الأسى والهوان قط. ليس من شاعر قادر على أن يسرد أحزانه وأحزان الآخرين. من يذكر الموت يكون لتوه يظلل الناس، يدفعهم إلى التفكير في محدوديّة

الوجود، والآن صار السياسيون آلهة ومفتاح الحلول يحملونه معهم في جيب سترتهم الجواني الكبير. أن الحياة لتبدو بكاملها خبرة صحيحة وسليمة دون نكد وحزن عميق أكبر من الشكل السياسي والموت حالة استثنائية تحدث وتنسى.

- (نحن نريد أن نكون لكم بمثابة الأخوة).

كان السياسيون يعلنون من مكبّر الصوت، ولو لم يكن ثمة مكبّر صوت إذن لذهبت أصواتهم أدراج الرياح، وما تمكّن أحد من سماعهم (. . . وما دمنا هنا فإن مشاكلكم جميعها ستحل، إذا كانت ليست لديكم أعمالاً فسوف نخدّمكم وإذا كانت ليست لديكم نقوداً فهاتوا جيوبكم ولتدعوننا نغرقها لكم، وإذا ما نقصكم أو ينقصكم أي شيء فأخبرونا، لأننا ولهذا الغرض موجودين، أخبرونا قولوا لنا وسوف يتحقق كل ما تبتغونه، لا تفكروا فنحن نفكر بكم، لا تنزعجوا فنحن ننزعج بدلاً عنكم ولا تعيشوا فإن حياتكم بأيدينا).

- (و. . . بعدئذٍ؟).

كان يهذي (كارلو مانيو). في إطار هذه الحياة الجديدة لم يؤتى على ذكر الشقاء، الموت، الأحاسيس والعواطف ليس ثمة شقاء لا يربح كما أنه ليس ثمة موت ينبغي عليه أن يربح لفت الانتباه ولا العواطف والأحاسيس التي بإمكانها أن تربك وتحيّر العقل، نطيل الحياة قدر المستطاع، نخبّىء الموت في غرف الميتين المغلقة، نذهب بالقبور في الأماكن المعزولة، في قلب أشجار السرو الكثيفة، نقدّم المستشفى على أنه بيت تدخله مريضاً وتغادره معافى أكثر من ذي قبل. إن هذه لأَخدوعة، أخدوعة لدينا فقط، ولتعيش الأخدوعة.

لقد كانت هذه بالنسبة لكارلو مانيو خيانة الطبقات السياسية التي وهي تتكلم إلى الأغلبية بالكلام الذي يدعوها لأن تترسّخ وتتعمق مثل شجرة خروب شائخة في أعماق أرض يابسة وناشفة في حاجة إلى أن تروى. على أن السؤال الأساسي والملح هو: أية مصيبة هذه التي وقعت لنا وأي معنى لوجودنا؟ لذلك إذن كانت الفلسفة لعبة العقل، ومضيعة للوقت وهواية من يبحث عن الأيام والشهور الطويلة جداً كي تمضي وتمر، وفيما يتعلق بالصراع ضد الفلسفة لم تكن عقول السياسيين مستعملة، وكانوا ينتهون هم أيضاً إلى تصوير فلسفة موقّعة. الفلسفة ضد الفلسفة، الفراغ الفراغ، وكانوا يخبّئون شفير الرديم والقليل الذي يتبقّى كاف بأن يجعلهم يرسمون ويزينّون إطار جنة الأرض، وإذا لم يذكر الموت ولم نترك الكتاب ونمكنهم من أن يذكّروا الأغلبية بالمسائل والأفكار الصعبة والكبرى التي تحتل حيّز ونطاق العقل لوحده فإننا نكون قد ربحنا حرباً شعواء، الحرب في مواجهة الإِحساس العام للحياة التي هي الموت الذي يتطلب شرحاً لا يملك أي سياسي أن يحمله معه في الجيب العميق الممتلىء حلولاً.
وإننا إذا ما نسينا الموت فإن مظهر وسمة ومعالم الحياة التي هي ثابتة ومستقرة لتتربّى وتنمو من تلقاء نفسها، حياة طويلة ممتلئة بالرفاهية والنعم والقناعات. إن الموت لواقعة، كارثة تنسى، زاوية ليست في حاجة إلى أن تشعل فوقها مصابيح قوية.. الموت، من رأى الموت غير الشاعر والروائي والملحن والرسام والنحات والفيلسوف، أولئك المرضى جميعهم الذين نعرف الآن والآن بأنهم آخر أعضاء الجنس الذي كاد أن يكون منقرضاً أو منطفئاً؟. لقد بصق (كارلو مانيو) على هذه الأفكار وما كانت بالنسبة له سوى خيانة الإِنسان الذي بعد أن يأكل يحس بالجوع وبعد أن يشرب يحس بالعطش والذي بعد أن يرقد

يعود ليرقد، والذي بعد أن يموت يريد أن يرمى في صندوق مغلوق تحت الأرض، أنه لإِهانة كبيرة: الموت. ولا ريب في أن له شرحاً وتفسيراً ليس بمقدور بيان رسمي Manifesto سياسي أن يقدمه، ولا بمقدور أي سحّار حزبي أن يخرجه مثل حمامة بيضاء من تحت قبعة فارغة..... فراغ، فراغ، الفراغ، لتعش لا جدوى الفنون ومعها لا جدوى الإِيمان ولا جدوى التفكير، غير نافعة هي لأنها أرفع من مستوى المنفعة التي تصل بمن لا يصل كثيراً.

- (يا إلهي الذي لا أؤمن بك لأني أحسّك). دعا: (والذي لا أرك وأطيعك حين تغزوني وتجتاحني بكلامك، يا الله الذي أنسي ويزعجني، يا الله، يا إلهي، لا تتخلى عني، فقط لتقل كلمة، كلمة واحدة وسوف ترى كيف أن كل أحد يؤمن بك، أصرخ، أصرخ صرخة وتكون قد انتزعت كل شك، إفعل معجزة هكذا وفي الميدان حين يكون ثمة حشوداً كبيرة، افعلها في نور الشمس، افعل المعجزة الكبرى والخفيّة التي يدركها كل أحد ثم ترى بعدئذٍ كيف إلا أحد يخدعك وكيف إنك انتصرت على الساسة، فقط لتنزل وتترجل درجة واحدة من فوق عرشك وخذ بيدي. إنها لفكرة معقولة ومقبولة وطيبة يا مولاي، بلى، بلى يا مولاي حين ترى بأن لي ومعي حق. مرة، ولمرة واحدة لا غير ومرة تكفي لأنه بالصحف وبالإِذاعات المرئية والمذياع يتحدث ويتلاغى الناس للناس، وينبغي على العالم بكامله أن يؤمن ويصدّق. فكرة منيرة ومشرقة يا مولاي، ولتسمع مني هذه المرة وسترى...) كان (كارلو مانيو) يدعو ويعود فيدعو موقناً بأن مولاه بجانبه منصتاً إليه كلمة بكلمة ويؤاخذه بالمزاح، لكن المولى وبعد ألوف سنوات الصمت تلك كلها ما كان له أن يتكلم

مستجيباً لدعاء متلهف ومتحرّق من رجل عاش في مكان ما باحثاً عن أن يموت أيضاً ولمرة في مكان ما. لقد كان التعليم بالنسبة لكارلو مانيو عن الموت تعليماً عن الحياة، وكان يمزح مع أصدقائه:

- (عليكم أن تتأنقوا وتظهرون بالمظهر اللائق في مأتمي ولا تنسوا أن تحضروا لي الزهور وهي تفوح، وابكوا لكن لا تبكوا كثيراً لأن البكاء كثيراً لا يصدّق، ذلك اليوم لا تتوقعوا أن أبعث إليكم بالدعوات، ولا بدّ أن تأتوا، لن أتكلم إليكم وتفكيركم يكون فيّ، إن ذاك سيكون يومي، يوم واحد فقط وأكون على الأقل قد صرت سياسياً وقد غزوتكم من الداخل والخارج ودوّختكم وضيّعت عليكم يوماً من غير فائدة، لا فرق عندي أن تأتوا أو لا تأتوا، لكن: هيّا لأن كلامنا في حاجة إلى الآخر).

وكان أصدقاؤه يستاؤن وينذرونه:

- (كم لديك من مزاح سخيف، دعك من الموت. من رأى الموت؟).

ويحس هو في قرارة نفسه بأنه قد ربح ذلك أنه مكنهم من أن يفّكروا في ذلك كله الذي أرادوا أن ينسوه والذي أمرتهم الطبيعة ألا ينسوه: (كونوا متيقظين أيها الأحباب لأن فيكم شيئاً من السياسيين). كان يقول لهم: (من أولئك الذين لا تتعدى عيونهم أكثر من أنوفهم، وإذا كان ليس فيكم شيئاً منهم ففيكم من أولئك الذين يفعلون مثلهم من غير ما يكونون سياسيين، الناس الذين ينسون، علاوة على ذلك الذين يتذكّرون أن يتمنّوا أن ينسوا. من يسير في

الشارع ينبغي أن يرى إلى الأمام وإلا اصطدم وارتطم بجدار. من يرى إلى الأمام هو تقدمي ومن يرى إلى الحاضر هو استاتيكي، أو متحجّر ومن يدوّر عينيه إلى الخلف فهو محافظ. تطلعوا إلى الأمام وماذا سترون خلافاً لنهاية المستقبل القادم؟. لكنكم لن تروه لأنكم تحملون خيانتكم والرغبة في أن تنسوا، الفنون تفسد علينا العيد كله وتفكرنا، لا تفكروا وسوف لن تتمكنوا من تبديل شيء، فكّروا وستكونون سائرين بنظركم إلى الأمام، كل تقدمي ينبغي أن يتطلع إلى آخر أمامه بعيداً عن آخر نفس).

كان أصدقاؤه يستمعون إليه وكان تفكيرهم في الكيفية التي يستطيعون معها تدوير دفة الحديث.

- (وأنا مثلكم أتمنى أن أدوّر دفة الحديث لأن هذا هو الكلام الذي يخيف ويرعب. لكن لديّ عينين لأرى بهما وساقين لأمشي عليهما وعقلي... لا تفكر وأتذكر. أنتم تريدون أن تنسوا لكن عقولكم في الوقت ذاته لا تدعكم. أن الموت نحمله معنا، راقداً فينا، زريعة تنبت بخطو فصل متصل عقب آخر).

كانت الكنيسة مفتوحة وكانت ذات بناء قوطي Gothic[39] مرتفع ينافس أشجار السرو ويزداد ارتفاعاً إلى أعلى ليرى كل شيء أسفله، والساعة كانت الثانية بعد الظهر وقد بلغت حرارة شمس أغسطس أوجهاً وكل شيء كان ناشفاً. الميتون ميتون، والأحياء على وجه التقريب، وكان (كارلو مانيو) أن تطلع إلى الأرض وأبصر ظله يطول ويتعوّج ويتثنى معه فيما سمع وقع أقدامه حيث لم يترك الصمت شيئاً

(39) خاص بالقوطيين، طراز في فن العمارة نشأ في شمال فرنسة وانتشر في أوروبة الغربية من منتصف القرن 12 إلى أوائل 16 م.

لينسي. وفكر لوحده: (من الممكن أن يكون مأتمي تجربة رائعة وممتعة، وإذا لم تكن بالنسبة لي فللآخرين، كل موت يثير الفضول.. كل أحد يود أن يراك، يرى إليك ويتذكر كيف كنت قبل ساعات قلائل. لو كنت سياسياً قبل أن أموت لكان بالضرورة أن أمتلك ضماناً بأن يأتي في ذلك اليوم العديد من الناس من أصحابي وأحبابي، متدافعين كي يصل كل واحد منهم إلى قدّام، يقترب ويقترب ليظهر للآخرين بأنه مهم، بل أكثر أهمية مثلي الممتد بكامل طولي في المنتصف، وفي ذاك اليوم تعزف وتغني الفرقة لأَجلي، ويأتي الكبار والأعداء، لا يزدرونني أو يحتقرونني، وفي ذلك اليوم أيضاً يأتون، ينسون الماضي ويأخذون بيدي، يصيرون أصدقاء وأحباباً لأول مرة فيما يفتخرون قليلاً بي ويرفعون من شأني في اليوم التالي قليلاً أو بعض الشيء في البرلمان). جعّد شفتيه وواصل مفكراً: (وإلا سأكون حيث أنا، هنا، إلى أسفل مع هؤلاء الناس الطيبين وأموت مثل إنسان طيب أعني فقط يأتي إلى مأتمي القليل القليل ممن أحببت وأحبّوني، بعض السيارات ولا شيء أكثر من ذلك. ومن يدري لربما يكون ثمة أملاً في أن يأتي يوم وقد عقد فيه الحزبان ملتقيات جماعية ويجمعان الناس من حولهما في ميدانين كبيرين حيث تكون الشوارع فارغة والصمت يعم كل مكان وهما مجتمعين في مكانين اثنين وبقية الأماكن فارغة، ثم وفي منتصف النهار يكون بمتسع أولئك الذين لا يذهبون إلى الاجتماعات أن يخلدوا إلى غفوة القيلولة، وعلى بعد من الناس جميعاً وفي زاوية المقبرة على مرأى قليل من الناس موطدة العزم أسير ولآخر مرة على أكتافهم وأنزل بخفة ولطف داخل التربة. إن الشتلة التي تُتعهد بالرعاية تنمو وتكبر وتصير شجرة كبيرة، هم يهرجون ويمرجون وأنا

صامت، هم يتجمهرون وأنا غارق بلا انتهاء في علاقة عاطفية وحميمية خاصة، يصفقون هم ويثبّتون أقدامهم في الأرض وأنا أنزل وأنزل أكثر إلى أسفل، أسفلهم حيث نبت مرة واحدة كل شيء وحيث ثمة عروقاً تنفرش دون أن يجدها أحد ما).

الكنيسة كانت فارغة، تطلع في كافة الاتجاهات واندهش أن ليس ثمة أحداً. اقترب إلى منتصف الكنيسة، رد الصليب وهو ماشياً ووقف قرب التابوب، ربّت بلطف فوقه مرتين وكأنه يريد أن يسلّم على صديقه دون أن يفزعه فيما أخذ يتطلع مدهوشاً حوله.

- (لا أحد هنا). تنهد: (هنا لا أحد، ولربما جئت باكراً وارتكبت أي خطأ). قال ذلك ونظر إلى ساعة يده ثم رجّ رأسه وارتمى جالساً على كرسي قريباً من التابوت وقد أهمل رأسه إلى أسفل وأراحه بين راحتيه سانداً ذراعيه على مرفقيه، كانت عادة قد ألفها ثم أنه تذكر (روبن) لما قال له أنه ما عاد يحتمل الحياة أكثر، وأنه عازم على أن يفعل شيئاً يذكر ويؤرّخ، وكان هو أن سأله ما الذي سيفعله وخفض (روبن) رأسه وغمغم ولغط لوحده كي لا يفهم فيما استدعى أمام عينيه الحرقة التي أعلن له صديقه ذات مرة حين تمنى أن يتكلم إلى فتاة تفكّر أكثر ما تفكر في كل شيء عداه كما تذكّر عندما ذهب (روبن) إلى طبيب نفساني وخرج من عنده طائراً من الفرح وكيف أنه ومن ذلك اليوم غيّر من تسريحة شعره ووضع سلسلة لّماعِة حول عنقه وكشف عن صدره وتركه مفتوحاً، صارّا وشاداً بنطالاً ضيقاً وبما يليق ويتمشى مع الزي السائد حول وسطه وشرع يدخّن ويرمي باللفافة حين يبلغ نصفها لأن الدخان كان يلف ويدور أمام وجهه وكما لو أنه عمود سم ويوجع عينيه ويشرقه. وفي

الأيام الماضية التقاه (روبن) وسحبه إلى جنب:

- (أهلاً يا كارلو، أهكذا تراني؟).

كان (روبن) أن قال له، وشدّه كارلو من ذراعيه وعانقه:

- (ماذا تعني؟) سأله باستغراب وقبّله، لكن (روبن) حوّل نظره عن صاحبه وظل صامتاً. وكرّر (كارلو) السؤال وعاد (روبن) فقال له الكلام ذاته، وفهم (كارلو) بأنه سيسافر وجزم على أنه قرار طيب أو أن صاحبه سيعدل عن تفكيره لأنه ما عهده من قبل قط كإنسان ذي عزم وتصميم وقرار صارم. كان (روبن) ذا عروق، ولا يمكن أن تصل به الدرجة إلى أن يهاجر، وحين قرأ (كارلو) الصحيفة ما كان ليصدق وقد تجمّد دمه في عروقه: روبن رمي بنفسه من فوق سور ومات في الأعماق ومثلما طلب وتمنّى.

- (لماذا؟ لماذا فعلت ذلك يا روبن؟ لماذا هكذا؟).

تنهّد (كارلو) وهو يجعّد صفحات الصحيفة ظاناً بأنها قصة مختلقة أو ملفّقة ثم عاد فقرأ من جديد. كان تفكيره منصباً على أشياء أخرى، عيناه محدقتان في الفراغ، مفتشتان في كل مكان باستثناء الصحيفة المتجعّدة. منذ وقت قليل كان (روبن) قد قال له: (سوف أعطيهم إجابة، سأريهم بأني تعبت وتضايقت، هذا يكفي، يكفي، وكفي، وهذه الإجابة سيستلمونها...).

- (لا تأخذ الأمور على محمل الجدّ يا روبن، إن الحياة لا تريد من يأخذها بشكل جاد هكذا ولا شيء أكثر أهمية من أن يعيش المرء في استقرار وسكينة وهدوء).

كان (كارلو) قد دلّل له دون أن يعرف ما بعقل صاحبه، إن

صمت الكنيسة ذكّره بكل شيء، كلمة بكلمة. نهض من على الكرسي واقترب من التابوت، فتح البراغي ودفع بالغطاء إلى جانب واحد. كان الصوت قد دوّي في كل اتجاه، وكان أن تبدّى وجه (روبن ريانا ومتورّداً مملوءاً سلاماً وأمناً وسكينة على حال غير ذي قبل، رقيقاً عصبياً متأملاً ومفكراً تفكيراً متواصلاً ومنقطعاً على منأى من الأشياء ومن الأشخاص الذين أمامه. هذه المرة مختلفة. وجه محدّق، مقرّر، متوطّد العزم، قوي الشكيمة، باسماً في الأغلب ومبتهجاً، وما كان قد اعتاد على أن يلبس لباساً لائقاً وأنيقاً كهذه المرة المناسبة التي تمنى واشتاق. كانت عادته ألا يدع عنق القميص مفتوحاً ولا يرتدي ربطة عنق، مطلقاً ما رآه بلباس متكامل، لكنه متأنق اليوم، القميص مقفول جيداً ورباط العنق معقود إلى عنقه على نحو أفضل والسترة مضمومة ومثبتة بزرين اثنين، والبنطال طويل ومكوي كما ينبغي وبتلك الثنية، والحذاء اللّماع واللحية الحليقة الآن، الآن، والشعر الممشوط والمسرّح جيداً.

- (لربما لم أفهمك جيداً أنا أيضاً يا روبن رغم أننا كنا صاحبين حقيقين، لكني أعرفك بشكل مختلف، وحتى آخر كلامك لا يبدو واضحاً، من الممكن أني إفهم الآن كل شيء، متأخراً لكن ليس كثيراً لأنك تبدو وما تزال بحال حسنة وحتى أفضل من قبل). قال له (كارلو) في حين ملّس وجهه وخفض رأسه ليقبّل خديه، ولم ينتظره ليتكلم إليه لأن (روبن) كان دائماً مقلاً في الكلام إذ لا يعتبر من وجهة نظره الوسيلة المناسبة والناجعة لتفسير ما يعتمل بداخله، وفي هذه المرة أيضاً كان تفكيره مجموعاً ومحتشداً وذلك من خلال تعابير ومعالم وجهه، أصفراً، ممتقعاً مثل موت، محيّراً وملغزاً مثل حياة.

- (كيف حالك يا روبن؟).

سأله.

- (بحال جيدة يا كارلو، جيدة للغاية، و.. أخيراً).

تخيّل أن (روبن) يجيبه ولتوه من التابوت.

- (أحس بامتنان وفرح كبيرين وأنت تقول لي ذلك، أخيراً وجدت كل ما طلبته وتمنيته. هناءك ورضاك).

قال له (كارلو) في حين مرّر يده اليمنى فوق رأس الجثمان وأحس برداً شديداً وقارصاً يتخلله، لم يسمعه (روبن) مطلقاً وهو يتحدث إليه على هذا النحو. لقد كانت هذه المرة الأولى والأولى التي تبدّلت فيها الأشياء على نحو موات وبهيج.

(إلا ينقصك شيء؟ أأستطيع أن أعينك بأية طريقة؟).

سأله.

- (لا، لا شيء يا كارلو، أحسني في حال حسنة جداً).

تصوّره يقول له.

- (كل شيء على ما يرام يا روبن). قال له: (فقط لتسترح وترقد في هدوء وسلام، ليس ثمة ما يزعجك ويضايقك في هذه الأنحاء، لا قتال، ولا إزعاج، لا صراع، ولا تنافس، حتى النفاق ليس هنا).

- (أعرف أني لست لوحدي يا كارلو، هنا مئات ومئات الملايين معي، والكل متضامن معي، لا تفكر بي يا كارلو إني لعلي ما يرام، الماضي كأنه حلم أبله والحاضر هو كل ما تمنينا حين كان يخيّل إلينا لأن الهناء يبعد عنا بأربع خطوات. هنا الكل سعيد

بما أتخذه من قرار، قرار صائب وليس ثمة قراراً سواه). تصوّر (روبن) يتكلم إليه، وكان إن عاد (كارلو) فقبّل وجهه وردّ غطاء التابوت إلى مكانه، ودوّر البراغي ببطء كي لا يفزعه: السلام، السلام يا روبن). ثم ربت مرتين بيده اليمنى المفتوحة فوق الخشب اللّمّاع، وظهرت في نور الشمس النازل مباشرة من خلال النوافذ حتى بصمات أصابعه، وكان أن ردّ الصليب وخرج بخطو سريع من الكنيسة منتزعاً ربطة العنق السوداء من عنقه بحركة خاطفة خجلاً تقريباً من أنه ارتداها وزاد فانتزع السترة وتركها متدلية على يد واحدة.

- (لماذا يحس الأحياء أنهم أعلى وأرفع مقاماً أمام الأموات وكما لو أنهم أمام أناس من جنس مختلف؟).

تكلم لوحده: (إن الحي باستثناء كل شيء هو ميت ما يزال لم يمت بعد، والميت هو أي أحد يمتلك لتوه تجربة جديدة والحي أحد ما لا يمتلكها أولاً؟ ومن الممكن أن يكون الموت باباً نعبره دون أن ندري. أن الميت لأعلى مقاماً وليس في حاجة إلى الأسف أو الندم، وإلى من يرى إليه بفضول واندهاش وهو ممدوداً أمامه. إن التعب في حاجة إلى الراحة والحياة تحتاج إلى الموت والموت لا مكان له لأن يأتي أكثر وأكثر). وظل ماشياً في قلب القبور وتطلع في كل اتجاه: (أعرف أني لست لوحدي). الكلام الذي أحسه (كارلو) خارجاً من فوقه ومن كل شبر لحم راقد، لحم ذلك الشخص الأصفر الممدود أمامه في صندوق طويل موظّب وأنيق، ذلك الكلام يتردد في أذنيه: (لست لوحدي هنا ملايين وملايين معي، لا تهتم بي، أفكر جيداً).

هذه المرة كان (روبن) مصمماً ومتوطّد العزم أكثر من أي وقت مضى.

ـ (ما هو الموت؟ لا تنس أن تنتظر الموت يا سيد كارلو مانيو).
حدّث (كارلو) نفسه وهو ماشياً: (ما هو الموت؟ من الممكن خروج الأسباب من الأسباب، خطوة إلى الخارج من وجودنا ذاته، ميلاد الألم والأعياء الذي يعيد التفكير من التفكير، اللعنة ذات الحدّ، ميزة أو مأثرة أو فضيلة الإنسانية ـ الأسباب ـ التي تود أن ترحل الإنسانية بها وبمنأى عنه. الأسباب تضلل بالأسباب. ذلك هو الموت وإلا كان سخفاً مهيناً، قد يكون السدر أو الدوّار الذي نهفو إليه مثلما نهفو إلى النعاس آتياً إلينا بالتدريج دائماً بالليل حين يشرع الظلام يومياً في الهبوط ليرقّدنا لوقت قصير. الإعادة النهائية Rehearsal[40] نهاية التجربة التعاطفيّة والمتساوقة التي ترعبنا. لماذا؟ نخاف الموت، نود الموت، نريده، نتمناه، تقرّر، هناك صوت الموت متخفّياً خلف الستائر، في أنامل البيانيّ Pianist[41] الناعمة والرطبة، ثمة طعمه، حلواً ومراً، في ذرة ومقطع لفظي وفي إيقاع قصيدة، وملايين مغمغمة بالدعاء متطلعة إلى أعلى وإلى أسفل ومن حولها وفي داخلها مفتشة عن أحد ما تتقاذفه وتنتابه الهواجس من خلف الستار دائماً ولا يتكلم قط... عائداً قد يقفل في المساء حين تهيىء النجوم حفلاً مقدساً وخاصاً على شرف الفرد، لأن الموت فرديّ، وقد يجيء صباحاً حين يكون على الشمس أن تنوّر كل مكان ويفيد منها كل أحد من غير أن يتنبّه ويتيقظ، لأن الموت هو رحيل جدّ خاص، وذاك ليوم، ذاك يا مولاي، فلتذقني نبيذك المعتّق وتثملني لأذهب، لأصعد بلا تعقيد وبيسر مثل طيّارة حديثة الطراز، أعلو ثم أعلو دون أن أنفك وانقطع

(40) آخر إعادة أو تجربة على مسرحية قبل عرضها.
(41) عازف البيان.

من الداخل، رويداً رويداً يا مولاي: عاملني بلطف كي لا أضيق في آخر الأمر ذرعاً بك أو في بدايته لأنك في التوقّد أذقتنا الموت حين خلقتنا دون أن نعرف ما حدث، وحين أزعجتنا بالجنس الذي طوّقنا وقيّدتنا به من حين إلى آخر، وتذيقنا الموت أيضاً الآن أو أنه بعيد ذلك اليوم حين تهبط وتغلق وتسبّل لنا عيوننا بيديك الكبيرتين ذات الأصابع الناعمة، أصابع عنكبوت شفّافة تحتضن كل شيء، حتى الأسى وحتى الطعم: كل شيء ينتهي على نحو أفضل، قلت لنا، إذا ما حكّمنا عقولنا وأطعنا أطفالك الجبناء الذين لا يسألون كثيراً ويردمون التذمر داخلهم، والتذمر ينبت في الذكاء، والفطنة وبالفطنة نريد أن نجحد وننكر الفطنة ونصمت، فصاحة أو بلاغة خرساء، اليوم نسمع وغداً نصم ونخرس واليوم نتثاءب وغداً نصاب بالتخمة ونمشي اليوم وغداً نمتدّ... غداً، غداً، غداً يومك الذي تحمله معك، تشتاقه وتخافه، تنتظره أن ينفتح مع أول حوّليّة kapricc[42] أو هوى مباغت منك).

انفجار هذياني من قمة رأسه إلى أخمص قدميه قد تلبّسه وهو ماشياً فيما اتخذت أفكاره ومشاعره شكلاً آخر بمستطاعه مسه، شكلاً ساخناً وبارداً، ناشفاً ودوّاريّاً. قبور في كل اتجاه، وأحس نفسه متوحداً في مجتلد arena[43] فرداني، يظل فردانياً حتى في الزحام:

- (وحدي، لوحدي). كرّر (كارلو) لنفسه، وكان أن خفّف من خطوة كي يلتقي (تشربرو) الذي ظل هذه المرة متكسلاً تحت وطأة واحدة من نزواته في البيت. وهكذا ما أن وصل البيت

(42) الحُوّلية Caprice: ميل إلى التغلب في الرأي (بلا سبب ظاهر) أو نزوة.
(43) المُجتلد: ميدان تنافس أو صراع.

حتى هبّ إليه الكلب متشوقاً ولعقه كالعادة بحماس جديد.

- (لو جئت معي إذن لكان بميسورك أن تتعلم شيئاً هاماً وكبيراً للغاية من المؤكد أنك لم تعرفه ولا حتى تنبأت به بالمرة، إنك لم تعرف بعد ما هو مدّخر لك، وكيف ستنتهي ولا أريد حتى أن أخبرك). وهبط إليه ومسد رأسه: (يبدو أنك جوعان، وأنا أيضاً، في البدء سنأكل ثم قد أسرد لك فيما بعد بعض الشيء وليس كل شيء من عالم جنسي، هذه الرأس، هذه يا تشربرو رأس خوف، نحن يا تشربرو جنس لم يفق إلى رشده بعد. . .) رفع صوته وخبط رأسه ثلاث مرات: (هذه، هذه الرأس، رأس جنسنا. . .) انطرح (تشربرو) أرضاً بين رجلي صاحبه في انتظار أن يرى الصحن مملوءاً أمامه.

8

* الأحداث التي وجد (كارلو مانيو) نفسه فيها انتهت إلى أن تحذو كل منها حذوها وتسلك مسلكاً بطريق تختلف إحداها عن الأخرى وقد كان مشتبهاً بأن ثمة خيطاً قنبياً خفيّاً يربطها جميعاً وفي مرة واحدة. وكان ما أن أسفر الصبح لتوه حتى سمع قرعاً على الباب، وظهر شرطيّ فوق العتبة:

- (أسعدت صباحاً).

بادر (كارلو مانيو) فألقي السلام، وقد تمعّنه بنظرة ساخرة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ولم يقل الشرطي شيئاً، بل فتش في رزمة أوراق بيده وقلّب صفحة تلو أخرى حتى وجد الوثيقة التي يريدها: (ها، سأكلمك قليلاً). قال له بجفاف وقد تهيأ أن يمدّ أول خطوة إلى الداخل:

- (أدخل، أدخل، إذا ما أردت أن تدخل).

تابع (كارلو مانيو) بصوت أحد ما أكثر جفافاً، وكان ممثل الحق والأوامر يبدو مدفوعاً بحجة لا مثيل لها كي يؤدي واجبه.

وكرّر (كارلو مانيو):

- (أدخل، لتدخل). وترك الكلمة تدور بفضول في قاع معدته المتضورة جوعاً بسبب كوب شاي الصباح الأول.

- (لا، أشكرك).

قاطعه فجأة، وظل (كارلو مانيو) متطلعاً إليه.

- (أأنت كارلو مانيو؟).

- (بلى). أجابه بهزة من رأسه أكثر من الكلمة.

- (لا يكفي أن تهز لي رأسك، ها ها ها) وتوقفه قليلاً وأضاف: (ينبغي أن تريني ما يثبت إنك هو، كما ينبغي أن أقول بأنك أنت (كارلو مانيو)).

كان (تشربرو) منطرحاً في منتصف الحجرة، وتطلع (كارلو) إلى الكلب وقال للشرطي:

- (اسأله).

إذ ذاك رفع الشرطي رأسه من فوق الأوراق وحدّجه بنظرة احتقار كأنه يريد أن يحذّره بألا ينبغي عليه أن يمزح مع رجال العدل).

ظل صامتاً لبضع الوقت، وعاد فقرأ الصفحة التي معه وقال له:

- (الوثائق، أحضر الوثائق التي تثبت بأنك كارلو مانيو).

- (الوثائق، الوثائق، إذن أنا كتابيّ bibljoteka[44]؟ الوثائق).

---

(44) biblical: المتمسك بحرفية الكتاب المقدس أو العالم به.

أضاف متذمراً وحده وهو يرى إلى (تشربرو).

- (إذن فلتحضر بطاقة الهويّة) قال الشرطي: (الآن، أسرع ولا تضيع الوقت لأنه لدي أشياء أخرى أريد أن أفرغ منها).

ودخل (كارلو مانيو) غرفة أخرى ومضى مفتشاً قليلاً من الوقت: (ها هي) قال: (إنها ها، ها هي). وناولها له. نظر الشرطي إلى كامل الصورة، ثم رفع بصره، ونظر نظر متفحّصة إلى وجهه، مرة، مرتين، ثم هز رأسه أكثر من مرة ورأى أن شيئاً ما كان مقنعاً:

- (تريد أن تمزح، لكن هذا شيء لا يقبل المزاح وهذه الصورة لا تشبهك في شيء، من سيخبرني بأن هذا الوجه هو وجهك).

انفجر (كارلو مانيو) ضاحكاً ودعى (تشربرو) لأن يضحك معه:

- (أتسمع يا تشربرو؟ لدي ما أقوله لك من أخبار جديدة، وجهي ليس لي وأنا لست أنا، أأعجبك؟ انظر يا سيادة الشرطي) قال بصوت مختلف: (كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنه وحيث لم تعجبك هذه فبإمكانك أن تحضر مصوّرة وأعطيك تصريحاً لتلتقط لي واحدة، لكن من سيقول لك بأن الصورة التي ستخرج تشبهني؟).

رفع الشرطي يده ولوّح ببطاقة الهويّة عدة مرات: (سوف لن أقبلها ما لم تقسم بأن هذه الصورة هي أنت، ليس ثمة ما تفعله إذا ما أردتني أن أعطي الأخبار التي عنك).

- (أأقسم على نكتة مثل هذه يا سيادة الشرطي؟ انظر جيداً، إلى الصورة وسترى كيف أنك ستغيّر من رأيك).

وظل الاثنان يلومان بعضهما البعض، واحد يؤكد على أن فريق الشرطة يبذل كل ما بوسعه وبلطف لا مثيل له وإن هذا القسم ليس إلا تدليلاً على هذه الجديّة والآخر يتضاحك ويغضب أونه لم يستطع أن يفهم كيف أن وجهه يتغيّر هكذا ولم يتفق حتى معه على أن خلقة مثل هذه ينبغي أن تتغيّر بالتجذيف على الله.

- (كل على ما يرام، إذا ما أردت هكذا، وبما أن أحداً لن يفهمك فإني سأقسم لك). وتظاهر (كارلو) بأنه يقبّل الصليب المتدلي مع جدار الغرفة واستدار إلى الشرطي: (إذن فهذه صورتي الآن وهذا وجهي، كيف بإمكاني أن أخدمك؟). سأله بلهجة أمر وبصوت ضخم وعصبيّ تقريباً.

- (بعثوني من إدارة الشرطة المركزية لأَعلمك بأ القضيتين تم إيقافهما وسوف لن تتخذ إجراءات ضدك. لقد صفحوا عنك، على أية حال، رغم أنك أخطأت في حق شرطيين ذي قلبين طيبين. هل فهمت؟ كدت أن تنتهي نهاية غير طيبة. التقارير ستتوقف عند هذا الحد، لكنهم يرغبون في أن ينصحوك لأنك فيما لوعدت، هه، لو عدت و. . . .) توقّف وبوّز شفتيه ورفع حاجبيه وبرّق عينيه كي يظهر ويثبت إلا مزاح مع العدل: (كان لك قضيتين هامتين وخطيرتين جداً، لكن، لكن على أية حال صفحوا عنك، سامحوك، ردّ الصليب على وجهك وحكّم عقلك، ذلك ما طلبوا إليّ أن أخبرك).

- (سامحوني، هه).

قال (كارلو) بصوت مهيب وساخر.

- (أكيد، أكيد، ولتطمئن، لقد سامحوك ولو لم يصفحوا عنك لما

كنت هنا، هه، لو....) وعاد فبوّز شفتيه وعبس بكبرياء واندهاش إنسان خائف:

- (قل لهم أنا أيضاً سامحتهم يا سيادة الشرطي، وفضلاً عن ذلك وحسبما أرى إلا شيء يجعلهم يسامحونني، ومن ناحيتي أعتبر وكما لو أن شيئاً لم يحدث. لقد سامحتهم، قل لهم إني سامحتهم على كل شيء).

- (يا سيّد (كارلو)، لا تقل كلا ما كهذا، من الأفضل أن تحفظ لسانك لأنه...).

نصحه الشرطي بذات الكلام مرة أخرى ثم ألقى عليه السلام وهمّ بالذهاب).

- (هل تريدني أن أطمئنك وأقسم لك قسماً آخر على ألا أقول هذا الكلام مرة أخرى يا سيادة الشرطي؟).

سخر (كارلو مانيو) في حين وقف الآخر واستدار إليه مدهوشاً ومتجهماً على الأرجح وتصوّر لو أن المسألة انتهت إلى هذا الحد إذن لكان أكثر تجهماً وعبوساً.

- (أتريدني أن أقسم؟ حسناً، لن أقسم وأخبرني بأني سأنسي كل ما فعلوه بي لأنهم أعني أناس الحق والعدالة من حقهم أن يطلبوا لي العفو ولست أنا. إن الذين يحكمون ويقودون عليهم أن يهبطوا على ركبهم وليس المقادون. ألا تصدّق بأن الكل متساوون في عالم السيادة؟).

- (الكل متساوون، أجل، هكذا ينبغي أن يكون، مساواة، أخوة، حرّية). أعلن الشرطي بصوت عالٍ.

- (ثمة حاجة لأن تنتهي كافة الامتيازات، ألا تعتقد بأن تعامل أفضل من معاملة أحد آخر؟).

- (أخبرهم بأني أوصيهم وأحذّرهم. .).

- (أنت تضحكني). قاطعه الشرطي.

- (هنا نحن، سادة، ألا ترى كيف أن الجميع هكذا متساوون؟ إنك لم تدرك ولم تعرف بعد بأن المساواة ليست مجرّدِ كلمة بل خبرة، قل لم، أكرر لك، بأني كمواطن لا أنتظر من عندكم أي عفو، أخبرهم أنهم ذووا امتيازات وإننا لسنا مثلهم، لديهم القدرة على أن يأمروا ويفعلوا ما يريدونه).

- (لا تضحكني، أحد يريد أن يأمر، ومن يأمر. . .).

- (أنت أيضاً يا سيادة الشرطي لا تتفق في أن يكون الجميع متساوين، إننا نكون متساوي حين لا أحد يأمر أو يطيع بل كل أحد يعيش ومن حقه أن يعيش. وما داموا هم هكذا يفعلون ما يريدونه ونحن نفعل ما نريد فعله إذن فالمساواة تظل مجرّد خرافة، خرافة جميلة قدر ما تريد). صرخ (كارلو مانيو):

- (لكن كيف يتحقق ما تحلم به؟).

ضحك الشرطي.

- (إذا كان ما أقوله لك الآن خرافة إذن فلنتفق بأننا لسنا متساوين. . . آخذك من يدك يا سيّد). وأقترب منه ويده مفتوحة.

- (إنك لتحلم، كلام كثير وجميل ولا شيء أكثر من ذلك. أنت واحد من أولئك الذين يفكرون فقط ويؤلفون الكتب

ولا يعرفون كيف يكونون عمليين، أليس كذلك، هكذا تبدو، ولهذا فهم عفوا عنك لأنهم فرحوا معك).

- (الحلم هو حقيقة أيها الصديق، دعني أقول لك كيف نكون متساوين، نكون متساوين حين يكون لرئيس الوزراء مرتباً كمرتب الكنّاس، وللكناس مرتب مثل رئيس الوزراء. أن الحياة تعلو وتنخفض على الاثنين وينبغي أن تعرف بأن الكنّاس - مثلي - يعمل أكثر من رئيس الوزراء، ونحن في حاجة إليه لأننا بدونه نكون في خطورة من الوباء، وبدون رئيس الوزراء بإمكاننا أن نتقدّم وعلى نحو أفضل. إن هذا لا يفسّر أن رئيس الوزراء يكنس والكناس يتقلّد منصب رئيس الوزراء، بل يفسّر أن الاثنين يعملان عملاً مختلفاً ينبغي وبالضرورة أن يكون مدفوعاً بالتساوي). أكّد (كارلو مانيو).

- (إهانة، هذا كلام يسخر ويحط من قيمة الجمهورية).

حذّره الشرطي غاضباً مصدوماً وأضاف:

- (لو امتلك الدليل إذن لأخذتك إلى مركز الشرط، وعندها تجد نفسك في خطر).

- (نحن لتونا في خطر يا صديقي).

أجابه (كارلو مانيو): (في خطر ولست أنا فحسب بل أنت أيضاً و... أتعرف لماذا؟ لأنه هنا طبقات الفرسان الذين يأمرون وطبقات الخدم المأمورين. هنا ثمة من يريد أن يركّع الناس على ركبها أمامه، وثمة هنا من ينفق حياته زاحفاً على ركبتيه حافراً باطن الأرض وإلا مات في الشارع. يا سيادة الشرطي، لا تصدّق بالمساواة).

وقاطعه الشرطي:

- (بل أصدّق، أصدّق، قطعاً إني لأصدّق).

- (لا تصّدق، وسوف أريك كيف تصدّق. أتصدّق بأن حياة الكنّاس وحياة رئيس الوزراء ينبغي أن تكونا مربوطتين بالقوانين ذاتها رغم أنهما وظيفتان اثنتان مختلفتان؟ وهل ثمة لجاناً تفتيش وتقصّي تتعقب أثر رئيس الوزراء مثلما هناك لجان مسلطة فوق رأس الكناس الذي لا يكنس جيداً؟ وهل ينتظر رئيس الوزراء في الصف مثل الكنّاس؟ وهل ينزل تحت سيارته ليرقّع ثقباً في الإِطار أو يظهر كل صبح في الباب حاملاً كيس أو برميل القِمامة؟ وهل يطلب تصريحاً أو إذناً على كل ما يريد أن يعمله مثل الكناس، أو ينتظر في محطة الحافلات؟ هل يأكل قطعة خبز بالسرقة في منتصف النهار مثل كناس وهل رأيت رئيس وزراء منتظراً دوره عند الحلاق أو عند بائع الخضراوات أو إنك رأيته منتظراً إصلاح أو تجهيز سيارته عند الميكانيكي، أو إنك رأيته يظفر بمخالفة لأنه أوقف سيارته بمكان ممنوع، وهل رأيته بين الجماهير، وهل...؟).

وكاد (كارلو مانيو) أن يواصل الأسئلة، وكان الشرطي أن ـ ظل مبهوتاً لأن هذا الكلام لم يخطر بباله قط.

- (لا، إطلاقاً). غمغم الشرطي من تحت اللسان.

- (نحن لسنا متساوين، هل تمتلك القدرة على أن تذهب هكذا لتكلم رئيس الوزراء الآن ـ إذا ما أحسست أنه ينبغي عليك أن تفعل ـ تكلّمه وتقسو في كلامك، مثلما تكلّم وتقسو على الكنّاس حين لا يكنس جيداً، وهل بإمكانك الآن أن ترفع الهاتف ويكون هو قد أجابك هو نفسه، أو إنك في حاجة إلى

أن تكلم من هو تحت، تحت، تحته كي يقول لك هذا فيما بعد: (لا، رئيس الوزراء لديه ما يعمله ولا يمتلك وقتاً ليضيّعه مع الناس) هل يتطلبك وقتاً أن تتكلم إلى الكنّاس هكذا،؟ وهل رأيت بيت الكنّاس وبيت رئيس الوزراء؟ وهل تعرف ما يمتلك من نقود هذا وذاك؟ أليس ثمة فرقاً صغيراً في حياة الاثنين؟ من يدري)، وتوقف (كارلو مانيو) قليلاً وتابع بصوت ساخر ومتشائم: (ومن يدري، فلربما الكنّاس لا يريد أن يكون مثل رئيس الوزراء، أو لعله العكس). وانفجر ضاحكاً: (من الممكن أن الكناس سعيد لأنه لا يعيش عيشة «فارس»[45]، كل شيء ممكن، كل شيء حلم).

وكشفت النظرة في وجه الشرطي كل شيء، وأشعلت ابتسامة خفيفة خديّة، وكا لو أنه وفي مرة واحدة قد تلبّسه فرح جديد.

- (تكلّم، لا تخف من أن تتكلم، أيها الصديق، أنا مثلك، أنا أساويك، نحن الاثنين لتونا نطيع، الاثنين زاحفين على ركبنا فوق الأرض، لن أدفع بك إلى الخطأ لأني أساويك، أسيرٌ مدني مثلك، وحتى أنت يا سيادة الشرطي أسير، لقد أحضرت لي المغفرة التي أمرك روساؤك أن تحضرها وتبلغها لي، ولو أمروك أن تبلغني بالإدانة لا بلغتني بالإدانة. إنك لا تخطىء قط لا في الإنسان الطيب ولا في الخبيث، ولا تعرف من يستحق أو لا يستحقّ، تنفذّ ما يقوله لك أولئك الذين ليسوا مثلك، لأنه مثلما قلت لك: لم نكن بعد متساوين، لكن ذات مرة سنكون. كان لنا الفرسان وبعدهم الحكام، والآن - نجد أنفسنا في عهد

(45) من فرسان القديس يوحنا.

الحضرات والسادة). وتوقف (كارلو مانيو) ثم طلب إليه أن يدخل: (أدخل قليلاً ودعنا نشرب معاً شيئاً ما)، أشار إليه ليدخل ومشى إلى الداخل: (ماذا تشرب؟).

- (أشكرك شكراً جزيلاً يا سيّد كارلو)، قال الشرطي: (إذا ما أعددت لي كوب شاي فلن أقولك لك لا).

- (لا داع للعجلة، ولا تنسي. سأروّعك بعض الشيء إذا ما سمحت لي: ليس ثمة أقل عجلة أو أهمية لأن تعود إلى العمل أتعرف لماذا؟ لأنهم - هم - يقولون بأننا أيضاً متساوون ولكي نبلّغهم مرامهم ونقف عند رغبتهم ينبغي أن نفعل مثلهم، هم يضيعون الوقت ونحن أيضاً نفعل هكذا - تلك هي الطريقة التي بها نكسب حقوقنا، حقوقنا التي نأخذها بأيدينا. نفعل مثلهم وأمانيهم تكون متحققة). قال له متبسماً.

- (أود أن أقول لك بأنك محق في كل ما تقوله، ولا تؤاخذني إذا ما كنت أتكلم بشكل آخر، وأتمنى أن نحتفظ بما نقوله بيننا وإلا انتهيت إلى ما لا يحمد عقباه). طلب إليه الشرطي.

- (لتطمئن) قال له كارلو مانيو: (أن كل ما نقوله بيننا سيظل مدفوناً فيّ، لكن لا تنس بأن خوفك هو دليل على أننا لسنا متساوين، هم الذين يأمرون لا يخافون ويقولون ما يودون قوله وأنا كواحد من القطيع الذي يطيع، تخاف أن تثير غضبهم واستياءهم بكلامك، لا أعتبرك مخطئاً حين تخاف وسواء كنت محقاً أم لا فإني أكرر لك بأننا نحن جنس يختلف عنهم؟). حرّك الشرطي رأسه لمرة أو مرتين ليريه بأنه يوافقه في كل شيء.

- (من الخارج ينبغي عليّ أن أتصرف بطريقة، وأتكلم بطريقة،

لكني أفكر من الداخل بطريقة أخرى، هم صاروا (فوق) ونحن يتطلب إلينا أن تكون (تحت)).

- (إذا ما أقعدوك إلى (تحت) فكل ما تفعله هو أن تقعد (فوق) لا تنتظر تصريحهم، وإذا ما كنت الأخير فاذهب واحصل على المكان الأول. الحقوق تحصل عليها بيديك، وليس ثمة قانوناً أعلى من الحق، الحق لا يعلى عليه قانون، أن الأشياء لتبدو من الخارج شيئاً لكنها في صميمها شيئاً آخر وعلى العكس تماماً، دنيا رأسها إلى أسفل، قبل أن يفهم كل أحد ما يريد أن يفهمه يعود ليبدأ من البداية ننتزع كل ما لدينا ونجمع كل شيء في كيس واحد ونتقاسمه بالتساوي، درهماً بدرهم، والحق لا يأتي، ثمة من يريد السلام لينفذ بجلده لأن السلام يفسّر أن يظل كل شيء كما هو عليه، هو فوق والآخرون يعفسون أكثر إلى أسفل. إن السلام واللانظام لا شأن لهما بالمساواة، سواء كانوا بالنسبة لها موسرين طيبين أو غير طيبين، وكل أحد يرى متغطرساً حتى أرنبة أنفه، لكننا نتفاهم... وفي الوقت الذي يقول أولئك بأنهم يريدون المساواة ولا يعيشونها فإن ذلك لا يفسّر بأن ما يقولونه ليس صواباً، بل يفسر أنهم يقولون الصواب ويفعلون غير ذلك).

- (لتعذرني يا سيّد كارلو مانيو، ولا تحسب بأني أحمق أو طائش لكني على يقين من أنك تفكّر جيداً، وأنك لتبدو اشتراكياً واثقاً ذا إيمان راسخ ولربما حتى شيوعياً). تمتم الشرطي: (تظهر إنك تريد ثورة جادة وقوية). تابع بوهن: (لتعذرني، هل تفهم، لتعذرني لكن هكذا وهكذا تبدو).

اقترب (كارلو مانيو) منه بكوبين من الشاي، وضعهما بهدوء

فوق منضدة صغيرة، وطلب من الآخر أن يصب ما يريده من حليب ويضع ما يحتاجه من سكر، ثم رفع حاجبيه شيئاً فشيئاً: (اشتراكي، شيوعي، دعني أفكر قليلاً في أي درج سأدخل، أن كلامهم كله لجميل لكن حين تفكر في ماذا فعلوا تفكر مرتين، الديمقراطيون أيضاً يريدون العدالة ويخافون أن يغيّروا من أصغر شيء كي لا ينزعج السادة الأغنياء، هؤلاء كلهم يقولون بأنهم يريدون الشيء ذاته: الحق، والحق هو واحد فقط. لكن كيف هو الحق هنا؟ أن كل أحد يعرف ماذا-تفسّر المساواة، الجميع يقولون كل يوم بأنهم يحاولون تطبيقها، والجميع يتهمون بعضهم البعض بأنهم لا يريدونها، اليمينيون يتهمون اليساريين باللاعدالة، وأن لهم الحق في ذلك، واليساريون يتهمون اليمنيين أيضاً باللاعدالة وأن الحق معهم، اليساريون خلقوا لا عدالة جديدة، واليمينيون دفعوا باللاعدالة القديمة أن تكبر). قال (كارلو مانيو) ونظر إلى الكوب الساخن بين يديه، ثم شد على الكوب وأداره بخفة ليذوب السكر:(لا أعرف من سأختار).

قال ولم يعد يسمع في الوقت ذاته في الحجرة سوى صوت الملعقة تدور وراء أخرى في الكوب.

- (إذن فأنت لست مع أحد؟ أتحظى بكل هذه الأفكار والمفاهيم ولا تميل إلى جانب أو آخر؟).

رفع (كارلو مانيو) رأسه وحدّق في الشرطي: (أنا نصراني جاد، فقط لتقرأ الإنجيل جيداً، إقرأه وانظر ما إذا كنت ستجد أي شيء أكثر بعداً منه من عالمنا، أنظر ما إذا كنت ستجد كتاباً ثورياً أكثر منه. إن ما يقوله أولئك الذين يؤمنون به لا ينم عن أنهم يؤمنون به على نحو جاد وصحيح، ذلك أنهم يعتبرونه كما لو كان يوطوبيا

ليسوا في حاجة للبحث عنها لأنهم لن يجدونها، ولو استشهدت لهم بالإنجيل كلمة بكلمة لدعوك النصارى مثالياً أعني أبلهاً، والذين لا يؤمنون به ليسوا بقادرين حتى على قراءته جيّداً، أنهم مغرورون للغاية من أن ينتبهوا للثورة التي يريدون والتي منذ ألفي سنة. إنك لا تستطيع أن تقرأ الإنجيل وتأخذه بشكل جاد دون أن تكون ثورياً).

- (الثورة والإنجيل لا يلتقيان معاً يا سيّد كارلو؟ الإنجيل يقرّ السلام والثورة عنف). قال الشرطي ذلك وبدا مصدوماً وبالكاد لم يجد الرغبة في أن يطلب من الآخر أن يغيّر الموضوع وكان (كارلو مانيو) أن رفع حاجبيه ونظر إليه بتمعّن ثم أدار رأسه إلى زاوية الحجرة حيث صليبه ذي العود المتدلي، واحد من أفقر الأنواع التي ما تزال تشتري.

- (المسيح لم يكن مؤذياً، وما كان عنيفاً). قال له: (أجل لم يكن كذلك وقد مات بالخنجر لأنه استعمل الخنجر لكن أي خنجر؟ الحقيقة أيها الصديق، الحقيقة صعبة التحمل والحنونة، المتعجرفة واللطيفة، التي تبحث عن السلام وتعلن الحرب. عنف الحقيقة، تلك هي. الكلمة التي تنبثق مباشرة، مباشرة من الأعماق وتدمدم في المخ إلى أن تحرّكه، تجعل له مبرراً وتستفزه وتحرّضه. ذلك عنف لمن لا يريد أن يلتقيه. عقب ألفي سنة وكما لو أنه البارحة ما يزال كلامه المحرّض يقسّم العالم ويدعوه لأن يتحد ويتضامن. لاحظ قليلاً بأن أولئك الذين يعلنون لك دولة يصرون على أنهم يريدون ما يريده هو، حتى أولئك الذين يبحثون عن أسس لبناء دولة ملحدة يكرّرون بأن مثاليتهم هي العدالة والحق، نحن أيضاً نتمنى أن نكون نصارى بقدر ما نفهم

بأننا صرنا نصارى لتونا، ولم نكن نصارى. وبقدر ما أولئك الذين يمقتون الإنجيل ويتقاتلون. لكن لماذا يتقاتلون إذا ما كانوا وبمعنى آخر يعلنون ـ على الأقل ـ بأنهم لا يريدون في هذا العالم سوى ما أعلنه المسيح منذ ألفي سنة؟ أنه يريد الحق والحق الراديكالي أن ينبت في القلب ويصل ويتأكد بعظمة الحقيقة ولطفها والتي هي في الوقت ذاته تظل حقيقة مسوّية، وهم أي الشيوعيون الملحدون يظنون بأنهم يستطيعون أن يأتوا بالحق من الخارج دون أن يمسوا القلب بالقوة وبالقانون، طريقان بعيدتان عن بعضهما البعض متضادتان واللتان ينبغي أن تلتقيا ذات مرة وفي مكان ما).

واحنى (كارلو مانيو) رأسه إلى الأرض وتوقف فجأة، عيناه مفكرتان وجبينه مقطب: (مرعبة هي الحقيقة مرعبة، مرعبة، مرعب من يطلب ومرعب من يدعو لأنه بذر وزرع هذه المشعلة كلها، على الأقل إذا ما كانت ولتوها تشتعل وتتقد بين أيدي خبيثة... هو قال الأشياء السويّة كلها، وسوف ترى، اليوم أو غداً، ترى أن كل شيء سينتهي على نحو طيب). وتذكر الشرطي ولكم تذكر أنه رأى أناساً غير مخطئين يعتقلون ويضربون بأيدي من لهم القوة والتسلط، كما أنه رأى بكاءً من غير ما سبب في المحاكم، وتنهداً ما حرك قلب أحد ما ومحبوسين يائسين يعترفون ويقرّون بأشياء لم يرتكبونها من بين قضبان الزنازن، ولكم رأى أناساً يقبّلون الصليب ويحلفون حانثين وآخرين رأى يبتعدون وينحرفون عنه ويشهدون بأنهم يمسونه، ورأى ولكم رأى، رأى رؤساءه وهم يلعبون بالكلام ويمضغون القانون، يقبّلون اليد التي لا يريدون أن يقبّلوا كي يبنوا الوظيفة حجرة فوق أخرى و.. بنوها، طابقاً فوق آخر. (هؤلاء أناس السلطة). كان

يعيد لنفسه: يبدون أقوياء من الخارج لكنهم ضعفاء من الداخل، يخدشون ويدمون ركبهم وهم يتقدمون خطوة إلى الأمام طائعين، طائعين، طائعين).

- (بماذا تفكّر؟ بماذا أنت تفكّر؟).

سأله (كارلو مانيو) وقد رآه منهمكاً في هذيانه الصامت، كما لو أنه خائفاً ومتبكماً: (أنا مثلك، أعتمد على أحد آخر لأَحصل على ما آكله، وهذا الكلام بإمكانه أن يعرفّني، لكني جاهز في الوقت ذاته لأَتخاصم وأتقاتل مع أي أحد إضافة إلى نفسي، يحاولون إغلاق فمي، وما أن أجد الفرصة حتى أفتحه على وسعه، يحاولون أن يفقدوني عقلي، لكني لا أملك غير العقل، وإذا ما سرقوه مني فماذا يتبقّى لي؟ عقلي هو عقلي، ملكي، ولن يتدخّلوا فيه قط).

- (تعجبني طريقتك في الكلام).

قال له الشرطي.

- (إذا ما أعجبتك فإني آمل.أن تتفق معي أيضاً).

قاطعة (كارلو مانيو) في الكلمة.

- (اتفق) تمتم الآخر: (اتفق).

- (تتفق، لكنك تبدو خائفاً، معي تتكلم كيفا يروق لك وكيفما تريد، ومثلما قلت لك الآن، وعن كل ما تقول أنت أنا مستعد أن أتكلم أكثر وأكثر، ولكي أطمئنك فأقول لك بأن ليس ثمة خطراً يدفعك إلى الخلف ما دمت تنطق بكل ما تحسّه، إني أعمل مثلك...).

- (أين تعمل؟) سأله الشرطي.

ضحك (كارلو مانيو) وقد راقت له الضحكة كما لو أنها ضحكة تحدٍ فرحة: (أنا أعمل؟ حتى الآن موقوف عن العمل موقوف منذ فترة طويلة ولا أعرف متى سأعود إلى العمل، متورط في معركة طويلة لم أضق ذرعاً بها بعد..).

تطلّع إليه الشرطي متراجعاً إلى الخلف، وأخذ يسأله تحت وطأة فضول جاف سؤالاً تلو آخر، ووضع (كارلو مانيو) له حداً للقصة بأسرها وبدت وكما لو أنها خرافة يعتقد بها والتي تأكدت منذ أمد طويل في مكان ما بعيداً، بعيداً حيث عمّروا وشاخوا السّحرة القدامى جداً وضحاياهم الطريّة. ولم يرغب الشرطي إلا يؤمن فحسب بل أنه لم يفهم على الأقل إجابة هذا الرجل المختلفة والذي أمضى معه وقتاً قصيراً وأثار فيه انطباعاً بأنه شاب ذكي، مخلص، ومرتبك التفكير.

- (لست منزعجاً)، قال كارلو: (وأود أن أعلن لك بسعادة على مدى ما أحس به من طمأنينة رغم أني مطرود من العمل لقد عشنا حتى الآن، أنا والكلب، وسوف نعيش أيضاً فيما بعد، هم ينفقون الليرات وفقاً لأهوائهم ونزواتهم ونحن نعدّ الدراهم لاحتياجات كل يوم، لكن الشمس تشرق على الجميع، والقمر كذلك. وإذا كان ثمة من وجد نفسه فوقي أو أعلى منّي أو فكر في ذلك ويفعل ما يريده بي فثمة أيضاً آخرين فوقه وأعلى منه، هو أيضاً رئيس لتوه موقوف ومبعد عن العمل، معلق من رأسه بخيط، خيط الطاعة العمياء. أنه ما أن يبدأ في تعلم الكلمة: (لا) حتى ينفزع، يصدم، يفقد التوازن، أن الخيط ينقطع له هو أيضاً، ينقطع ويقع إلى أسفل، معنا. إن أولئك الذين يأمرون لا يعدون عن كونهم أكثر الناس ضعفاً. لأن السلطة هي في

حد ذاتها مرض).

وتمنى الشرطي أن يفصح عن ما بداخله هو أيضاً لكن شجاعته تناقصت، وهز رأسه مرة، مرتين ليثبت له بأنه على اتفاق معه، نهض واقفاً، شكره، وأخذ يمشي باتجاه الباب الخارجي.

- (هل لديك أصحاباً وأحباباً، أعني بإمكانهم أن يساعدونك؟) تطلع إلى (كارلو مانيو) ليرى سحنته، انتظر قليلاً وحين لم يقل الآخر شيئاً أضاف: (دون أصحاب وأحباب ِليس بإمكانك أن تخطو خطوة إلى الأمام).

- (الأصحاب، الأصحاب، أمتلك فكرة أخرى عن الأصحاب - الأصحاب لا يساعدونك من خلف وفي الخفاء بل هم الأصحاب العاديين. لا، لا، إذن فينبغي عليّ أن أقول لك بأني لا أمتلك ولا أتمنى أن يكون لدي حتى أصحاباً من هذا النوع).

- (وثمة شيئاً آخراً: إذا ما انتبهوا إلى أنك لست معهم فأنهم يعاملونك عندئذٍ كواحد ضدهم. هكذا نحن، أما معنا أو ضدنا. شيء ليس معقولاً، لكن لتذهب وتغيّر من وضع العالم؟ هكذا كنا، وهكذا نحن، وهكذا سنظل).

- (بإمكانهم أن يفكروا بما يريدون، إذ يشتبهون في أني ضدهم فأنهم يفكّرون تفكيراً طيباً، وإذ يفكرون بأني معهم فأنهم يفكرون تفكيراً طيباً، وإذ يفكرون بأني معهم فأنهم يفكرون تفكيراً طيباً أيضاً. إن ما يفكرون به يخصهم وما أفكر به يخصني لوحدي. أنا معهم حين اتفق معهم وضدهم حين لا أتفق. أأتبدّل؟ أدور؟ الوقت كله، من ثانية لأخرى - أعني معهم أو ضدهم يتوقف على: على نوعية الشيء على الكيفيّة وعلى:

متى. . . وفي أي شيء. . .).

وظل الشرطي مبهوتاً. لقد أثّرت فيه المفاهيم والأفكار لكنه ما كان مصدقاً إن امرأ استطاع أن يعيش هكذا وعلى مدى زمن طويل، وهو لذلك استطاع أن يتذكر ومن خلال تجربته ذاتها أنه كيف كان عليه أن يظهر بأنه يميل إلى جانب أو آخر، فإذا كان ثمة حمراً اليوم فليعش الأحمر وإذا كان ثمة زرقاً فليعش الأزرق، هكذا يتناسب مع الأسرة. وكان في مرات أن سأل نفسه كيف أن رؤساءه يجدون من السهولة بمكان أن ينحمروا في زمن الحمر ويزرقّوا في زمن الزرق ومن غير ما يبدلون الكرسي، على الأقل كي يتمكنوا في النهاية من الجلوس على كرسي أفضل.

- (هكذا أفكر بها أيّها الصديق، هكذا أفكر بالمسألة وإذا كان ثمة من لا يفكر بها هكذا فإن ذلك لا يهم. ليس صحيحاً أن صوت الناس هو صوت الله). كسر (كارلو مانيو) الصمت القصير ذلك أنه كان متحرّقاً أن يرى الآخر وقد تقدم خطوة واحدة على الأقل من وضعيته الصعبة التي وجد نفسه بها:

- (إذا كان ثمة حمراً فليعيش الأحمر وإذا كان ثمة زرقاً فليعيش الأزرق. . . ولتعذرني، لأنه هكذا يقول قدّيسي أعني هكذا وهكذا أرى. . .).

- (لا أظن وأنت تتصرف هكذا إلا من أجل أن تقوّى من السلطة، في زمن الحمر الأحمر هو السلطة وفي زمن الزرق الأزرق هو السلطة، فماذا ترى، ولذلك فإن من يأمر يتذكر أنه عليه وبالضرورة أن يطع من أعطاه الإِذن، بأن يأمر باسمه، كيف، كم ولأي شيء يريده هو - أن الجماهير سواء أكانت

حمراء أو زرقاء أو صفراء أو خضراء هي الجماهير ذاتها، الجماهير القوية ذات الإرادة التي تحكم نفسها بنفسها، المهم أن تحكم في البدء ولصالح الصغير ومن هو في الأسفل. فكيف هي الوضعية الآن؟ أن الجزيرة محتلة بالأحزاب، الجزيرة هي جزيرتهم).

وحيّا الاثنان بعضهما البعض، وخرج الشرطي لأنه تنبّه إلى أن الآخر ما كان ليجد صعوبة في أن يتكلم إضافة إلى أن الوقت قد انقضى. وكان وهو في طريقه إلى المخفر قد تملكته رغبة في أن يصيح وأن يصرخ، أن يصفّر وأن يصوّت: (بوووو) ازدراء واستهجانا boo[46] وأن يعيب ويزفّت كل من له علاقة بأي نوع من التسلط وتمنى في الوقت ذاته أن ينتزع البيرية ويقطعها ويعطها لصبيان الميدان كي يصنعوا منها كرة خيش، ولكم تمنى أيضاً لو انتزع سترة وبنطال البذلة النظاميّة ويعطهما لزوجته فتمزقهما وتقطعهما قطعة بقطعة وتستعملهما لحك وتنظيف البيت، وودّ لو كانت لديه الرغبة في أن يقطّع النطاق بعد أن ينتزعه من وسطه ويستغله مقوداً للكلب ـ الكلب: (ليذهبوا متطوفين من ناحية إلى أخرى متمايلين مترنحين أولئك الذين يريدون أن يصعدوا فوق رأسي لأن من أنجبهم ليس أعلى ولا أفضل مني، يظنون وهم يصرخون أنهم سيخيفونني أو حين يترفّعون عليّ سيدفعونني إلى احترامهم وتقديرهم. مساكين).

صرخ الشرطي من قلبه وهو ماشياً في الشارع، فرحاً فرحاً لإحساسه بأنه بدا هو الآخر ينطق ويلهج بهذا الكلام وبخفة لا مثيل

---

(46) boo كأصوات المتفرجين بالملاعب الرياضية.

لها، وكان أن أعاد الكلام أكثر وأكثر لأنه أخذ يخرج من تلقاء نفسه وبأكثر قوة من قبل في حين أحس بنفسه يكبر:

- (أنتم تتظاهرون بمظهر أناس جادّة وأنا أسخر وأضحك منكم، تأمرونني وأنا أتحداكم، تريدون أن ـ تضغطوا عليّ وأنا أضحك وأضحك).

وما أن دخل المخفر حتى وجد الرقيب يرى إليه بتمعّن:

- (كم أمضيت من الوقت؟).

سأله الرقيب بأمر وكان يقلّب صفحات السجل القديم بيده اليسرى والصفحات جميعها مبرومة في الطرف وبالأخرى ينقّر قلم رصاص متآكل فوق وجه المائدة:

- (كم، كم أمضيت من الوقت؟).

قال له مجدّداً دون أن يرفع رأسه من فوق الأوراق.

- (استغرقت وقتاً طويلاً في البحث عنه، لم يكن ببيته وسألت عنه الجيران وكان عليّ أن أنتظره ليعود).

- (إذا لم تجده مرة أخرى فأحضر إلى هنا). قال له الرقيب: (تحضر ونبعث له ملاحظة. ليأتي إذا ما أراد إلى المخفر، هو يأتي، مرة أخرى لا تنس).

- (حسناً أيّها الرقيب، مرة أخرى).

- (إنسان كهذا لا يريد التعامل بلطف، ومرة أخرى لن يتوقع معاملة لطف، أتمنى أن يكون ممتناً بعملنا وأتمنى أن تكون كلمته بما يوده ويروق له).

- (بلى، بلى أيّها الرقيب، قلت له أشياء كثيرة، ويبدو أنه تعلّم

الدرس). تابع الشرطي، وكان نقاشه الطويل مع (كارلو مانيو) قد بدأ واضحاً وجليّاً ويدوي يسيراً في عقله.

- (سأسجل له ملاحظة هذا الرجل لأنه وفي مرة أخرى سينتهي إلى ما لا يحمد عقباه، مرة أخرى، مرة أخرى).

واصل الرقيب محدثاً صوته طنيناً أو أزيزاً تلاشى بعدئذٍ في لا شيء.

- (مرة أخرى).

كرّر الشرطي خلفه.

* * *

9

* حوالي منتصف النهار استحالت الجزيرة بركة واحدة إذ تبدّلت الأحوال الجويّة، وتعاظم المطر على طول الليل بكامله ولم تظهر الشمس قط من خلف السحب القاتمة، وكان الناس أن رفعوا رؤوسهم باحثين عنها غير أنها لم تهتم بذلك، ولقد دعوا الله أن ينعم عليهم بجو صافٍ ومعتدل فنزل المطر وتمنّوا نسمة لطيفة ومؤاتية فقدمت الرياح العاتية والهوجاء التي فعلت كل ما بوسعها لتقتلع وتجتث الأعمدة من الأرض، ولما كانت الأشجار قد استردّت أرواحها ونعمت بالخضرة فقد تضايق الناس وانزعجوا منتظرين من الشمس أن تحفظ كلمتها وتفي بعهدها إذ ليس احتراماً لها فاحتراماً للسواح الذين يخرجون متجولين في كل مكا ن متكشفين كل زاوية، مائات ومائات والشوارع متدفقة كما لو أنها برك مسرعة جارفة منعها كل شيء، السيارات أخذت تسيرْ بصعوبة، أحياناً تتوقف خائفة وأحياناً أخرى تمضي خطوات إلى الأمام وبحذر، ودوّي وقصف الرعد أيضاً ودعا الناس فزعين: يا قديسة بربارة لا حّمى ولا خسارة[47] وما أن بلغت

(47) مجاراة لاعتقاد اليونانيين فيما يدعونه بإله الرعد.

الساعة الثانية عشرة والنصف حتى تجلّت السماء وأضاءت وبدأ المطر آخذاً في التقطير حتى توقف في حين شرعت أضواء المصابيح شيئاً فشيئاً تبين وتتكاثف ودبّت الحياة في الأشياء وعاد السائقون فزادوا من السرعة وطويت المظلات لتكشف من تحتها عن الوجوه الفرحة الضاحكة.

- (جو مؤاتي ومعتدل إلى الأبد).

قال الجميع.

- (أتمناه وفي مرة واحدة وإلى الأبد معتدلاً وصافياً ومؤاتياً).

تمتم (كارلو مانيو) لوحده ما أن تطلّع من النافذة ورأى الجو عاصفاً ومتغيراً: (لكن الجو الرديء سيقفل عائداً إذ بدونه لا نقدر على العيش. لا شيء هنا يحدث قط، الجو المعتدل ولد من حولنا فقط ولا يتربّى في داخلنا ولولا ذلك لما قدم الجو العاصف والرديء، وإذا كنا لم نخترعه نحن فما الذي نفعله في الأجواء الصافية والمعتدلة؟ أن نثير حرباً في العالم ليس شيئاً جيداً ومقبولاً، بلداً آخراً نحتله لا نريد وكما لو إننا قوة عظمى، فوقنا نحن أنفسنا). ثم ذهب إلى الداخل تاركاً النافذة نصف مفتوحة واستدار إلى (تشربرو): (رديء، رديء، جو رديء أيها الصديق، رديء بالنسبة لهم، لكن إذا ما صار رديئاً من الخارج وليس من الداخل فتكون تلك أجواء رديئة وخياليّة وزائفة. تعبر الأجواء الرديئة من الداخل حين تعبر وفي الداخل ليس غير الأجواء الرديئة، أجواء موبوءة ورديئة فقط.). ذلك النهار وفي الخامسة بعد الظهر على وجه التقريب كان للحزبين تجمعين كبيرين، وكانا قد أمضيا أسابيعاً وهما يعلنان عن ذلك في صحفهما، وبالملصقات وبالخربشة على الأرض وبالأوراق في الشوارع، والشباب المفعم بالحيوية أكثر من غيرهم

والذين خرجوا متجولين مبوقين بسياراتهم صارخين مغنّين في مكبّرات الصوت التي تثير وتحرّك وتخرج كل أحد من بيته: (هيّا، هيّا إلى الاجتماع ودعونا نريهم بأننا أكبر حزب وأنهم لا يستطيعون معنا فعل أيما شيء، هيّا، هيّا، هيـ. . . . . ياو) انطلق الصوت من داخل السيارة، وهكذا وما أن يتوقف حتى يسارع صاحبه فيضع الإبرة على الفونغراف الآلي: الحاكي وتعقب الأسطوانة بعد ذلك الأخرى. شيء مثير للدهشة والغرابة. ينفجر الغناء ويتردّد صداه في كافة الأنحاء:

- (لا تفعلوا شيئاً لحزبنا، لا شيء تقدرون على فعله، لا شيء، لا شيء). لحن يعرفه الجميع حتى أولئك الذين لا يتقبّلونه، لحن يطيّر العقل ويمس القلب ويثير ويسيّل الدموع الساخنة وأشياء أخرى كثيرة. وفي تلك الأثناء كان المتكلم يغرق يده في صندوق كبير مملؤ بالأوراق ـ المطبوعة ثم يرمي بقبضة منها من نافذة السيّارة. لقد كان واضحاً قانون النظافة لكن لا وجود لفكرتها. أحزاب أحزاب تعود وفي كل مرة أحزاب في هذه الجزيرة وكل شيء كان أخزاباً، الأحزاب هي البلد، وإذا ما أردت فعل أيّ شيء للأحزاب فإن ذلك يفسّر بأنك تنوي أن تكون ضدهم وأن تفعل شيئاً آخر غير الأحزاب. وإذا ما ألغيت الحزب فماذا يتبقّى غير السحاب المرتفع حيث تطير العصافير التي لا تكترث لشيء، وغير البحر حيث الأسماك التي تفكيرها دائماً في الأعماق؟ أن المواطنين ليسوا مخلوقات طائرة ولا حتى مخلوقات تعيش وتعمر تحت الماء. لقد كتب المشي على المخلوقات التي فوق الأرض ولكي تمشي إذن فهي في حاجة إلى السياسة.

- (إنك لتسمعني يا تشربرو؟ وفي هذه الجزيرة هكذا تكون الثورة،

هه، هكذا، الناس يخرجون صارخين في سيّاراتهم المزيّنة أو بالدعايات الانتخابية أو بالثورة، هه، وإذا كانت هذه دعايات انتخابية إذن فهم في هذه الجزيرة يقيمون وفي كل أسبوع انتخابات، لكن ماذا تظن من الممكن أنهم يقومون لتوهم بثورة). وضحك (كارلو مانيو): (الثورة لا تكون هكذا). تمتم لوحده:

- (الثورة تقوم بها الجماهير، وليس الرئيس، الجماهير تقوم بها ضد الرؤساء والزعماء، وليس لمصلحة الزعماء أو الرؤساء. أن المتمردين يفعلون العكس إذ أنهم يخيفون الرؤساء والزعماء ولا يخافونهم، يتحدّونهم ولا يطيعونهم، ولا ريب في أن من يركع على ركبتيه لا يقوم بأية ثورة، والثورة لا تقوم بين حزبين اثنين يدّعيان بأنهما لصالح الشغيلة بل بين طبقتين اجتماعيتين متضادتين. إن القتال بين الأخوة ليس ثورة بل تراجيديا أو ملهاة مأسويّة ومفجعة، لعبة شطرنج في عالم الزعماء والرؤساء). صخب واندفع بكامل طوله على كرسي طويل ذي ذراعين وودّ لو أنه ذهب في نوم عميق، مريح وهانىء ويحلم حلماً جميلاً ذا لون مختلف عن حلم الشوارع المزعج: (إنك لترى يا تشربرو كيف أنه في هذه الجزيرة ما تبدّل شيء قط؟ الرؤوساء كانوا دائماً أغنياء ومترفين دائماً وبأسماء مختلفة. من البدء كان هكذا وهكذا ما يزال وهكذا يريدون أن يبقى. ولكن. . . قائمة ومنتصرة ومتأكدة لتكن إرادة الجماهير، آمين).

عندها سمع صوت آخر يصرخ من سيّارة كادت أن تقف تحت نافذة (كارلو مانيو):

- (الجماهير معنا، نحن الجماهير).
- (وكم هي الجماهير هنا؟). تساءل (كارلو) الذي عاد فتنبّه قبل

أن يأخذه النعاس: (تغلق النافذة، تسدّ أذنيك، تقفل المذياع والجهاز المرئي ولا فرق، لأنك ستسمع وترى وتبلع وتكون قد عرفت فيما تحاول أن تبصق كل شيء باشمئزاز. . . . الهضم الذي لا يبتلع قط. الجماهير الجماهير، يهيّىء لهم أن الأحزاب وقادة الأحزاب والرؤساء هم الجماهير؟ إن الجماهير تسر حين ترى إلى الرؤساء وهم يكبرون، وحين يكبرون يخيّل إليهم بأنهم هم يكبرون لتوهم أيضاً لأن الصغير يعجب بالكبير دون أن يحاول أن يكبر مثله أو أكثر منه. حين يصير الكاثوليك نصارى وحين يصير النصارى اشتراكيين، والاشتراكيون اشتراكيين عندئذٍ كل شيء ينقلب رأساً على عقب ويعلن الحق، إننا وفي وقتنا الحالي نسر ونبهج أنفسنا بهذه المسرحية الهزليّة وننتظر بصبر إلى آخر فصولها. إن عهد فرسان القديس المنتشر والمتمطط لا عهد لنا به الآن رغم مجيء الحكام وحضرات السمو والسيادة، لكن ظلالهم ما تزال تطوف وتجوس الأروقة والزوايا والأركان وكل مكان في (البروج) حيث يعمر الخلفاء. فمتى، متى سينقضي زمانكم يا: L. Isle Adam و D. Homedes و La Vallette و La Cassier و Verdalle و Wignacourt و Lascaris و Perellos Cotoner و Zondadari و Vilhena و Von Hompesch[48] ماذا فعلت بنا يا Ferdinand[49] إذا ما سمحت

(48) نمساوي F. Von Hompesch: آخر من قفل ملف الفرسان لنابليون بونابرت الذي أقام بمالطا من 13 إلى 19 يونيو 1798 م.

(49) من مجموعة الفرسان الـ 28 بمالطا (1798 ـ 1530 م) سيطروا على جزيرة رودس في 1309 م واسترجعها العثمانيون في 1522 م. في الأصل أعضاء منظمة دينية عسكرية أنشئت في القرن 12 م وتعرف بالإسبتارية في بيت المقدس.

لي أن أدعوك هكذا وقد ملأتنا بأطفال أطفال أطفالك؟).

وبدأ (تشربرو) منزعجاً من سماعه لهذا الكلام كله لأنه ما كا ن له من شيء في صميم قلبه يدفعه لأن يقف ضد أولئك الناس الكبار جميعهم. لقد نبح نباحاً خفيفاً وارتمى بين رجلي صاحبه متطلعاً إليه منتظراً منه أن يقرّر.

- (ماذا سنفعل؟ أسنبقى هنا نتطلع إلى بعض؟).

أراد أن يلومه. في الرابعة والنصف تقريباً أخذت الشوارع الرئيسية تغص بصفوف صغيرة من السيارات مطلقة منبهاتها نصفهم كانوا من الحزب الأحمر والنصف الآخر من الحزب الأزرق، البعض ذاهبون إلى ناحية وآخرون يقودون إلى ناحية أخرى، وبرغم أنهم كانوا ذاهبين في اتجاهين متضادين وأن هذا لهذا الحزب وذاك للآخر فسلوكها كان واحداً، يتفقان على ألا يتفقان في شيء، كل منهما يلوّح بأعلامه وبألوانه، ويغنيان بالإجماع على إيقاع أغانيهم ويدوسون المنبهات لوقت طويل ويلوحون من النوافذ بأوراق وملصقات تحمل وجوه قادة الأحزاب:

- (من يدري إذا ما تفاهم قادة الحزبين فيما بينهم واتفقوا على تكوين حزب واحد للجميع؟). سأل (كارلو مانيو) فيما أطل من النافذة ورأى المجموعتين عابرتين: (ومن يدري إذا ما انطفأ الحماس كله؟ إذا لم تكن ثمة فروقاً ثقافية وإيماناً وفرق لسان فهل مصلحة أو فائدة الناس في حزب واحد بإمكانها أن تقنعني وتتأكد فيّ؟ وإذا كانوا وهم يغنّون لتوهم ضد أعدائهم أكثر من أن يلتفتوا إلى مصالحهم فما الذي يمكن أن يفعلونه إذا ما اتفق قادة الحزبين على أن يتحدوا؟). وأخذ يضحك من التفكير رغم

أنه أعجبه وتمناه: (لكن هذا ليس بالإمكان، هذا لا يحدث، إذ لو حدث إذن لما كان هنا ثمة ما يمكن عمله). ثم توقف بعد ذلك مفكراً: (.... لكن في الوقت ذاته يكون قد تبقّى مكاناً للحزبين الاثنين، اللذين صارا الآن ضد بعضهما البعض، المستغلون والمستغلين، لكن المستغلين والمستغلون متواجدين في الحزبين. إذن فالمستغلون يقاتلون ضد مستغلي الحزب الآخر، أنهم لا ينتبهون إلى أن المستغل لا يمتلك حزباً ضده، بل مستغلاً؟ ألا يدركون بأن المستغل في مسابقة في الوقت ذاته مع نوعه. أولاً يدركون بأن المستغل الأحمر ليس مضاداً لكل مستغل يقاتل وأن المستغل الأزرق ليس مضاداً لكل لمستغل أزرق أيضاً يقاتل؟ أن أولئك الذين يتعذبون هم المستغلون دائماً الذين ليسوا لاعتقادهم بأن المستغلين متحدين ضدهم على الصعيد المالي فحسب بل لاعتقادهم بأن المستغلين متحدين ومتضامنين ضدهم على صعيد الأحزاب أيضاً). وانبثق في عقل (كارلو مانيو) التفكير في حزب ثالث والذي رأى كم أنه ضروري، وهكذا رأى أيضاً أن ليس ثمة أُمّاً هنا بإمكانها أن تلده، لأنها فيما لو ولدته سيقتلونه لها، أحزاب المستغلين الحمر أو الزرق ضد المستغلين حمراً أو زرقاً، حزب الضحايا ضد الباغين، حزب الحمائم ضد الأفاعي، وإن كان ذات مرة ذو الأفاعي أقوى بكثير من الحمائم، الألوان في أيديهم أيضاً (فكر): حين صلب المسيح لم تكن الضحية مستغلاً فحسب بل مستغلاً أيضاً، مستغلون دون أن ينتبهوا إلى المستغلين منهم هم أنفسهم. إن السر يكمن في تبديل الألوان لكن نوعيّة ضد أخرى، الطيبون ضد الخبثاء، حزب يرحب بك داخله دون أن يعمّدك

ويصفيّك، ولا يهمه أن تكون غير نظيف وتختلط بالنظيفين الذين يفتحون لك أيديهم مرحبين. المهم أن تكون معهم وضد الآخرين.

واصل (كارلو مانيو) مفكراً وحزن وتنكّد لوحده. لقد رأى وسمع ولاحظ وبكى أيضاً ولوحدة بكاءً مريراً وصامتاً: (إذن فوجود فرق الأغلبية في أحضان الحزبين الاثنين مثلما هما الآن لا يعدو عن كونه مجرد وسائل أو أدوات قوية ومتمكنة كي يكون كل شيء كما هو عليه، المستغلون يظلون مستغلين، والمستغلين يظلون مستغلين، فرحين ومبتهجين للغاية إذا ما حزبهم ظفر بالسلطة وفرحين قليلاً إذا ما كان حزبهم ما يزال في انتظار أن يخطفها. إن المستغلين يتنقلون من الأسوأ إلى الأسوأ وأحياناً من أسوأ الأسوأ إلى القليل من الأسوأ، والمستغلون والمستغلون يتنقلون في الوقت ذاته من الطيب إلى الأكثر طيبة).

وما أن انقضى الوقت حتى خلت الشوارع ونقصت الأصوات وشمل هدوء نادر جداً كل مكان، الأبواب مقفلة، حركة السير تلاشت، وأنذرت عزلة جديدة ساعات أمن وسلام. وكان فيما بعد وفي ميداني الجزيرة الواسعين والمتباعدين عن بعض أن احتشد الحزبان الاثنان بكامل عائلاتهم كي يستمعوا إلى قادتهم، أعلام وصفّارات وصراخ ومنبهات وحشود، فرح وغضب، خليط كبير كبير مجموعة ومجتمعة ومنتقاة بأوامر وباتحاد يقسّمان الأرض الصغيرة إلى اثنين ومن النصف تقريباً مثل سكين في خبز طازج ينقسم حين يقرّر الحدّ الذي يقص وينزل بيسر إلى أسفل. الصمت يعم كل مكان عدا الميدانين الاثنين، والإزعاج والحماس مجتمعين في رقعتين اثنتين لا غير، وكانت تلك الساعة التي مكنت اللصوص من الخروج لوحدهم كي

يسرقوا، والساعة ذاتها التي دفعت المواطنين من غير ذي العضوية لأن يبكوا.

- (لنذهب) قال (كارلو مانيو) لتشربرو الذي كاد أن ينفذ صبره.
وانطلق الاثنان إلى الشارع وداعبهما إحساس بالفرح والبهجة ذلك أن الأماكن كلها ظلت تخصهما، وأن الجزيرة الآن وقعت بين أيديهم.

- (بإمكاننا اليوم أن نصرخ ولا يسكتوننا، لأن الشرطة كلها منهمكة في تنفيذ الأوامر والاهتمام براحة أولاد هذه الأرض الحلوة، وبإمكاننا أيضاً أن نخربش على الجدران ولا يقبضون علينا لأن الدورية ومجموعات الأمن يعسون للجماهير وعلى الجماهير، وأنا وأنت الآن لسنا شيئاً من الجماهير. لا تتخيّل بأنك خارج عن نطاق الأرض أو جوّها يا تشربرو، أطأ، ولتطأ بكامل الحريّة فوق الأرض وأجر إلى حيث تريد لأن هذه ساعة الكرامة، موعد مع التاريخ، التمشّي والتجول الطبيعي).
وأحس (كارلو مانيو) بأنه الإنسان الأول الذي مدّ رجله في جزيرة قديمة لا يعرف اسمها، كما لو أنه خرج بصعوبة من البحر ومن فوق مركب ودخل إلى الجزيرة ليرى ويكتشف ويحكم. كانت الأرض ممتدة بلا حدود منتظرة أن تعبرها الرجلان وتردمها. مشى وتذكّر، تطلّع وفكّر وتفكّر أزمنة أضاعت عهودها، ما قبل التاريخ والتاريخ المبكر صارا زمناً واحداً وجميلاً حين كان مشرقاً ومبهجاً كل شيء لأنه كان وبالضرورة أن يخلق شيء من لا شيء، وحيث الاحتياجات والأحياء ما كانت قليلة. وفي مزيج قوي ومتكاثف من الأفكار والتفكير المختزنة داخله مثل إنسان قديم ولد في القدم تخفّى

(كارلو مانيو) بخياله الجامح في Ghar Dalam[50]، عاش هانئاً في Skorba[50] دعا متحرقاً في Imnajdra[50] وفي Hagar Qim[50] سافر وترحّل بعيداً في Ggantija[50] وفخوراً مزهواً في Hal Saflieni[50]. فرح بأدوات الصوّان والعظام واستفاد بقرون البهائم. ولقد تكلمت الرياح العاصفة والقوية هناك وسمع الكلمة هابطة منبرمة من السماء، ووصلت الشمس مبهرة مجهرة مبتعدة ومقتربة فيما أحس جلده يسخن ورآه ينسمر دون أن ـ توجعه ـ وقد ألفها. هناك ارتدى وانتزع، تقذّر واتسخ وعاد فنفض وتنظف، صادق وتصادق مع أولئك الذين عمّروا في Tal - Qadi[50] وTa'Cenc[50] وتكلم مثلهم دون أن يتلعثم وبنى الأكواخ الصغيرة من الحجر الذي رأى من حوله ومن الطفل الذي وطأه ومن أغصان الأشجار الضخمة التي قطعها، خدم الفخار ووصل إلى أن شاد وبنى منه أمزجة من يعرف كيف يخلق صوراً وأشكالاً مختلفة ومتباينة. قذف بالمقلاع ليطرد البهائم، وفي مرات ذهب ليصطاد أو يرعى النعاج أو يحفر الحجر.

- (حتّى روحاً لا تظهر في الشوارع). قال: (جميعاً اجتمعوا وتراصوا في ميدانين اثنين).

من أين أتيت؟ سأل هو نفسه وودّ لو سمع الإجابة الواضحة والصريحة منبثقة من مكان ما في داخله: ربما قد ولدت أمي في الأناضول أو أن أبي تنسّل في اليونان، ربما قدما من الشرق، من مصر أو من صقليّة كيف كانا وجهاهما؟ والآن وقد جاءا من حيث جاءا ووطأ الأرض وأعجبتهما وأحبّاها وصارا أهل الجزيرة وقويت

(50) أسماء لأماكن ومواقع بمالطا معظمها عربي كغار الظلام وحجر حكيم والمنيظرة.

أجسامهم بلحم بهائم الأنحاء وأخذ الأطفال يولدون من المحبة المتربيّة فوق هذه الأرض كي يتكاثر النسل. من أين أتيت؟ وأين أكون؟ الأسئلة التي كان أهل الجزيرة وعقب تلك الأزمنة بكاملها يسألونها وما يزالون يسألون. مفتخرين بالقدم وممتزجة فيه، القدم الذي يملأ العقل بالثقة ويثقله بخوف المفارقة التاريخيّة، الشيخوخة التي تهب الخبرة وتدفع بمن بلغ من الكبر عتياً إلى أن ينتبذ ركن المنسيين... فأين أين بداية ونهاية كبة الغزل هذه المتشابكة؟.

- (اليوم، أين هم ذهبوا، حتى روحاً لا تبدو في الشوارع، الجميع في الاجتماعات). هذي لوحده. في طريقه عثر على النحاس، سوّاه وعدله وصنع منه عدداً، وفرح به وركع على ركبتيه ورفع رأسه ثم خفضها وعاد فاستوى قائماً مزهواً وانطلق في سيره. فرح با لبرونز واثنى بالشكر من صميم قلبه للآلهة المتخبّئة التي تطل شيئاً فشيئاً من بين السحب وتتكلم أحياناً بالرعد الذي يقصف والبرق يلمع ويبهر ويفزع، أو بالمطر الذي يصل هائماً وشارداً من الأعلى ليشرّبَ ويغرق ويتمكن في مسامات القاع كي تتثلم ذات مرة وفي صمت رأس النبتة الصغيرة التي تمكّن من العيش، لأنه من النبتة يشرب الإنسان ومعه أصدقاؤه وضحاياه الحيوانات. وحين أكل وشرب ورقد عاد فتنبّه ليوقف الحجر ويسقفه وليبني الشوارع الأولى. حفر القنوات في وجه الأرض الطيبة واستطاع أن يحمل معه ثروته كلها.

- (لا روح في الشارع، الجميع وجدوا أماكنهم في الاجتماعات) أعاد لنفسه وهو ماشياً. لقد لمح هذا كله فوق الإسفلت اليابس الذي ترطّبه الشمس فقط حين تشتد حرارتها وكان أن بارك

الفنيقيين والقرطاجنيين والرومان والإغريق ودعا لـ (بعل آمون) Baal Hammun[51] و (ملقارت) Melqart[52] فيما أحس بالفرج يغمر كامل كوامن روحه وفرح فخوراً بذاته: (أنا مالطي، أنا مالطي). صرخ لوحده دون أن يسمعه أحد ما: (دمي عريق متحدّر من نسل هذه التجربة والحنكة بعيدة الأمد، وفي اليوم الذي ولدت فيه، أنا طفل زمن العقل الالكتروني والرّبوط Rabot[53] أخذت اتطلع في المرآة لأعرف كيف وفي ذات مرة بدأ رحيلي الطويل هذا، أليس ثمة مكاناً حيث بدأ كل شيء، ألم يولد أحد ما في ذات مرة وتنسّل جنسي وكبر وما هي هذه الجزيرة، هذه البلاطة التي أجرّها معي؟).

كانت ثمة أوقاتاً تمنى فيها لو أنه عاش في زمن العصر الحجري القديم مثل فرس النهر والأيل والغزلان والفيل وبنى بيته فيSkorba[54] وصلى ودعا في Imnajdra[54] وفي Hagar Qim[54] تمنى أن يعود لصنعة النحاس كأهالي zebbug[54] وأهالي Imgarr[54] أو لحرفة البرونز مع أهاليه أصحاب Borg in Nadur[54] أو L-Bahrija[54] أن أرومته امتدت إلى زمن الحديد، ومن الفنيقيين إلى العرب وحتى زمن الحضارة l-Assedju[55] والفرنسيين والانجليز

(51) بعل آمون: إله ميثيولوجي في قرطاجنة منح رمز (وجه بعل) تزعم الأساطير أنه رفيق الآلهة تانيت Tanit رغم أنها لم تظهر بقرطاجنة قبل القرن الخامس قبل الميلاد، ويروى أنها كانت تعبد بمالطا وسردينيا وإسبانيا.

(52) إله فينيقي لصور واثنين من مستعمراتها (قرطاجنة وغادير).

(53) الربوط: الإنسان الآلي.

(54) أسماء لأماكن عربية. (منيظرة، برج الناظور، البحرية).

(55) الحصار الكبير: حصار الأتراك لمالطا (1565 م).

ومن بعدهم بعدهم. . . من قدم بعدهم؟ الآن كان ينبغي عليه أن يطأ حافياً فوق الرمل الذي بجانب البحر وفوق تربة الحقول ويهرب قدر مستطاعه من الإسفلت الذي يوجع ويلوّث، أنه لم يمشي إلى الآن في أي مكان عدا الشوارع في الشوارع السوداء حيث تعبر السيارات وبالحق كله وكما لو أن الشوارع فتحت لها.

- (أتتذكر يا هابيل حين حلمنا بتكوين حزب واحد، الثالث؟).

قال وكان قد أراد أن ينقطع عن هذه الحشود المتجمّعة أمامه في ناحيتين اثنتين أن عادت قصة التضامن القديمة فأطلت أمامه وما حاول نسيانها (كما لو كانت بالأمس القريب حين قلت لي بأن ينبغي علينا فعل شيء ما أو ننقطع عن كل شيء أو أننا نبدأ من جديد. القديم، القديم لا بدّ من أن ينسى ونبدأ من حيث ينبغي أن يبدأ: من البداية. إن الحزبين الاثنين كبعضهما البعض، لا فرق بينهما لأنهما يتبدلان في الذنوب والأخطاء، يعيشان فصول الأسى والندم والمرارة حين لا يستطيعان أن يخطئا ويذنبا وحين لا يرغبان في أن يخطئا ثم يعودان فيما بعد ليذنبان حين تصل ساعتهما، ساعة السلطة. إن كل شيء طار يا هابيل، طار مع الريح وليس عليك الآن إلا أن تنسى كل شيء وكما لو أن شيئاً ما حدث وكما لو أنك وقعت مع نفسك عقداً على ألا تحل ولا تربط أكثر في الكلمة، الكلمة، كنت قد قلت لي، ماذا تساوي الكلمة؟ الكلمة بها شيء من الريح ولتذهب، إذهب وعش من غير الريح. إن الكلمة ليست هي الكلمة، الكلمة روحنا وروحنا الكلمة[56]، وإذا كانت ليست كذلك فهي - على الأقل - النافذة المفتوحة التي تهوّي روحنا نتطلع، نتكلم

(56) عن كتاب للمؤلف: الروح في الكلمة (دراسة نقدية إبداعية).

ونتكلم ونهبط داخل أرواحنا. فلماذا، لماذا نرمي بالكلمة وليس لنا سواها؟ أن السياسي لا يعدو وبأي حال عن كونه متكلماً لا يمتلك سوى مخزن للكلام المنمّق والمنسّق والمستخرج من المخزن في الوقت المناسب ومبيوع جيداً. . أبله، أبله. كنت قد قلت لي، ألا تذكر؟ واليوم وقد انقضى زمن وانفتح الكتاب على مداه فأنا (كارلو مانيو) افرح ببلاهتي لأنها لا تغرر بي ولأنها بئر أمنيات عميقة في حاجة إلى أن تتأكد وتتعمّق، ولأنك أنت أيضاً تودها الأمنيات وليس بمقدورك تذكر صيغة سحريّة من شأنها أن تبدّلها وتحيلها إلى حقيقة. الأمنية يا هابيل هي لتوها الحقيقة لأنه ليس لدينا غيرها وكذلك الحلم، فلتحلم أيها الصديق، إحلم ولا تخف من أن تحلم). كانت أزمنة أخرى، وكان الاثنان مقطوعين عن السياسة حيث ظل بوسعهما أن يريا العالم صغيراً ومتباعداً مثل قنفذ متكوّر فوق راحة يد واحدة مفتوحة ولديهما القدرة على أن يتطلعا إليه من النافذة المعلقة المرتكنة ونصف المفتوحة ويلمحان كل شيء واضحاً وصغيراً، وثمة في الأسفل كما لو كان عالماً من النمل ـ وهما أيضاً كانا من النمل ـ وبالنسبة للنمل كل ذو تساوٍ عاد، إذ كل ما يمكن عمله أن تدخل الصف الطوعي، أن تأخذ مكانك أن تكون نملة وتحل كل معضلة لأنك لا تفكر، لا تتمنى، لا تأمل، ولا حتى أن تؤمن أكثر. هكذا تكون الكذبة. ولذلك بدا كما لو أنه شيء مسر ومفرح أن تخجل هذه الأرض من Vassalli[57] وأن تحط وتنال من سمعة Xerri[58]

(57) ڤاسلي: من أوائل مقعدي ومثبتي اللغة المالطية والمدافعين عنها.

(58) شيري: قديس كاثوليكي من قادة Congiura: أي المؤامرة وهو شعار رفع في وجه نابليون. قتل في الميدان برصاصة في الرأس.

وتوسّخ Dimech[59] . . . طويلة كانت المجازات والمسارات المملوءة بالنقاش عن آتٍ مختلف ينبغي أن يقوم على أنقاض الحاضر المشين).

- (الآتي بأيديا يا كارلو مانيو، لدينا شباباً، وإننا لنراها في حاجة إلى الشباب هذه الجزيرة مثل العالم الخارجي والآن سوف ترى، قل خيراً وانتظر أن يبعد هذا الجيل) كان (هابيل) قد قال مجدّداً.

- (إن جنس الآدميين سلسلة واحدة طويلة يا هابيل، كل حلقة موصولة بالتي قبلها، ولكي تقطع السلسلة القديمة تحتاج إلى ضربة أو خبطة عنيفة ولكي تقرضها وتنهيها تحتاج إلى النار. إن المثالية توثّق الحلم والإِجرائية والممارستيّة هي كلمة قذرة تمتد بها وتنجبد السلسلة القديمة لتصل إلى اليوم. إن إنسان الطبقة المتوسطة يا هابيل هو المسند أو الدعامة التي يستريح فوقها التمثال).

- (غيّر من الكلام يا كارلو مانيو، قل أي شي آخر، قل ما الذي تكتبه في الوقت الحاضر، ودعك من هذا الكلام).

كان (كارلو مانيو) يطيع، وكان الكلام يجيء عادة حول أشياء أخرى:

- (هذه هي الطريقة كيف يكون كل شيء كما هو عليه، نكون عمليين متدبّرين، نحافظ ونواصل العرق والتقليد).

كان (كارلو) يتذمّر ثم توقفُ كل شيء عند هذا الحدّ.

انصرف زمن وكل شيء سلك المسلك الطبيعي للممارستيّة.

---

(59) من أوائل مؤسسي الحزب العمالي المالطي، حرض الانجليز الكنيسة عليه فطُرد وتوفي في مصر.

وكان وهو سائراً في الشوارع الصامتة والخالية بعد منتصف نهار ذلك اليوم أن لوح بيديه الاثنين وبإلحاح أمام وجهه كأنه يطرد لتوه ذبابة مزعجة ويسعى هو أيضاً لأن ينسى ويفكر في أشياء أخرى. لربما كان رأياً صائباً.

- (ألا يعجبك يا تشربرو هذا المجاز؟). سأل صاحبه: هذا مجاز آخر خاص وعملي أيضاً. قليلاً وسنصل، وسيلفيا بانتظارنا مع فنجان القهوة الساخن وابتسامات كثيرة ونظر جميل، سوف ترى).

قرع باب سليفيا مرتين، نزلت وفتحت له في الحال فرحة وكادت أن تطير من الفرح لرؤيته،قبّلته فوق جبينه وطلبت إليه أن يدخل فيما ارتقى (تشربرو) لتوه الدرج واستلقى مستريحاً على كرسي طويل ذي ذراعين.

- (لم تذهب إلى الاجتماع؟). سألته.

- (أي واحد؟ في مثل هذا اليوم ينبغي أن تختار، ثمة اثنين).

وأجابها بنبر ساخرة.

- (أي واحد تريدين؟ هذه جزيرة حرّة، هكذا مكتوباً هنا) وارتمت سيليفيا هي أيضاً على الكرسي الطويل ذي الذراعين وتثنّت وتكسّلت من غير ما إرادة:(لا أعرف لماذا لا يروق لي شيئاً في هذه الجزيرة ومنذ وقت طويل). قالت: (لا شيء ـ وكأني لا أعيش هنا، هذا هو بلدي لأني ولدت فيه وأحس فضلاً عن ذلك بأني مفصولة عنه مثل وردة في زهريّة، حيّة لوقت قصير ومقطوعة من غصنها وعروقها كلها ـ في الماء. هكذا أكون، وأشعر أني على ما يرام. . .).

- (وما دام لديك الماء). مزح (كارلو-مانيو).

- (إن الماء لم ينقص إلى الآن، وأنت القليل من ذلك الماء الذي يبقى على حية، لكن لتدعنا من هذا، أنت أيضاً لم تذهب لأي اجتماع اليوم).

- (إن السياسة لا تروق لي).

قاطعها.

- (لا تروق لك.... منذ متى لا تتكلم في غير السياسة).

قالت موبخة.

- (مثلك. إلى أقصى حدّ).

- (لقد ارتكبت خطأ، خطأً كبيراً، فأنا لم أذهب لأني لست راغبة أو لا أحب ذلك، أما ألا تذهب أنت فلا أعرف لماذا).

- (لم أذهب لأني مللت من رؤية نصفين اثنين يتقاتلان في حين يستطيعان معاً أن يوقّعا حاجة واحدة وصحيحة، أما أنت لم تذهبين لأنه ومن خلال كلامك ذاته لا شيء يعجبك أكثر ولا حتى الشيء الصحيح. ثمة فرقاً بين لا تحيّزك ولا تحيزي، بين لا مبالاتك ولا مبالاتي).

أجابها وبدا مقتنعاً بكلامه.

وتوقفت سيليفيا مفكرة، نظرت إليه بلطف وتابعت:

- (الحق معك، ربما معك...).

- (ومعك أيضاً، رغم أنك تقفين على نقيض مع كل ما أقوله. الحق معك لأنك لا تريدين أن تعرفين أكثر، والحق معي أيضاً لأني لا أريد أن أعرف، لكني لم أستطع فهم هذه الخلبطة كلها.

ثمة من هو بارد وغير مكترث ـ مثلك ـ وثمة من موّجع ومخدوع ـ مثلي ـ أنهما أي الحزبين الاثنين في مجاز لا يقود إلى أي واحد من الميدانين الكبيرين حيث تجمّع الناس كلهم هناك).

ـ (صحيحاً ما قلته لك بأن تفكيرك في السياسة).

قالت لتجد مبرراً لما قالت له قبل قليل، وأضافت:

ـ (أنا لست الذي لا يروق لي ولا يعجبني شيئاً، وسأطلب إليك في الواقع أن تغير دفة الحديث. إن هذه جزيرة صغيرة، لكن هذه الحجرة كبيرة وواسعة بما فيه الكفاية كي لا تصل الجزيرة إلى هنا، والآن أطلب لتوي منك أن تقلب الموضوع، . . . سوف لن أدع البلد ليدخل في التفاصيل: كيف أعيش وكيف أفكر إني لست بين المستغلين واللامبالين، أو في وسط أولئك الذين علوا وارتفعوا كثيراً ويرون إلى الأسفل ويقولون ما لا يرون وما لا يحسون ولا حتى وسط أولئك الذين لا يحق لهم أن يروا ولا يحسون شيئاً. أني أتواجد في الأسفل، مثلك، مثل الطبقات المتوسطة كلها، لكن لا يدخل خيمتي إلا من يريدني فقط، وإليها يدخل الريح الذي أفتح له، هل فهمت؟). لا تؤاخذني بالمزاح). وتمكنت ابتسامتها منه وأحبها في الخفاء كما كان يفعل عادة. كان يعرف سيليفيا من سنوات عدة، وكان الحب في ما بينهما قد سقي، نمي وترعرع وكبر لكنهما لم يتزوجا بعد. ولطالما دفعهما حديث من هذا النوع إلى الإسراع إلى قلب الصفحة ثم شرعا يبحثان عادة عن إقناع نفسيهما بأن ليس ثمة من سبب لتعقيد العلاقة في ما بينهما لأنه إذا ما كان الحب هو الحب فإن الارتباط الرسمي ليس بمقدوره أن يزيد أو ينقصّ من شيء. كانا في دخائل نفسيهما يحيطان بتجارب

أصدقاء آخرين لهما متزوجين ومحاطين بالأطفال ويبدون متلهفين في الوقت ذاته إلى أشياء أخرى، أشياء عدة يعرفانها عن زيجات متعبة وغير مستقرة، أو على الأقل منفصلة وغير سويّة وظلت كما هي عليه أو ازدادت نزولاً عند رغبة المحيط أو البيئة أكثر مما تكون بالنسبة لها. كان لدى (كارلو مانيو) شكوكه الخاصة وما كان بمستطاعة أن يعرفها أو يدرك كنهها.

- (ألديك لفافة تبغ؟).

سألها وقد رفع وجهه من حيث كان في قاع الكرسي الطويل ذي الذراعين وأدام النظر إليها:

- (لفافة، لم أعهدك تدخن...).

قالت. وقاطعها بلطف:

- (أبإمكاني أن أدخن؟).

- (بلى، لكن من الأفضل أن تقرّر ما إذا كنت ستدخن أم لا).

- (قررت) قال لها: (والآن بالذات، أرغب التدخين ساعة أخرى وأكون قد أقلعت عنه، لتطمئن، أدخن متى أريد وأقلع متى أريد، والآن أريد).

- (عصبي؟). سألته ثم فتحت صندوق فضي موضوع بذوق على منضدة صغيرة وناولته واحدة، ثم اردفت:

- (أما تزال موقوفاً عن العمل؟ متى سيبعثون في طلبك؟) لوح لها (كارلو مانيو) بإشارة من رأسه وكانت جافة ليفسر لها بأنه ما يزال موقوفاً عن العمل، وكان أن تلبّس سحنته شيء من الضيق والتفكير: (الآن وقد انقضى عليّ وقت طويل خارج العمل فلا أريد أن أقول بأني منزعج للغاية، بل رابط الجأس،

وهادىء إلى أبعد حد، ولن يتمكّن الانفعال مني أكثر مما ينبغي عليه أن يفعل، وأن عقلي ليقول لي بأن الدنيا لم تقع بعد وإذا ما صادف وأن وقعت فلن أكون الذي أوقعها ولا حتى يهمني أو يضيرني ذلك).

- (لكنها تكون قد وقعت فوقك).

أضافت متنهدة وقد اقتربت منه فوق ذراع الكرسي.

- (فوقي؟) سأل مدهوشاً فيما أشعل اللفافة: (فوقهم تقصدين، هم أوقفوني عن العمل وهم المخطئون ولست أنا، إن كل ما فعلت هو أني تغيّبت ولمرة واحدة عن العمل، دائماً كنت أذهب، ولم يحدث أن أعانوني قط وحين تغيّبت مرة اغتنموا الفرصة المناسبة. هم، هم أكثر ضعفاً مما يبدون، يأمرون من الخارج ويطيعون من الداخل. من يأمر ليس سعيداً يا سيليفيا لأنه سوف لن يجد نفسه لوحده فحسب بل لن يثق أيضاً بأحد. ثمة أحداً آخر فوقه يأمره أن يطيع. إن أمر من يأمر هو عمل طاعة، إني لأتعذب بعض الشيء لأني خالي الوفاض لكنني لم أمت بعد بالجوع وأشعر بأني حر أكثر من قبل، أقوم من النوم متى أريد أنفق اليوم كما يعجبني ويروق لي، حين تشرق الشمس أحييها وكذلك حين تغرب، هم يحيّون من يأمرهم كي يأمرون، وشمسهم تنطفي وتبرد مباشرة وفي الحال. وإذا لم يبدون ضروب الطاعة فأنهم يوقفون مثلي عن العمل، يطيعون من فوقهم ويأمرون من تحتهم، دورانيّة D. Durella[60] دورة دوّارة حلقيّة. . .).

---

(60) Dawra Durella: رقصة حلقية للأطفال مثل الانجليزية: Orange and lemons.

- (أتظن بأنهم أوقفوك عن العمل بسبب تغيّبك مرة واحدة؟).

سألته بنبرة قاسية متضمنة الإِجابة: (لا . . . .) وكانت أن جرّت ومططت الكلمة باستغراب وبحساسية.

- (لا، لا، من المؤكد لا).

توقف مفكراً ثم قال لها بعد ذلك:

- (لست واحداً منهم وإذا لم أكن معهم فضدهم، إلى هذا الحد يؤدي بهم تفكيرهم، فهل تريدينني أن أشجبهم؟ سوف لن أوفق، أصدقيني، حتى لو قمت لهم بأعمال النهب واللصوصية. يرسمون ويزوّقون العالم بقلم الرصاص المتآكل والمتدلّي بين شفاههم، يريدون إدخال كل أحد في صناديق عقولهم الضيقة، ومن لا يدخل يعتبرونه عدوا، يمقتونه، دعني أقول لك شيئاً). وتوقف متطلعاً إليها): حين يفكر مجتمع بأن ليس ثمة ما تبقى له أن يفعله أعني لم يعد لديه مشاريع كبيرة، وأفكار هامة يمكن التفكير فيها ولا مثاليات يبحث عنها فعندئذٍ تصير السلطة هواية، مثل مضيّغة، علكة والتي تلوكها أو تمضغها الوقت كله، وحين يحدث في المجتمع أن يكون أولئك المعتبرون وحدهم هم الذين يلصقون صورهم على الجدران طائفين من باب إلى باب طالبين.السلطة جامعين من حولهم حشداً صغيراً من الناس فإن ذلك المجتمع يكون قد تحوّل من جديد إلى مجتمع بدائي حيث طبقتين اثنتين فقط: أولئك الذين يرفعون رؤوسهم وأولئك الذين يخفضونها، الملاك والخدم، والآن هم هنا جميعاً خدم، لكن الخدم يخلقون الملاك، وما أن يخلق الملاك حتى يسعى الخدم هم أيضاً إلى الحصول على

أسهمهم من السلطة التي منحوها لتوهم إلى الملاك. إن كل أحد يتعلق ويتمسّك بجبل ويفكر بأنه سيتمكن من حفره وتفتيشه: جبل السلطة، لكن أولئك الملاك لا يستطيعون عمل كل شيء على النحو الذي ينبغي أن يكون لأن الخدم أيضاً يأمرونهم من تحت والخدم الحقيقيون يكونون أولئك الذين لم يحصلوا على أسهمهم من أجل أن يخلق السيد المالك. إن السلطة ما تلبث أن تتلاشى أمام من يقيمها ويؤسسها، إذن فحتى الصمت واللاتحيّز واللامبالاة والتجاهل تصير جميعها خطايا كبيرة وتلك هي خطاياي الفخور بها ولا أعترف بها).

سحبت (سيليفيا) إذ ذاك نفساً طويلاً إلى الداخل وخفضت رأسها إلى الأرض.

- (من سيغيّر هذه الجزيرة ومتى؟).

لم يقل (كارلو) شيئاً، وانتظرت تعليقاً منه.

- (إني لمعجبة بك، جداً معجبة، لكن يؤسفني، بأن أقول لك أنك لن تغيّرها).

- (أعرف، أعرف).

قال وتبسّم ثم تطلع إليها بوجه كما لو كان فرحاً: (أعرف، أعرف، أعرف). ثم ظل-بعد ذلك مردداً الكلمة سريعة:

- (لكن مسألة الرفض أو الاستنكار مثلما ترين تحس وتستفز وتحرّض وتقرص أولئك الذين يفكرون بأنهم قادة الحاضر والذين يقنعون أنفسهم بأنهم معدوا ومنسقوا المستقبل. في جزيرة صغيرة أناس من هذا النوع يظنون بأنهم يمثلون نسبة الأغلبية،

لا يفهمون المفارقة التاريخية Anakronizmu[61] من هنا إلى الشط، لكن لا تنسين بأن الرفض أو الاستنكار يقطّع في اللحم الحي، ومن هو غيور على عزلته وفخور بها هو أيضاً محرّض أو استفزازي، بإمكانهم أن يوقفوك عن العمل أعني هكذا يوقفونك لأنك لم تفعلين شيئاً ذلك أن من لا يفعل شيئاً يكون لتوه قد فعل في نفسه ذاتها وذلك لا يفسّر بأن الحق لا يمكن أن يتأكد وأن اللاعدالة لا تحتاج إلى إصلاح من القاعدة بل يفسّر فقط أن اللص لا ينبغي أن يقبض عليه من لص آخر...).

وظلت (سيليفيا) تنصت إليه بشوق واهتمام بالغين وتذكرت أنها لم تقف عند كلمتها حين طلبت إليه وبأمر تقريباً ألا يتكلم في السياسة، وحيث أن (كارلو مانيو) قد عاد ليؤكدها كالعادة فإنها قد تركته ليتابع وتمنت أن يتكلم أكثر وأكثر. لكم كانت تعمل جاهدة من أجل أن تظل بمنأى عن حياة الأحزاب، وكانت وما استطاعت ـ وهي تستمع إلى الإزعاج من خلف الباب أن تحلف بأنها لم تتقوّت أو تبل ريقها بشيء ما إذا أنها نذرت صوماً بالكلية لكل ما يمكن أن يحمّي ويفوح تحت أنفها وفي المشاوير الطويلة التي كانت تمشيها أحياناً لوحدها وأحياناً أخرى صحبة (كارلو مانيو) في أماكن الرفقة البعيدة حيث بإمكان الكلاب أن تجري هنا وهنالك وتنبح وتسمع وحيث عربة الحصان استطاعت أن تكسب الرهان وتشد الانتباه. هناك كان يغمرها فرح بالغ لأنه قد تبقّت على الأقل زوايا لم يظفر بها الغزاة.

مخطئة كانت، وكان النرجس الهانىء والمنعّم ينمو ويبيضّ من

---

(61) Anachronism شيء يوضع أو يحدث في غير زمانه الصحيح.

بين شقوق البلاط وأن رائحته لتمتلك القدرة على أن تستفز حتى المخ الأكثر برودة، موج على موج يتماوج ويتهافي بيسر وهويني في وجه نسمة. لكنها مخطئة، وعلى مقربة من هنا كان ثمة خربشة الأحزاب، أية كلمة خطأ مكتوبة ومفهومة جيداً: يعيش حزبنا.

- (لا نعرف العيش، لم نتعلّم بعد كيف نعيش معاً، ربما لأننا تبوّأنا مكاننا في العالم وصدمنا. . ربما لم يكن بمقدورنا أو أن الفرصة لم تسنح لنا لنخطو هذه الخطوة، من يدري، من يدري، لا أنوي أن أتكلم هكذا. . . بلد ذو تاريخ قديم، جزيرة شائخة ولا تعرف رأسها من رجليها، ليست طفلة هذه الجزيرة بل شيخة وشيخوختها ملفوفة في العسر واليسر، في الاستغلال وفي التاريخ، وليس لديها ما هو أقل ما لدى أحد آخر لكننا لم نتعلم بعد كيف نعيش معاً). غمغمت (سيليفيا) فيما عاد تفكيرها من فضاء وامتداد وانفساح الحقول المغرقة بالنرجس إلى انغلاق الحجرة، وكارلو المفكر أمامها.

- (لا نعرف، لكن هذا لا يعني بأن ليس ثمة صراعاً ينبغي أن يحدث). قاطع في الحال (الحق ينبغي أن يسود لأن الطبقات ما تزال تتقاتل وتتناحر مع بعضها البعض، وكل أحد يريد أن يرتقي المستوى المتوسط حيث ينزّل الأكثر ارتفاعاً ويرفعا الأكثر هبوطاً. أن النصراني أيضاً سياسي ومع ذلك تقضي السياسة حاجته كي يبدل من كل شيء وكل أحد في كنيسة واحدة تدنو من الأبديّة. هذا هو الذي لم نعه ونفهمه بعد: الصراع من أجل الحق، وقبليّة الأحزاب لا يتفقان معاً. في الأحزاب الملاك يحكمون والخدم يطيعون، لكن الحق لا بدّ من أن يحق ويسود يا سيليفيا، لكن ليس بشجار الشغيلة في ما بينها).

- (لم انتصر عليك، لا، لا، لم أنتصر عليك يا سيليفيا).

قال ثم نهض من قاع الكرسي ذي الذراعين وعانق صاحبته وكان وقد أحس دفء جسدها أن أدرك كم هي قويّة، الحياة راسخة بجمالها على الأقل لوقت واحد وقصير حين لا تكون مشكلة من الفروق. قبّلها وأحس بأنفاسها الحرّي تكسو وجهه فيما خفض رأسه وهمس في أذنها:

- (لم أنتصر عليك لأن الفكر لا ينتصر مطلقاً على الجمال... ثم إننا لا نتكلم عن الأحزاب بل عن القيم).
- (أعرف، أعرف).

قالت بلطف في حين تدلت خصلة من شعرها على وجهها وسارع هو فردها إلى مكانها: (حين تصير الأحزاب هدفاً تعصفر، تذوب وتتلاشى، وأن الأحزاب لا تعدو عن كونها مجرد آلات، حالة استثنائية ومؤقتة بالقياس للقيم، وفي أرض نصرانية ينبغي أن تنبت القيم من الداخل ولا تقرأ في القوانين أو في الملصقات والإعلانات. إن الأحزاب تمتطي... من الملاك).

- (من الملاك). رددت معه: (من الملاك).
- (حضرات السادة وغير حضرات السادة، أولئك هم الملاك).

قال لها تاركاً صوته ليندفن في خديها الملتصقين بوجهه: (حضرات السعادة يا سيليفيا).

أثارها ضاحكاً فضحكت هي أيضاً.

- (لا تسخر من حضرات السعادة لأنك ستكون مذنباً لمخالفة الامتياز). أجابته. وأطال (كارلو مانيو) النظر في وجهها وعاد فرأى أنها جميلة وكانت هي أن فطنت وتبسّمت مبتهجة فخورة ومزهوة بعض الشيء، لأنها لم ترى ثمة عنفاً في عينيه، هكذا

الفتة منذ زمن طويل: شاب دائم التفكير ومهموم مترع بالمثاليات وضعيف، متحرّق ومخذول ومتخلي عنه. كان الكلام يدور مثل موجة خفيفة أثر أخرى في محيط صاخب، وكانت هي تستمتع مستمعة إليه وتتسلى وتفكر، ولكم ودّ هو لو كان بمكنته أن يكون أكثر بساطة وأكثر سعادة، وكانت أن سألته غالباً ما إذا كان سعيداً:

- (لست كذلك، لست كذلك، لماذا لا أمتلك القدرة لأنتصر على نفسي وأمضي الحياة دون أن أفكر في شيء البتة. لست أنا الذي كون الحياة وفصّلها ولست الذي سيغيرها). أعاد لها من جديد بطريقة انقباضيّة تعودتها عنه مثلما هي تلك الرشة العطرة والفوّاحة التي ألف أن يدعك بها خديه:

- (أعرف بأنك لست سعيداً، أعرف).

قالت متنهّدة وضمته إليها.

- (من أين آتٍ هذا النكد كله يا سيليفيا؟ أمن وضعية الأمس السياسيّة أم اليوم؟ أو من إحساس وشعور الحياة ذاتها الذي تربّى معي؟ هل أنت فرحة).

سألها: (يا حضرة سيليفيا، الجميلة سيليفيا، هل أنت فرحة؟ هذا هو امتيازك...).

أعلن لها بصوت واثق والذي كان يستعمله لأوقات قصيرة.

- (أنا... سعيدة؟).

سألته بنبرة إجابة في الوقت الذي توقفت فيه شيئاً فشيئاً عن العناق ورغبت أن تضحك ضحكاً خفيفاً، كانت أن ـ تذكرت سيليفيا كيف أنه يمتلك القدرة على الشروع في البكاء حتى عندما يلمح ورقة ذابلة، وكان يرتعب كل يوم ولأول مرة كما لو أنه قاطن أرض جديدة

ما نسي مطلقاً منذ وصوله ليله وهبوط ظلامه الكثيف أجداده الذين لحق بهم أحياء في السني الأخيرة من شيخوختهم، ورآهم على حالهم ذي قبل في حفرة العائلة العميقة حيث ثمة مساحة مخصصة أيضاً لعائلته وله هو نفسه، لقد فاجأته أكثر من مرة متطلعاً متمعناً في الأشجار المنتصبة هادئة في الأيام ذات الأجواء الصافية والمعتدلة، المتحركة في أيام النسائم والمتلويّة في أيام الأجواء العاصفة والمتشابكة، أبصرته متأملاً الدودة الزاحفة، معجباً بالنمل مواظباً على تخزين ثروته، ويفرح حين يرى أسراب أبي الحناء Red breast[62] وقد قفلت عائدة لتغزو كل مكان وتدنو من الناس الجاهزة والمتربّصة لاقتناصها آملاً ألا يوفّق أي قفص صغير Gabjetta[63] إلى اقتناصها.

- (معي وُلد نكدي يا سيليفيا، والسياسة لا تفعل شيئاً غير أن تمنحه تفسيراً ثانوياً ما يلبث أن ينتهي مثل كل فصل مريض لا يعدو عن كونه مرض السنة بكاملها، لا شأن لنا يا سيليفيا بصراع أولئك الذين في الأعالي فنحن لسنا بالسادة وحضرات السادة وأصحاب المعالي والفخامة ذلك أننا لم نتيبّس ونشيخ بعد. إن شرفنا لمختلف ولا أحد يعرف به).

أوضح لها ما بين هانيء ومغموم: (نحن نمشي الهويني كي لا نمزق أو نسحق دودة من حقها أن تعيش مثلنا وهم يمضون ببرد وزرهم الضخم والمخيف فيردمون كل أحد وكل شيء يا سيليفيا، أننا بلهاء لأننا لم نتعظم ونتآكل بعد، نحن نفرح بالبنس وهم يتضاحكون من الليرات التي لا تكفي، نحن نبكي لموت عصفور

(62) Red breast: أبو الحناء: طائر صغير أحمر الصدر.
(63) Gabjetta: قفص صغير يضع الصيادون به طائراً صداحاً لإغراء بقية الطيور ودفعها للطيران إلى الشبكة.

يتقاذفه وابل من مطر وهم لا يتأثرون حتى من الزوابع والأعاصير. لسنا من جنسهم نحن يا سيليفيا). إن تواضعه كان ممتلئاً غطرسة وعجرفة عليهم هم، هم الذين أخذوا الكوكب بين أيديهم، وأظهرت له سيليفيا بأنها فهمته واتفقت معه وعادت فقبّلته ثم ساد بعد ذلك صمت في الغرفة فيما تشابكت الأيدي على ضوء المصباح الخافت واندفعا على ذات الكرسي ذي الذراعين ووضعت هي الإِبرة على أسطوانتها المفضلة وأغرقت الموسيقى كل مكان في حين ظل هو ساهماً هامداً ملقياً برأسه على ظهر الكرسي ومرّرت يدها مع وجهه وأراحت رأسها فوق صدره.

- (حين تكونين قد فكرت في كل ما استطعت أن تفكرين).

قال لها: (وحين تبلغين من العمر عتياً وترمين بكل ما جمعت وادخرت فلا يتبقى عندئذٍ يا سيليفيا غير الحب، الحب والموسيقى والشعر. ليس غير شيء واحد: الحب).

- (أحبّك ولتكن مطمئناً، أحبّك).

همست في أذنه وأطال هو متأملاً النظر في عينيها.

10

* الإجازة ما عادت إجازة والسهم أصاب المرآة، ووفق من كان هدفه أن يدفع بكارلو مانيو لأن يتضور جوعاً، بل ولقد حقق نجاحاً تلو آخر حين فكر في إبعاده عن العمل فترة طويلة من شأنه أن يجعله عائشاً على الخبز المر ويرغمه على التثاؤب من حين إلى آخر. في مكان ما من خلف الحقول حيث يخرج عادة متسلياً مع أقرانه وبمنأى عن الغرفة حيث تحادثا هو وسيليفيا بابتسام مشرق وشيء من الأسى والحزن والعشق المفرط، هناك كان الإنسان الموفق الذي نفث أو أطلق كلمة ورآها تقوى وتتأكد وتتحقق. إن الإيقاف عن العمل وصل مرصوصاً على ورقة مكتوبة بشكل لطيف ومهذب لطيف بالختم والتوقيع والمضمون. إن حضرة رودومونت يعرف كيف يسدّد ويصيب الهدف وإذا ما أصاب فإنه لا ينتزع السهم المدمي من حيث ارتشق وتمكّن. كان يتمتع بغطرسة وعجرفة وأمزجة متقلبة جعلته شعبياً، وكان الناس من البسطاء وذوي القلوب الأكثر طيبة وغير القادرين على المواجهة والذين يخافون من ظلالهم يرتبكون ويدخلون في جلودهم ما أن يجدوا إنساناً متهوراً متغطرساً وعربيداً، قادراً على

أن يرفع من صوته ويرعّد الدنيا، وهكذا ومثلما كانوا يتعاملون مع التماثيل انتهوا إلى التعامل معه: يرفعونه وهو يرتفع. صار غنياً في زمن قصير ورمي بالعدسات التي يبدو الناس من خلالها صغاراً وكان يمتلك طريقة كلام تعايشية وتآلفية بحيث يبدو من خلالها الحق والحب والعدالة وكما لو أنها الأطفال الطبيعيين الذين يجوسون معه دائماً ويدورون إضافة إلى قناع يتناسب معه جيداً فلا هو بالمحلول أكثر مما ينبغي ولا حتى مربوطاً بأحكام، قناعاً كامل المقاس، أما عيناه فتتلصصان هنا وهنالك دون توقف، عينان يكلان من القراءة غير المفيدة والدراسة عديمة الجدوى، وأذنان اثنتان يسمعان ويسمّعان ومن كلمة مسموعة ومهموسة يكوّنان فقرة ومن الفقرة يكوّنان كتاباً، وعلى لسانه يتولّد ويتوالد الكلام عن الكلام لكن لا تتفتق عنه أفكار قط، ومع ذلك كله كان يمتلك القدرة على المضي بدونها فيما يقنع الحشد الملتف حوله بأنه لا يمتلك في الواقع سوى أفكار كبيرة وهائلة وجيدة ولا شيء سواها. أما رغبته وهوايته الوحيدة في اللقاءات والاجتماعات هي استغلال قدرته الصوتيّة، يصرخ ويسبرع ويسارع ثم يتوقف بعد ذلك في انتظار التصفيق ويعود فيرفع من الصوت الذي يشرع تدريجياً في الانخفاض حتى يضعف ويكاد أن يقطّع أو تنقطع أنفاسه، ويتطلع من حوله بعينين متلاعبتين، براقتين ويعود بعد ذلك فيتوقف منتظراً، يداه قائمتان بمهمة لا نظير لها: طالعتين نازلتين، نازلتين طالعتين ولديهما القدرة على شد انتباه الناس المتجمعين وتحريكهم ونفضهم من العروق، يدان تثيران الفضول، تثيران الغضب وتدعوانك للتحدي وتثيرانك. إن حضرة رودومونت كان يعرف شيئاً طيباً: إذا لم يقم مسرحاً صغيراً في الساحة فإن الناس يذهبون إلى قاعة القرية منفقين الأوقات الطويلة في مشاهدة

فرصة Il - farsa[64] نهاية الحشد، وإذا لم يربحهم بفرصته فإن أحداً آخر سيربحهم بفرصته المختلفة، فرصة بفرصة، يلعب لعبة حزبه، يفتح القميص، ينفّش شعره، يثني أكمامه ويردها و . . . «المقصود حصل» Gewwa X - xileb[65]: ينخدع الناس ويعجبون ويتقد الخيال الجامح وترتفع دقات القلب، إذن فنجاح حضرته مضمون، من انتخاب إلى انتخاب بمقدوره أن يكسب الأصوات وحيث يدنو ويقترب فكما لو أنه دنا واقترب المولى الجديد، المتنبىء بأزمنة الضوء. من حوله تربى حشد ووقعوا تحت وطأة مثالياته العالية ومن خلفه يجري عدد كبير من الرجال حيث يمر ويذهب ويفتخرون أيضاً وقد استطاعوا أن ينادونه باسمه ويمسون طرف العباءة، فرحين بأن صارت كلمتهم عنه بشارة أو إنجيلاً ومثلما كانت كلمته عنهم مصممين على إعلان حرب على كل من تسوّل له نفسه أن يبصبص بذيله معهم وبينهم، سواء أكان جوّانياً أو برّانياً، وفي أوقات الانتخابات يقرعون باباً تلو آخر، يهمسون في الآذان ويقسّمون صوره مطيّرة ومدفّسة birfus ويكسون بها الجدران فيما يعدون بأن يرقص الماء للظمآن ويرقّصون السماء في الأرض لكل من هو متلهف ومتشوّق لأن يربيّ من حول رأسه هالة القداسة Raggiera[66] إن قاطني النواحي يعرفونهم أصلاً وفصلاً، جنسهم وأرومتهم وحسبهم ونسبهم إلى الدرجة الثالثة من المكانة والمنزلة الاجتماعية ويعرفون بأن لديهم كتاباً مكتوباً بإملاء رديئة مشروحة وموضحة بطريقة لا تقبل الخطأ أو التبديل: ذلك معنا وذلك ضدنا، واحد كاد أن يدور والآخر دار

(64) Farce: مسرحية هزلية ساخرة.

(65) مثل وبمعنى آخر: الحوت داخل الشبكة.

(66) Halo: إشعاع نوراني يطوق الرأس (في صورة قديس).

لتوه وواحد آخر ظل ساخطاً ومتذمراً للغاية وغيره يتقلب من جانب إلى آخر وقبض عليه وهو يتكلم لأحد ما منهم، وثمة أيضاً من يروّض لسانه ويرغي ويزبد منتقداً في المتاجر والأسواق وإذا لم يكن هذا كافياً فإنه ينقطع عندئذٍ مفتشاً عن قائم الجنس العالي: حين كانت تلك العائلة وفي ذلك الزمن ـ في ذاك الجانب ـ والتي بدأت اليوم تلف وتدور وتتبدّل أو تلك العائلة ذات الصلة بنا منذ اندلاق صرتها والتي تستطيع معها أن تحل وتربط لأنها ومثلما ولدت ستموت، باب بباب، اسم باسم، وفي أرشيفهم يدوّن كل شيء وبطريقة من اللطف بمكان ولربما لا مثيل لها، وبشهادة محلوفة ومقسومة بكل شيء. الكنية واللقب والعنوان وكل كلمة أثيرة أو غير ذلك سمعت. وفي تلك المعلمة ليس ثمة أحداً ذا امتياز كبير ليترك في الخارج، بل كل واحد له مكانه حتى من بالنسبة له حاصل جمع ستة في ستة يساوي اثنتي عشرة.

- (ما الذي ترونه في كارلو مانيو؟). أراد أن يعرف:
- (أخبروني، أي حزب من الإنسان هو، معنا أم معهم، أخبروني، أخبروني).

جميعاً التقوا في غرفة واحد منهم، وكانت وجوههم من بين زوابع الدخان الكثيفة وفي قلب زجاجات الجعة المملوء واحدة إلى جانب أخرى على مائدة متوسطة الحجم تنبىء على أن الاستراتيجية لعبة حقيقية بالنسبة لهم ومولودة معهم وتنشأت في مغامرة العوز والهوان، في بلاء ومحنة البطالة، في تحدي البورصة والأحلاف التي بها يصير السنت ليرة والليرة مائة، واحدة فوق الأخرى. الجميع كانت لهم قصة مختلفة جمعتهم في تلك الغرفة السرية التي كان موضوعها دائماً: الجمهور. فمن هو الجمهور؟ كان حيواناً برياً

متوحشاً في حاجة إلى أن ـ يذلّل ويربيّ ثم ينبغي عليه بعد ذلك أن يتعلم كيف يواصل، يفهم بأن بلده ليس ببلده، بل وهو نفسه ليس ملكاً لنفسه ويتعلم أن يسمع، لا يتكلم، يطيع بعد ذلك. إن كل سلوكه كان من خلال معبرين اثنين: أما يثير إعجابهما ويكون مقبولاً أو لا يعجبهما ويكون مشيناً. كانت ثمة منقبة أو مأثرة إذا ما استطاعت الجماهير أن تفعل ما يثير الإِعجاب، بل يصير كل مالها ورداً وزهراً، وكان ثمة خطايا إذا ما فعلت غير ذلك معبرة عن سخطها وغضبها، إذ أنها تضرب الطوب فتجد التراب. إن الاختيار كان غاية في البساطة، والصيغة استطاع الكل أن يتعلمها بالسليقة أو عن ظهر قلب: معنا أم ضدنا؟. إن الجماهير كانت تبدأ من الجوانيين. الزوجة والأطفال ثم الأقرباء والأصدقاء وبعد ذلك الآخرين، في البداية أصدقاء الأصدقاء، والكل، والكل كل شعرة من رؤوسهم معدودة وأي لون لها: أين يذهبون، لماذا هم أصدقاؤهم وكيف يتكلمون وأي صحف يشترون وهل يشاركون في نشاطات الحزب وما مدى صحة ومصداقية براهينهم ونواياهم وكيف أنهم يثبتون بأنهم يقدّرون الشيء حق قدره، أو أن المسألة لا تعدو عن كونها مسألة استخفاف وأسئلة كثيرة أخرى كان لا بدّ من أن يجاب عنها ليعطونها علاماتهم. إن الجاهير كانت كل أحد، حتى أولئك الذين لا يتكلمون إلى أحد والذين لا يمتلكون غير ابتسامة ساخنة لكل من يظهر أمامهم.

ـ (ماذا يرون في (كارلو مانيو)؟).

سألهم حضرة رودومونت في حين سحب سيجاراً ضخماً من جيب القميص وتركه متدلياً بين شفتيه وكان أن أسرع إليه ثلاث رجال بخفة وأعواد الثقاب مشتعلة بين أيديهم ليشعلون سيجارة

وأشار هو بيده اليسرى إشارة إلى اثنين منهم علامة الشكر وحسن الصنيع وثبّت بالأخرى السيجار إلى فمه واقترب من نار الثالث، وما أن لاحت جمرة السيجار وزحفت أفاعي الدخان أمام وجهه وتلّوت حتى تبسم ابتسامة باهتة بعينيه واندفع فوق الكرسي ذي الذراعين وانزلق قليلاً إلى أسفل كما لو أنه كان مجهداً عقب يوم عمل كامل وعاد فقال لهم:

- (أخبروني أيّها الأحباب، أخبروني، من هو (كارلو مانيو) هذا؟).

- (أستطيع أن أقول لك بأنه وفي ذلك اليوم الذي لم يذهب فيه إلى العمل أنفق اليوم بكامله متصيداً وكلبه معه).

بدأ (شمعون) وهو رجل فوق الأربعين يعرف كافة الأماكن وبأمكانه عدّها على أطراف أصابعه. إذ ذاك صمت الجميع لبعض الوقت.

- (ذهب ليصطاد).

سأل حضرته باستغراب: (أمتأكداً مما تقوله؟).

وغمغم وتلكأ الرجال الآخرون ممتلئين إعجاباً بشمعون الذي كان يمتلك ما يمكن أن يقدمه من معلومات، وهم غيورين في الوقت ذاته من أنهم لم يوفقوا إلى الحصول عليها.

- (يصطاد؟).

سألوا جميعاً وفي مرة واحدة.

- (أكيد، أكيد، ولقد رأيته بعيني هذه:.

تابع (شمعون) في الوقت الذي سحب نفساً طويلاً من اللفافة

إلى الداخل وتطلع إلى رفاقه، تبسّم رفاقه عندئذٍ وانتبه حضرته إلى السبب:

- (إذن فأنت أيضاً لم تذهب إلى العمل يا شمعون).

قال وعاد مبتسماً بعينيه من خلف زوابع الدخان. كان ريح شمعون في الشراع، وما كانت ثمة عقبة بإمكانها إخافته:

- (لو لم أكن هناك لما استطعت أن أخبرك عن ما فعله (كارلو مانيو)، كنت هناك، هناك، لكنه لم يرني).

- (وماذا كنت تفعل في تلك الأنحاء يا شمعون؟).

سأله (رودو مونت) بضحكة وغمزة للآخرين فيما انفجروا هم ضاحكين باشتباه يعوزه الفضول. إن امتيازات كهذه لا ريب في أنها تروق لهم وتثير في نفوسهم المتعة والسرور، وهم يعرفون جميعاً بأنهم إذا ما أرادوا أن يجعلوا حضرة (رودومونت) عالماً بكل تحرك يحدث فأنهم في حاجة ماسة إلى الحرية. لقد كان (شمعون) ينفق نصف نهارات كاملة، يعود متى وحين يريد، هانئاً متكوماً في الدويرة Dura[67] ينصب كلما سمع تصفيرة ويستبشر خيراً كلما لمح ريشة محوّمة أو طائرة، فالدويرة كانت من صنع يديه وليس بمقدور أحد الاقتراب منها، لقد بناها حجرة فوق أخرى بين الحقول المهجورة حيث لا تقترب روح من غير ما سبب. كان يجد بهجته ومتعته في مخبأ الجدران والمباني المتهدمة والخربة بعيداً عن صخب وضجيج القرية، في صمت لا مثيل له ولا يكسره غير الصفير البريء للمخلوقات التي رغم برائتها كانت ثمة عقوبة مشددة

---

(67) Dura : حجيرة نصف دائرية من نصف متر تقريباً يختبىء فيها الصياد عادة لمراقبة الطيور.

مرصدودة لها لتوها مدلاة فوق رأسها: أما سجن على مدى عمرها في صندوق ضيق وأما الموت المحقق والممزق، فكل له حظه، وما وفق (شمعون) حتى عشوائياً أو بمحض الصدفة إلى اقتناص عصفور واحد ومع ذلك كان سعيداً وخبزه مخبوزاً.

- (بهذا لا أعرف الدليل الكامل... إذا ما كان معنا أم صدنا، أنت أيضاً كنت في تلك الأنحاء وفي ذلك النهار).

واصل حضرة رودومونت)، وكانت ثمة حقيقة يعرفها الجميع) من معهم كان عليه ألا يضع للأمور اعتباراً لأنه يعرف بأن لا شيء سيحدث له، ومن هو ضدهم كانت لديه رغبة أو ميلاً أيضاً في الربكة والزعزعة والإفشال والبلد كان عبارة عن هرم يقوم بوضعه اثنان من الشغيلة مختلفين: واحد يضعه اعتقاداً منه بأنه ملكه والآخر يعتقد بأنه ليس ملكه في الوقت الذي يكون الهرم فيه آئلاً إلى السقوط مثل برج صغير من الرمل وكأن أحداً لم ينتبه حتى سيادة(رودومونت) الذي كان مطمئناً على أن كل شيء يسير على ما يرام لأنهم هكذا كانوا يقولون له من حين إلى آخر أناسه الجوانيّون. إن هيئة سيادة وحضرة (رودومونت) من الخارج كان فيها شيئاً من هيئة وشكل عملاق يتمتع بالقوة والضخامة، قادر وكامل البنية وإذا ما ضغطت على عواطفك وتحلّيت بالصبر ثم اقتربت منه فإنك ستلمح التجاعيد والغضون والمرض وتعذره، ومع هذا كله فالذين من حوله يحلفون به وعليه وينفقون جل أوقاتهم وصحتهم وعقولهم ليرونه وقد ازداد نموا وكبرا وترسخ في المكانة أو المنزلة الرفيعة، ومن ناحية أخرى فإن احترامهم وتقديرهم له كان منطلقاً من هدف واحد: الفائدة التي تفسّر السلطة أو السلطة التي تفسّر فائدة، وإذا ما ربح في الانتخابات فإنهم يلتقون معه ليتقاسمون

الثروة، وجمع الأطفال يكبر، وإذا ما خسر الانتخابات فالجمع يصغر والوجوه تتغيّر وتتذمّر وتعبس فيما يتناقص الدليل وتضعف الحجة.

- (هل تعرفون بأنه متورط في حادثتين مشينتين مع الشرطة؟).

تدخل (أندري) الذي كان يتحيّن الفرصة المناسبة منتظراً أن يدفع بما لديه من معرفة فوق المائدة. ووقتها حملقت واستدارت إليه العيون مستغربةً وفغرت الأفواه مشدوهة، وفي آنٍ واحد كاد أن يقفز السؤال من شفاه الجميع: (أحقاً؟) وبنبرة مصدومة أكثر من مستغربة لكنهم لم يصدموا وأحس (أندري) بأنه أكثر من مهم وأكثر معقولية بين المجموعة.

- (وماذا إذن؟، مرتين، قضيتان اثنتان مختلفتان).

ورغب (رودومونت) أن يحيط علماً بالقصة بكاملها وسردها (أندري) بلباقة ولطف، وكان أن ساد الحجرة صمت في الوقت الذي أخذت الاتهامات تكبر وتزداد.

- (إذن فهو ليس معنا، ليس معنا إذن، ليس معنا).

قالت الأصوات متذمرة معاً وكأنها متفاهمة بقوة غريزية خفية حركتهم وهزتهم ليرددون الكلمة ذاتها: (ليس معنا، ليس معنا). وكان سيادته أن ظل منصتاً دون أن يتكلم كثيراً، إذ أنه أدرك في بعض الأحيان بأن احتفاظه بخطوة إلى الخلف من شأنه أن يكسبه شخصية طيبة ومظهراً لائقاً ومبجلاً، وهو لذلك يفضل أن يزن كلامه، يستمع، يفهمهم قدر ما يفهمون من الذي يجمعه لتوه ويختزن ويجتر كل شيء في ذلك المخ الغائر والملغز الذي كان فخر زمرته بكاملها، وكان صمته يدفع بالآخرين إلى أن يفتحوا أفواههم ويظهرون ما يعرفونه أمامه وفضلاً عن ذلك فإن لسانه يتسرّح وتنحلُّ

عقدته ولا يتوقف ما أن يتزاحم ويتجمّع الحشد من حوله في اللقاءات فيما يشجعه التصفيق الحار ويدفعه أكثر وأكثر إلى الرفع من صوته إذ أنه كلما تحامل أو عيّر الآخرين كلما قوي واشتد التصفيق، أما إذا ما عدّد وحصى أخطاء الجانب الآخر فإن الوجوه عندئذٍ تشتعل بل يزيد اشتعالها وترتفع وتلوح الأيادي على أنه في نطاق الزمرة من حوله وفي ضباب دخاخين لفائف التبغ التي تنتج وتتشكل عنها استراتيجية استراتيجي القرية كان حضرة (رودومونت) يحتفظ بداخله وقدر مستطاعه بكل شيء، وكنت تراه رفيقاً هيناً ليناً في كلامه، رصيناً واثقاً وقادراً بشيء من الحكمة والتعقل على كبح جماح عينيه وحركات تلوّي وجهه وتجعّده كما أنه يفرط في مشاعر الثناء والتقدير والاحترام، وهكذا يفعل وبالمثل في الشوارع والأزقة وكان يطوف من باب إلى آخر، ومن حوله الاستراجيين الأولين ليلة الانتخابات، ويطلق كلمة قصيرة ومنتقاة وبالكاد مسموعة فتنزلُ عسلاً في أعماق قلوب القرويين المتلهفين على الأقل لمس رداء الأمير الذي خرج بالليل مثل نجمة من الحارة وإذا لم يتصرف الأمير بشكل مختلف ومغاير فأي أمير سيكون هو؟ في الشارع تراه سائراً مع مجموعة صغيرة من الرجال، في السيارة معهم وليس لوحده مطلقاً، وهكذا تكون الناس الخاصة.

- (تقصيّت عنه جيداً يا حضرة الفخامة). قاطع (كالانش):

- (قالوا بأنهم سمعوه متذمراً لأنها لم تمطر، وهو على الأقل يريد أن يقنع الناس بأن المطر شح منذ أن تولينا نحن الحكومة، كما أنه توصل إلى أن يقول لهم بأنها لن ولن تمطر قط).

- (إذن فهو ليس معنا، ليس معنا).

قال الآخرون في مرة واحدة، وكانوا أن أحسوا بأن الكلّة L-bocca[68] موفقة وتقترب صائبة وتدنو من حيث تمنوها وأرادوها أن تقترب وتتوقف.

- (ماذا قال لهم، ماذا قال للناس حين بدأ يتكلم إليهم في المسرح المواجه للكنيسة التي قلت عنها يا أندري؟ سأل حضرة رودومونت الذي ظل يعمل ذهنه في قضيتي (كارلو مانيو) الاثنتين مع الشرطة، وطفق (أدري) يروي لهم كل ما وفق إلى معرفته من الألف إلى الياء.

- (دعوني أقول لكم شيئاً أيها الأصدقاء لأن الصحيح يظل ويبقى صحيحاً، ولكم بعد ذلك أن تحبوني أو تكرهوني لكنهم أعلنوا لي عن دهشتهم لما طرحه من حديث ومندهشين في الوقت ذاته كيف كان بإمكانه أن يدع الناس ليسمعونه).

- (إنك لتندهش بسرعة يا أندري، أو لم تسمع على الأقل حتّى خطب وأحاديث أصحاب السعادة والفخامة الطوال، الطوال).

قال (شمعون) مقاطعاً وكان عابساً وكما لو أنه مصدوم بهذا التفاخر الذي ليس في محله.

- (أنا أقول لكم بأنه ألقي حديثاً طويلاً وبالغ التأثير هذا لم يخبرني به واحد فحسب بل أولئك جميعهم والذين سألتهم وتقصّيتهم عن كل ما حدث). تابع (أندري) وألقى (جوري) نظرة طويلة حوله وأكدها أكثر من مرة بيده اليمنى مفتوحة في وجه من بجانبه وطرح اقتراحاً: (من يدري فلربما نخيّره أن ينتخب معنا

(68) Marble: كرة من رخام أو زجاج في لعب الأطفال.

وما دام يعرف ما يقوله إذن فعلينا أن ننتخبه قبل أن يختطفه الآخرون).

وابتسم (رودومونت) ابتسامة مريرة وارتخت شفته السفلى وتدلت:

- (لا تتسرّع يا جوري، لا تتسرّع، إذن فالسياسة هكذا؟).

جزم (شمعون) الذي لم يساوره أدنى شك في أن هذ المقترح لم ينزل عسلاً لرودومونت. كان (جوري) حديث العهد - بتلك الزمرة وكان ما يزال في حاجة إلى أن يمضغ جيداً كل مقطع على كل سن وضرس قبل أن يتلفظ بكلمة كهذه، وطفق (رودومونت) يدخن السيجار الضخم أمام وجهه ولم ينبس ببنت شفة لكنه أظهر ومن خلال نظرته بأنه لم ينسجم كما ينبغي.

- (أتريد أن ينتخب أحد ما مِن منطقتنا؟ إذن فسيادة وحضرة رودومونت لا يكفي؟).

سأل (شمعون) بنبرة راسخة ومؤكدة في حين لم يكن لديه أقل شك في أنه وبهذا السؤال فإنما ليدخل بهجة وسروراً كبيرين على (رودومونت) وينتهز الفرصة ليفتح فاه ويقول الشيء ذاته، وظل (رودومونت) فمه مقفلاً وفطن الجميع إلى أن هذا المقترح كان عليه أن يهمل وينسى، وهكذا انتهى الجدل إلى هذا الحد. كان على (جوري) أن يتعلم بأن الحزب يأتي في المرتبة الأولى وفي الثانية الحزب وفي الثالثة يكون الحزب، لكن قبل الأولى والثانية والثالثة يكون سيادة (رودومونت)، وفي جو من بضع دقائق ونظرات الجميع الثقيلة والباردة مسلّطة فوقه مثل ضربة حجرة تكدم وتدمي أصيب (جوري) بصدمة لا مثيل لها وتعلّم أكثر مما كان قد تعلّمه في ذلك

الزمن الذي أمضاه مع تلك الجماعة وخفض رأسه وأخرج لفافة تبغ أخرى من جيب القميص أشعلها وبدأ يتلمسها ثم نظر إلى (رودومونت) بشكل وهيئة وجه آسف طالباً المغفرة ونفث سيادة (رودومونت) الدخان ليبتسم له من زاوية فمه وفهم (جوري) في الحال بأن أخطاءه بدأت تغتفر - إذا لم تنسى على الأقل - تغتفر شيئاً فشيئاً في الوقت الذي لم ولن ينسى فيه الدرس، وهكذا وفي تلك الليلة لم يدس كلمة واحدة في المحادثة، ولقد بذل كل ما بوسعه وحتى نهاية الاجتماع سواء بحركة من رأسه أو - بطرفة أو تنعيسة من عينيه وذلك ليظهر للجميع بأنه يتفق معهم في كل ما بدأ يعدّ ويحصى، وكان بعدها أن أمضى أسابيعاً عاملاً ذهنه وتفكيره، صاعداً هابطاً، باحثاً عن ما بإمكانه عمله ليردّ مجاملة على تلك الكلمة الزائدة التي خيلت إليه أو هكذا كما ارتأت إليه ذات قيمة ومعنى إذ أنه وكما استطاع أن يفهم لم تكن الدنيا كروية الشكل، وتواصل الحديث وذُكر (كارلو مانيو) بأفعاله الطيبة والخبيثة على حد سواء حتى أنه لم يتبقى شيئاً معروفاً عنه لم يكن بمستطاع كل أحد آن يعرفه، وكانوا أن عملوا أذهانهم وفتشوا قدر مستطاعهم باحثين عن دقائق الأمور وصغائرها أياً كانت ثم تمكنوا من أن يتهمونه بها، ولما حان أوان اتخاذ القرار اتفق الجميع بشيء من التبرم والضيق على أن (كارلو مانيو) به شيء من الأنقليس Sallura(69) الذي ينفلت وينزلق من بين الأصابع الأكثر خشونة. معنا أم ليس معنا، السؤال الذي ظل يدور في أروقة عقولهم الضيقة وعندما بدأت الكفة ترجح في اتجاه وناحية الشك كان على كل أحد أن يتوصل إلى الاستنتاج الذي لم يكن في صفهم قط، والذي كان في حد ذاته كأمر واقع ضدهم:

(69) EEL: نوع من الأسماك تستغل عادة في تنظيف آبار المياه من الميكروبات وغيرها.

- (من ليس معنا فهو ضدنا). كانوا يؤمنون أو هكذا كما علمهم سيادته، وما دام كل أمر وحجة معقّدة وكل مخزن معلومات أو جوالات تقصي لا تؤدي جميعها إلى إثبات وبينة على أن أياً من كان ليس واحداً من المختارين فإنه لا لزوم بعد ذلك لأن يظل ثمة ظل شك متلكأ في عقول الجميع، وأن تظهر الاستنتاجات واضحة ومعلنة و جلية بالدليل والبرهان لأن الطعام الذي لا يقتل ليس بالضرورة أن يسمّن. أطفأ (رودومونت) طرف السيجار المسحوق وفتته في المطفأة، وأبعد عمود الدخان المتكاثف سريعاً من أمام وجهه، وفهم الجميع أنه يريد أن يتكلم، وتطلعت الوجوه إليه، توقف الكلام فجأة، وعم الغرفة انتظار مميت:

- (لا تثقوا بهذا الرجل، لا تثقوا به) أمرهم: (أنا الذي سأتكفل به، سأستدعيه إلى مكتبي، والمسألة مرهونة بالظروف، رقصنا متوقف على نوعية اللحن، لكن لا شيء يعجبني بمجرد أن أخبرتموني بأنه لا يبدو واحداً منا، وإذا كان ليس كذلك فهذا يكفينا لنعتبره ضدنا، أشكركم شكراً جزيلاً أيها الأصدقاء، وأعتقد أنه علينا هذه الليلة أن نتوقف عند هذا الحد). أبتسم ابتسامته المعهودة ونهض واقفاً دافعاً الكرسي من ورائه، وبدأ خارجاً من الغرفة، فيما نهض الآخرون ودفعوا كراسيهم هم أيضاً وتبعوه.

* * *

حين كان (كارلو مانيو) محدقاً في المرآة سائلاً الوجه الذي أمامه عما إذا كان ثمة إمكانية لوجود أي شكل أعظم وأجمل وأعقل من

أشكال السلطة في البلد، وحين ظل منتظراً الإِجابة آتية من مكان ما في داخله ولم يوفّق إليها باغته ضيق وألم به وطفق يقبّح ويخرج لسانه ويكيل اللعنات للوجه الذي أمامه: (أبله أنت، أبله يا كارلو مانيو الذي فهمت جيداً بأنك ولتوك ما فهمت شيئاً، وإذا كنت لا تمتلك القدرة على العوم في هذا النهر النجس المليء بالتماسيح وكلاب البحر فانطلق سريعاً إلى الشاطىء قبل أن تبتلعك لأن أسنانها جاهزة وشهيتها طيبة ومفتوحة ولا تتأخر في أن تجد نفسك مسحوقاً من واحدٍ منها، اسمك مدرج لتوه في قائمة الطعام وبحروف بارزة وجليّة، تمساح واحد يقيم بك احتفالاً ويظل جائعاً ليستدير ويلف على أحد آخر من جماعتك).

كان يردّد هذا الكلام في الوقت الذي يحس فيه بأنه رئيس عليهم، وما كانوا بالنسبة له سوى طبقات لم يكن بمقدورها غير أن تبقى وتتواجد، الماء الراكد ذاته كان عليه أن ينعش وينشّىء البيئة ويجعلها مشرقة مؤاتية كي يخلق الأكلة والمأكولين، ضائعاً كان الحق والخطيئة، شيئاً من الخطيئة كانت خطيئة الجميع، لكم يكبرون ويكبرون في دغل الجور والبهتان، المثاليون الذين يريدون تغييراً حقيقياً ومناسباً، ولكم تأكل التماسيح وتأكل ولا تشبع قط. وأن المثاليين ليكتشفون أنفسهم في نهاية الأمر مرددين الكلام المعسول ذاته والذي تردده وتعيده التماسيح ومن ناحية أخرى فإن الماء الراكد، العكر، والخوف من أي نوع من التغيير واللامبالاة هي كلها وفي حد ذاتها قطعة من البيئة النجسة حيث يبدو الإِصلاح بلاطة من الصعب تحريكها وإن زحزتها لا تتطلب معارف ومفاهيم المثاليين الطيبة فحسب، بل نهش وتقريض التماسيح الجائعة والشرهة.

- (التماسيح قاتلة ومتوحشة، لكن قد يكون كلامها حسناً ومقبولاً

لأنه ليس بكلامها).

فكر (كارلو مانيو) على الدوام: (شيء من الحق وشيء من الخطيئة لدى كل واحد، لكن العجينة تظل واحدة وحين تتم التخليطة فليس من البساطة بمكان أن يفصل الزوان Sikrana[70] عن القمح. أحياناً كان يحس بنفسه مثل سيزيف Sisiphus[71] ملك Corintu[72] المشجوب على أخطائه دافعاً، حاملاً صخرة ليضعها دائماً في القمة، والقمة تدحرجها له إلى أسفل، وأحياناً أخرى يحس بنفسه مثل برومثيوس Prometeju[73] قادراً على سرقة النار من زيوس Zeus[74]، لكن برومثيوس كان عليه أن يدفع ثمن أخطائه حين انتهى مقيداً بالسلاسل فوق قمة جبل والنسر الجائع يلتهم فؤاده

---

(70) الزوان Field Ryegrass: منه الأحمر وهو ينبت متطفلاً على الزروع وحقول الحنطة، وهو هنا زوان حقلي ويمسي علمياً ;Loliumarvense: والنص مأخوذ عن إنجيل متى (13) الآية (30 ـ 24) للسيد المسيح، وتسميتها بالسكرانة بالمالطي راجع إلى شراب الجاودار المسكر والجاودار نبات.

(71) سيزيف Sisyphus: ملك كورنث في الميثيولوجيا الإغريقية عوقب في حادس Hades (مثوى الأموات) لغشه الموت وهو مؤسس ذائع الصيت لبرزخ كورنث باليونان Isthmian Games.

(72) كورنث Corinth: مدينة قديمة وحديثة باليونان في القرن 4 ق .م، ضعفت قوتها في 44 ق .م وأصبحت مستعمرة رومانية، ازدهرت بحكم الرومان والبيزنطيين وعادت فضعفت قوتها في العصور الوسطى. أحالها انتزاع الأتراك في 1458 إلى مدينة صغيرة، عثر عليها على إثر زلزال في الشمال الشرقي وعلى بعد 3 أميال من كورنث الحديثة عام 1858.

(73) برومثيوس Prometheus: سارق النار من زيوس في النص الميثيولوجي وأعادها إلى الأرض وأنقذه هرقل البطل الأسطوري ورد ذكره في الثيوغونيا The Theogony (مبحث أصل الآلهة وتحذرهم) للشاعر الإغريقي هسيود Hesiod (800 ق .م) صاحب المجموعة الشعرية (الأعمال والأيام) عن الحياة الريفية.

(74) زيوس Zeus: رب الأرباب في البانتيون Pantheon: هيكل مكرس لجميع الآلهة.

الأخطاء، الأخطاء، أية أخطاء؟ إن البراءة أخطاء بالنسبة للتماسيح، وكان (كارلو مانيو) قد حمل أخطاءه معه في صرة مرقّعة وكبيرة جداً بحيث تتسع لعذاباته وعذابات الكلب والبيئة كلها، الإِخلاص هو أيضاً خطأ، تظل ترفعه وترفعه إلى أعلى، وقع ذو صوت مكتوم يعقبه آخر إلى حيث القمة ثم ينفلت ويتدحرج إلى الخلف فوق رأسك. سيزيف، سيزيف، أبله، أبله أنت، لأن الحق معك. حين كان محدقاً في المرآة دون أن يرمش منتظراً أن يفهم أحس بضراوة ووحشة تتلبّسه مثل السماء المسحّبة التي لتوها تطل وتغرق خديه ثم أعترته بعد ذلك رقة ودماثة وانزلقت دمعة ساخنة يعرف من أين خرجت ولا يعرف أين ستقع، فوق من تقع ـ ملك!.

ـ (مسكينة هي أيضاً التماسيح، يحق لها الغضب وتليق بها الشفقة). كان يردّد، وكان تفكيره واضحاً وجليّاً لكن ما من شيء واضح وجلّي ينبغي عليه أن يعمل:

ـ (إذا ما كان هذا بلدي ومكاني ليس هنا وأريد أن أعيش هنا دون أن أقتلع العروق من أتربتها وأخرج بصرة حظي المملوءة فوق كتفي إذن فأنا المنفي الذي لا يسافر، المهاجر الذي يخلق الملاذ لأنه لن ولن يمد رجله إلى الخارج).

كان تفكيره يهدّه ويكدّه بقدر ما يفرّج عنه ويبهجه، ولو لم يترك جنس التماسيح لينمو ويتكاثر لبقي الناس من أمثاله وبذروا زريعتهم كلما استطاعوا كي يتنسّل من كل رحم نظيف معافى أولاد جدد، أطفال يوم جديد: (لن أخرج، لن أخرج لأن هذا بلدي، بلدي).

كانت ثمة طريقاً أخرى أمام (كارلو مانيو) من حيث استطاع أن يمضي، جزيرة أخرى حيث استطاع أن يعيش ويعمر، ـ في عقله،

حتى الآن جزيرة الازعاج والشجار والخزي والعار، البلاطة التي يتهددها الخطر وتدنو من شفير الكرة الأرضية ستقع ولا تقع إلى الأسفل. إن غداً لا بدّ من أن يصبح وطالما أنه لم يفقد صبره وهو يردد هذه الترتيلة دونما غفران فقد استطاع (كارلو مانيو) أن يقرّر: (هذا هو بلدي، وهنا سأكون، سأكون وأعيش مثلما يروق لي ويعجبني).

دق ساعي البريد جرس البيت مرتين ورمي رسالة من تحت الباب، التقطها (كارلو مانيو) وفتحها، لمح ختم بريد عمله وأخبره قلبه بما تتضمنه، قرأها مرتين وتعلّمها دونما إرادة وعن ظهر قلب: (في التاسعة صباحاً يوم الجمعة مطلوب حضورك أمام وزيرك لتلقي تعليمات حول مستقبلك الوظيفي). وحاول أن يتعرّف إلى التوقيع المعوّج والمتداخل وغير المتناسق ثم تحقّق من أنه «خبشة» السيّد (تاجيلينو) النموذجية، غضّن الورقة في يد واحدة ورماها في الأرض، دفعها بقوة فأصابت الكرة الورقية الصغيرة مكانها في زاوية الغرفة فيما ركض (تشربرو) خلفها والتقطها بين أسنانه وشرع يغضنها أكثر وأكثر.

- (مزق يا تشربرو، مزق، لأنك أنت أيضاً تمتلك الحق في أن تعض وتقطع). قال له بابتسامة باردة ورغم أن الورقة انتهت إلى جذاذات إلا أن تمازج واختلاط بياض وسواد مضمونها ما يزال عالقاً بمخيّلته: (ستقف أمام سيادته، وكيف ستتكلم إليه، حذارك من أن تبالغ في التحدّي، لا تدردر وتخوّض العين التي تشرب منها، لا تجحد كل ما تؤمن به، من الأفضل أن تقبّل اليد التي تودّها مقطوعة، لا تلعق، دعك من البطولة، كن متشدّداً وجافاً. . . أظهر له بأنك متفق معه، لا توقّع شيئاً،

اخفض رأسك، لا تطع، اطع، لا أحد مات جوعاً، تذكر بأنه عليك أن تعيش، تريد أن تعيش...:

الـــدّوامـــة تـــدوز، تـــدوز
فـــوق ســطــح الـــزامـــي وتـــدوز
إحــــذرْ آت الموت إليكْ
كــي يــشــويــك، وكــي يــقــليكْ
احــــذر، احــــذرْ
هــــاذي الـــضّــربــــةْ
واعـــرفْ مـــن أرســلْـــهـــا إليكْ؟[75]

إن لعب الطفولة ما كان لعب مزاح، فها هي تلك الألعاب التي قرر ذات مرة أن يرمها بين الآخرين في الحقل قبالة بيت أمه وأبيه حيث ولد وتربى وكوّن أصحاباً وخلاّناً عادت لتظهر أمامه من جديد، ويشعر أنه في حاجة إليها، وتمنى لو أنه عاد إلى تلك الأنحاء والأماكن المعزولة والخفية فبحث عنها وفتشها في قلب مواقع سقط المتاع المرمي من الجيران جميعهم. كانت ألعاباً قديمة، عتيقة الطراز، مفككة ومحطّمة، فرح الطفولة الأول، الكنوز التي أوقدت الخيال الجامح وسيطرت عليه لساعات وأيام وشهور وسنوات طوال، سنوات الألعاب. والآن قفل عهدها عائداً في رجولته، لكن أين بإمكانه أن يجدها؟ لقد ردمت مواقع سقط المتاع، والرديم رُمي وحمل إلى حيث لا أحد يدري، وبدلاً من الحقول الهامدة والحرة والمنفسحة

---

(75) الدوامة SPINNING TOP - IZUGRAGA: هنا (زغدة) ميكانيكية والأرجح هي: نحلة كرباج WHIPPING TOP وليست النعارة HUMMING TOP والنص لعب أطفال، يضرب من يغمض عينيه وهو مستدير ويسأل عن الضارب وإلا أرسل إلى مكان بعيد.

والمفتوحة كدنيا جميلة وبريئة أمامه ظهرت وارتفعت البيوت الجديدة، صخرة فوق أخرى، أبواب ونوافذ وطرق مسفلتة.

مات شمشون Sansun[76] ومات معه الفلسطينيون جميعاً. لم يتبقى شيئاً من كل ما حلم وعاش، كان الحلم حياة بالنسبة له وكانت الحياة لها ألوان الحلم، لكن القصة استحالت فيه اللحم والدم، العظم والنقي Mudullun[77] وما تزال الألعاب مختزنة في مكان ما ـ في داخله.

- (أعود فأمارسها هذه الألعاب).

قال في ما بينه وبين نفسه: (لأنه ومع الأطفال ينبغي أن تلعب لعب الأطفال وإلا لن تفوز. إن سيادة (رودومونت) هو طفل آخر، وإذا ما وقفت أمامه بالألعاب التي تعجبه فثمة عندئذٍ ما يدفعه إلى الانجذاب إليّ، يلعب معي، والقصة بكاملها لن تكون شيئاً سوى لعبة أخرى من لعب الطفولة).

وظل (كارلو مانيو) يفكر ويفكر، أحياناً يتطلع إلى صديقه الأخرس، أحياناً أخرى يعود فيتكلم لوحده مؤكداً ما قاله، يصرخ، يسكت، يرفع رأسه كما لو أنه هو نفسه به شيء من حضرات السادة وأن يكسب من جديد ضبط نفسه ورباط جأشه: (هم لم يكبروا ياكارلو مانيو، ما يزالون أطفالاً).

---

(76) شمشون SHIMSHON: بطل أسطوري إسرائيلي ورد في القصص الملحمي في العهد القديم (كتاب الملوك، الفصول 16 ـ 13) وزعم أنه كان يحمي مواطنيه من الانقراض أمام الفلسطينيين الأشداء، ولقد اعتبر بعض اليهود الفترة التلمودية في القرن الأول ق .م مجرد خرافة.

(77) النّقي Marrow: مخ العظم.

أعلن لنفسه بصوت فخوري تردّد في الغرفة: (ومع الأطفال يتوجب عليك أن تتصرف بالتفكير والصبر ومثلما يريدون هم وإلا كنت غير ناضج، في الصراع بين الأطفال والراشدين هم دائماً الراشدون الذين يقع عليم الخطأ لأن الراشدين كبروا ويفترض أن يعرفوا كيف يشفقون، ويبررون ويفهمون، ينبغي أن تكون طفلاً مع الأطفال وإلا فلن تبلغ مكاناً، على الأقل تتمكن من أن تمسك بهم من أيديهم وتمشّيهم رويداً رويداً وبلطف في مسار سن الرشد الصعب. الصبر، الصبر يا كارلو مانيو، لأنه هكذا فقط يكبر ويتعلم الأطفال ولكي تعلمهم عليك أن تكون مثلهم ولكي تخرجهم من الغار المظلم ينبغي أن تدخله أنت أيضاً).

ولم يكن لديه أدنى شك من الناحية الأخرى في الخطورة، لأنه إذا ما أشعرت بأن الأطفال المشاغبين معهم الحق وصبرت عليهم كثيراً وأنت تراهم يفعلون ما يريدون أن ـ يفعلونه فعندئذٍ تكون مسئولاً أيضاً عن كل ما يحدث بعد ذلك. كانت طفولته قريب جداً من أن ينساها وكان كما لو أنه بالأمس القريب حين كانت أمه تنصحه وتقول له الشيء الصحيح وهو لا يتفق معها ويظل مخبّطاً حذاءه على الأرض، يجرّ نعليه ويحكهما ويزقزقهما مع الأرضية ويهددها بأن يقطعهما، وكانت أمه تصرخ في وجهه في بعض الأحيان وتحذّره من أنه لو قطّع الحذاء فإنه سيظل بدونه ومع ذلك كان قلبها أكبر من أوامرها، وكانت أمنيتها أن ترى إلى ابنها وقد كبر وترعرع جيداً أجمل من طموحاتها بأن ترى نفسها مذعنة لأوامرها، وهكذا وبمجرد أن تهدده بأنه إذا ما قطّع الحذاء سيظل حافياً تقترب منه وتحتضنه، تملس له وجهه وتردّد: (يا بني، لا نمتلك ما نشتري لك به حذاءً آخراً ولا نحب أن نراك حافياً ولا نريدك أقل من واحد

آخر، لا تقطعه، أحرص عليه، ليس ثمة من حيلة لنا لإنفاق نقود زائدة). وكان ينسي موضوع التوبيخ والتهديد والعراك، يذوب في لا شيء وينتهيان إلى التسامح حيث يضمها إليه وهي تقبّلُ أكثر من مرة خديه الحمراوين المشتعلين بالغضب وقوة الطبيعة التي منحتها إياه حين ولدته بالصحة والعافية التي تشرّبتها من رائحة الحقول والمزارع وبراح السماء. أحياناً أخرى لا يرغب في أن يضع الصينية التي يجدها مملوءة أمامه على المائدة ما أن تقرع أجراس كنيسة القرية في منتصف النهار تماماً، ومع قرع الأجراس يكون ساعور الكحول قد انطفأ والطعام أعدّ وجهز والصواني امتلأت:

- (لا أريد أن آكل، لا أحب هذا الطعام، ليس جيداً).

كان يعراض أمه، وكان تفكيره في الألعاب وفاقد الشهية.

- (كل يا بني، كل لتكبر).

كانت تترجاه، وكان هو يستأسد، يكشّر عن أنيابه ويصيح:

- (أخ!، بائخ!، لا أطيقه). وما كان للمرأة الطيبة أن ينفذ صبرها مع الطفل لأن الراشدين هم المذنبون مع الأطفال، والأطفال لا ذنب لهم مطلقاً:

- (لا أريده، لا أريده).

كان يظل صارخاً (كارلو مانيو) متطلعاً إلى الصحن المملوء وإلى أمه المنتظرة.

- (لا تأكل، إذ لا تريد أن تأكل فلا تأكل، جائعاً ستظل وستظل جائعاً). كانت توصية أخيراً وضد عواطفها بصوت جداً واثق مقتنعة بأن الجوع سيلعب في نهاية الأمر دوره.

وكان (كارلو) يمتلىء بالغبطة لفترة قصيرة لكونه قد فعل ما راق

له وصمم عليه، وكان يغادر المائدة ويعود إلى الخلف حيث زاوية الألعاب، فيما تحس هي بأنها جائعة، بل يعتصرها الجوع بعد بضع دقائق، ثم تكتشف أن ليس لديها الرغبة بسببه، وكانت تترك المائدة حينئذٍ وتذهب إليه متمهلة وتقف متطلعة إليه لاعباً. إنه حلم حياتها الوحيد والقادر أن يقول لها: (لا) ينتصر عليها وكما لو أنه ما أحس شيئاً بالخاسر وهكذا ودون أن تنطق بكلمة أخرى وبتلك الابتسامة المنبثقة مباشرة من أعماق روحها وباليدين الرفيقتين والذراعين اللتين قادرتين على احتضان كل شيء. كانت أمه تقترب منه أكثر متناولة الألعاب من بين يديه ثم تقوده إلى حيث المائدة وترى إليه وهو يأكل دون أدنى مقاومة: (إذا ما أكلت فلدي حلويات لك وسأشتري لك لعبة أخرى أيضاً، أحسناً هكذا يا بني؟). وكان هو يأكل كل شيء كما أن شيئاً لم يحدث، لا ذنب للأطفال قط فالراشدون وحدهم يذنبون)، والآن، الآن تلك المرأة ذات الوجه المدوّر والشعر المشدود إلى الخلف ولباسها الأسود دائماً الذي يبدأ من عنقها إلى أخمص قدميها، تلك ممدودة الآن بكامل طولها في حفرة تحت الأرض مغلوقة بالإسمنت ومقفلة في صندوق كي لا تخرج من جديد وتعود:

- (من يدري كيف استحالت... تناثرت أطرافها وتآكلت، وترمّدت، كانت جميلة وتقبّحت الآن، كان لها لون الغروب والآن اسودّت، جميلة كانت والآن منتنة، تتحرك وتجري، عمل ذهنها، لا تكل ولا تمل، والآن صارت رديماً مثل ألعاب مرميّة قطعة تلو أخرى في أماكن الحقل المهملة، الآن، الآن ما عاد شيئاً على الإطلاق من ذاك الذي كان..).

وتطلع (كارلو مانيو) في الفراغ وتمنى لو يعود فيكلمها،

يطيعها، يأكل معها في قرع أجراس كنيسة القرية، في منتصف النهار تماماً وفي وقت الدعاء الذي علّمته والذي ما نساه، والآن صارت حياة أخرى مثل حلم حي، مثل حياة ليست سوى حلماً، محقين كانوا الشعراء، لقد حلم بها أكثر من مرة، رآها تناديه بكلمة ممزوجة بابتسامة. إن حضر (رودومونت) إنسان خوف، مجلبة للضيق والهم وهذه المرأة تنفح بالورد والزهر، بالثمار والطعام، حضرة (رودومونت) يجلب الضيق والهم...

- (أمي، أمي، صحن منتصف النهار الساخن والألعاب التي اشتريتها لي، أمي، أمي، أين ذهبت؟).

ظل منتحباً بصوت خفيض في حين تركزت عيناه على كرة الورق الممزقة التي كان (تشربرو) قد تركها في منتصف الغرفة: (أنت لن تهزمني يا سيادة وحضرة رودومونت)، لا تضيع ذكرى أمي التي علمتني الفرح والمحبة والألفة والوفاء، إنك بضيقك وهمّك وبغضك وقذارتك لن تنتصر عليّ أكثر مما انتصرت أمي وحيث دخلت فلن تدخل أنت) تمتم بغضب وامتعاض، ومع هذا كله فإن (رودومونت) كان على بعد أميال قليلة منه، جالساً يمضغ ويلعّب سيجاره الفائح والمنتن، وأمه، الآن، الآن كانت على بعد أميال قليلة منه دونما حياة، ممدودة يجوسها الدود، مرتدية اللباس الذي ما عاد أنيقاً، رأسها مستريحة فوق قاع القحف المفزع الذي تمنى لو كان بمستطاعة أن يقبّله ويسرقه ويحمله، لأن الآخر، الآخر النظيف والغنى والجميل الذي يفوح لا يريده، وكانت المرأة وحضرة (رودومونت) أن شكّلاً في ذهنه صورة لزوجين غريبين جداً، وأن الماضي ذا الذكرى الجميلة والحاضر ذا الواقع المزري والمشين أختلطا معاً.

- (ينبغي عليك أن تقف أمامه، لا تنس، فكّر في الطريقة التي ستكلّمه بها). سمع الكلام يدوي في أعماقه، كلام أمه المختلف تماماً، كما ظل يدوي أيضاً في عقله. إن واحداً منهما ما كانَ محقاً، وكان هو أن وقف إلى صف المرأة الطيبة ودون أن يدري وبغض وكره الرجل غير الطيب والمتسلط. ذات مرة نادته أمه من غرفتها وكان حينها منتصف النهار تماماً والمطر يرخ من الصباح الباكر ولا يبدو أو ما كان يبدو شيئاً أينما ترى غير ظلام المخلوقات تقريباً وبلون الحداد ذلك أن الشمس لم تظهر، والأرض ترتوي بالكاد وتستقى وتتغدّر مثلما تريد وتتمنى وكان (كارلو مانيو) أن ترك كل شيء وذهب بجانبها، وتطلعت هي من النافذة إلى الخارج وتوقفت عيناها على إظلام الزجاج المشرّب، وهناك كانت تخضر وتتخضّر الحقول والأشجار وتتمايل وتترنح في وجه الريح فيما تدفىء حرارة الموقد الحجري Fuklar رجليها المصابتين بالتهاب المفاصل Artritis وفي حجرها لفافة الصوف وقطعة القماش الملوّنة التي كانت تشتغلها ليرتديها في أعياد الميلاد.

- (دعني أرى المقاس قليلاً). قالت وسحبته إليها باسطة قطعة القماش فوق ظهره، كان الطفل في وضع مستقيم، مستقيم ويداه الاثنتان نازلتان إلى أسفل مباشرة مثلما طلبت إليه وتركها لتقيس وتكيّل على غير عجل:

- (سأخيط لك ثوباً جميلاً يا بني، لأنه سيكلف كثيراً فيما لو اشتريته لك من السوق، إني إذا ما أخطته أنا... إلا ترى؟ لا يكلفني سوى القليل من لفة صوف).

- (أشكرك يا أماه).

قال لها (كارلو مانيو).

- (إذهب واحضر أباك، ليغفر له الله، لأنه سيراك وأنت تكبر وتصير شاباً، لم يتمكن من أن يراك وأنت تكبر يا بني، لكن لا عليك، إنه وحيث هو الآن يهتم بك ويتكفّل بك، لا فرق!).

وسألها (كارلو) إذ ذاك: (وأين ذهب أبي يا أماه؟).

وسألت عيناها بالدموع وكاد صوتها أن يكشفها، وأجهشت بالبكاء ماسحة دموعها دون أن تدعه لينتبه ثم عادت فبعثته إلى الحجرة، وتظاهر هو بأنه ما رأى شيئاً وخرج مباشرة كي لا يضغط عليها. كانت أن ظلت الذكريات في غدو ورواح أمام تفكيره وكما لو أنها حدثت في اليوم الماضي، وكان كلما مضى زمن وبعدت عنه تلك المرأة التي هي الآن، الآن أصابت مكانها على نحو دائم في رقعة من أرض وعلى بعد أميال منه في مقبرة القرية تمنى ولكم تمنى لو أنه فهمها قبل أن ترحل.

- (محقة دائماً كانت أمي، لكن ليس للأطفال ذنباً، على الإطلاق، فالذنب ذنب الراشدين). فكر لوحده، والآن وحيث أنه قد صار راشداً وسوف يمتثل أمام حضرة (رودومونت) فإن استراتيجية أمه ـ تلك المرأة الصبورة التي تخيط وتغسل وتطهو ظهرت مثل اللعبة التي سيلعب بها أيضاً الآن. التقط الرسالة من الأرض، فتحها وبسطها كيفما اتفق ومرر أصبعه الوسطى فوقها ومن جانب إلى آخر ـ كي تستعيد شكلها من جديد ثم زم شفتيه أمامها ودفعها في الجيب.

- (الصبر يا أماه، الصبر، لقد علمتني الصبر مذ كنت طفلاً، واليوم كراشد ينبغي عليّ أن أصبر على الأطفال).

قال في حين رأى إلى صورة أمه المعلقة إلى الجدار:

- (لا تخف. يا صاحب السعادة) أردف بصوت سار:
- (سوف لن أحقرك أكثر لأن أمي لا تريد، ولأن الأطفال مطلقاً لا يذنبون).

11

*: (في التاسعة صباحاً من يوم الجمعة مطلوب حضورك أمام وزيرك لتلقى تعليمات حول مستقبلك الوظيفي). تبدّى الكلام أمام عينيه مكتوباً في أطراف السقف ما أن استفاق (كارلو مانيو) باكراً من رقاده واختطف المنبّه من فوق المنضدة الصغيرة ذات الأدراج ثم خيم الصمت بعدئذٍ على الغرفة. كانت ما تزال السادسة صباحاً، فرك عينيه وتثاءب ومرّن أوصاله وتحوّلت عيناه إلى النافذة المواربة حيث انسربت خيوط الشمس الباهتة الأولى.

- (اليوم يا تشربرو يتوّجب علينا أن نبكر، وأنه ليؤسفني إذا ما أيقظتك هكذا باكراً، لكن هذه دنيا وليس ينبغي عليك إلا أن تتورط معي وفيها أنت أيضاً). قال وقد عانق صاحبه الذي لم تكن لديه الرغبة الشديدة في الخروج من البطاطين الدافئة. كان الكلب مستاءً على وجه التقريب، وكان أن تظاهر بأنه لم يفهم برنامج اليوم الصعب والقاسي، وهكذا عاد فأغمض عينيه بتراخٍ لا مثيل له.

- (لتنهض يا تشربرو، لتنهض لأن الوقت سيحين واليوم يريد أن

يرانا حضرته، وليس لنا من تصرف آخر لأننا أنا وأنت نريد أيضاً أن نعيش، وكي نعيش عليّ أن أحصل على ما نأكله. الدنيا لكل أحد يا تشربرو لكنها ليست في متنا ولنا بعد، إنها ما تزال بأيدي الملاك حتى الآن، السادة وحضرات السادة يا تشربرو لكن ما من ريب في أن يوماً سيصبح ليكون فيه كل أحد مالكاً للأرض، وفي الوقت الحالي علينا أن نتحلّى بالصبر، صبر، صبر، صبر وإلا سارعنا بكسر أعناقنا وظللنا بدونها إلى النهاية. إننا ومن غير شك لفي حاجة إلى الغد...) أنتزع البطاطين من فوقه وعاد فمرّن أوصاله وأغلق عينيه وفتحهما وقد زفر زفرة قوية ملؤها الضيق والغضب:

- (الصبر، الصبر، بالضرورة ينبغي أن تدفع الثمن أمام الأطفال الذين يأمرون).

قال وانتفض في مكانه وانتصب وقفاً، ثم ارتدى ملابسه وأعد لنفسه فنجان قهوة، وإفطاراً خفيفاً لتشربرو الذي كان عليه هو أيضاً أن ينزل من فوق السرير متحلياً بالصبر، وذلك بعد أن أفقده ضوء وجلبة النهار نعاسه:

- (حتى أنت ينبغي أن تصبر عليّ، إنك لترى أيها الصديق، رغم إلاّ علاقة لك مطلقاً بهذه المسألة. إن سلسلة الصبر هي تلك الي تثبّت الدنيا واقفة بأحكام وتجعلها تدور وتدور - على ترس صغير Il - fus[78] كامل الدقة والقياس والتسامح).

فكر وأخذ يتمشى من ركن إلى آخر في الحجرة، مرة يرى إلى صاحبه وهو يأكل بنصف شهية ومرة يتكلم لوحده من تحت لسانه أو

(78) pinion: ترس صغير تتداخل أسنانه في ترس كبير.

بصوتٍ عالٍ. أغرقت الشمس الفاترة الغرفة، وبدأت أول أصوات السيارات نسقها المعهود، وثمة ديكاً هنا أو هنالك ألقى السلام من باب الواجب على اليوم الجديد الذي مثل قبله والذي بعده، وكان إضافة إلى هذا كله يعم الهدوء في أية لحظة ويدخل مباشرة في الغرفة فيما يتكشّف (كارلو مانيو) ومن جديد إلا قدرة له البتة على أن يفكر في أيما شيء آخر، وكان ما أن رأى (تشربرو) وقد نظف الصحن الذي أمامه جيداً حتى ركع على ركبتيه ومسّد له وجهه وضمه إليه وقبّله ثم أمسك برأسه بين يديه برفق وقال له:

- (لتصبر أنت أيضاً، عليّ أن أتركك لوحدك، اليوم سأخرج باكراً على غير العادة، في البدء سأذهب لأسلّم على أمي، أنت تعرف أين توجد أمي مستريحة ممتدة في الهدوء والسكينة، في دولة حيث لا يحكم صاحب سيادة أو سعادة، ثم أذهب بعد ذلك إليه، أنت تعرف عمّن أتكلم؟ إلى حضرته، وسوف أرى ماذا سيقول لي، وأرى ماذا سأقول له أنا أيضاً.. تحل بالصبر، وسأخبرك حالما أعود بكل شيء).

ربّت على ظهره أكثر من مرة، نهض واقفاً وانطلق باتجاه الباب الخارجي، فتحه وأدار وجهه إلى الخلف:

- (ما أن أعود حتى أخبرك بكل شيء).

قال له من جديد وصفق الباب من خلفه.

كان حفّار قبور القرية قد فتح البوابة لتوه وأخذ يعبث بالمنديل الملفوف في شكل علبة كبيرة والممتلىء خبز نصف الرطل، طعام اليوم الكامل الذي يفكّر ما بين فترة عمل وأخرى بأن كانت له امرأة تهتم به وجاهزة في انتظار أن يعود حياً فيما بعد من عالم الأموات.

- (باكراً، باكراً يا كارلو مانيو).

قال حفّار القبور، وكان (كارلو) أن حيّاه، وكاد أن يقف ليتكلم إليه غير أنه عض شفته وانطلق في سيره إلى قبر أمه، وما أن وصل إليه حتى رد الصليب، وارتمى جالساً على حافة الرخامة فيما أحس صقيعها ينفذ إليه وشيئاً فشيئاً يلاسمه الندى، ثم أنه خفض رأسه وكاد أن يغالبه النعاس على أنه تغلّب على نفسه ونهض واقفاً:

- (يا له من صقيع هنا يا أماه...).

تنهّد ومرر يده فوق وجه القبر: (إنها لأشبه بالبارحة حين كانت الحياة مختلفة، وكنت معي، فقيرين نحن الاثنين ولا شيء ينقصنا، فرحين يا أماه بأنفسنا وما تمنينا قط ثروة طائلة، ولا سمعتك متذمرة لأنك ما كنت موسرة ولا تكلمت حتى ضد أحد ما، ألا تذكرين حين علمتني بأن ينبغي عليّ أن أتحلى بالصبر؟ يا أماه، فماذا، ماذا ستقولين لي من جديد؟ ماذا؟).

كانت السنوات التي أمضتها أمه مغلوقة تحت الأرض قد تبدت له كدليل على مصداقيتها وصحة كلامها:

- (إنها لمشيئة الله يا بني، هو الذي خلقنا، ويبنغي علينا إذا ما آمنا به أن نطمئن أنفسنا بأنه هو الذي يعرف ما يفعل أو يشاء بنا).
ويظل هو متطلعاً إليها متسائلاً في ما بينه وبين نفسه من غير أن ينطق كلمة واحدة من شأنها أن تزعجها. إن إيمان تلك المرأة المثابرة ودائمة الهدوء كان يشغله ويحيّره، ويقوّي في الوقت ذاته من قلبه وعزيمته).

- (من غير الممكن أن تكون هذه المرأة مغرّرة بنفسها، وهي من الطيب بحيث لا تكون مخطئة القناعة التي بداخلها، إن إدراكها

ووعيها ومفهومها لأكبر منها وقادم من أي مكان بعيد آخر).

فكر دائماً عندما كان يراها تدعو وهي تعمل وتعمل وهي تدعو، لقد عاشت زمنها من البيت إلى الكنيسة ومن الكنيسة إلى البيت وكما لو أنها تنتظر من النهاية أن تشرح وتفسّر لها كل شيء وأن تدفع لها مقابل ما أنفقته من صبر ومن تمزق وانقشاع ضباب عمرها. كان عقل (كارلو مانيو) مغرقاً بالضباب وما استطاع أن يتخلى عن ثياب وجرأة وقناعة هذه المرأة بنفسها، إذ لو فعل إذن لأحس بأنه يتخلى لتوه عن شيء منه هو ذاته.

- (لتكن طفلاً طيباً يا بني، ولا تنس كل ما قلته لك).

نظرت إليه بعينين مزججتين لتوهما، جاهزتين للخلود إلى الارتياح: (ثمة شيئاً من المال في درج نضد المائدة وذلك ما أمتلك أن أتركه لك فقط يا بني). قالت، وأحس أنه فخور بها، فيما تذكر الدارات، المباني الفخمة والنزوات والترف والرفة ودلال الآخرين وصحتهم وخجل بدلاً عنهم لأنه يدرك بأنهم لا يعرفون كيف يخجلون: (إذا كنت تحبني يا بني فعش كما عودتك). طلبت إليه في شيء من الأمر قبل أن تموت. معذورة كانت، مصممة وعاقدة العزم.

وفي ذاك اليوم بكى، وتمنى لو كان بمكنته أن يبدي لها انطباعاً - محتالاً وضرورياً - بأنها ستشفى من كل شيء وتنهض من سريرها ممتلئة صحة وعافية:

- (تشجع يا أماه، الآن سيزول عنك كل شيء).

تذكر حين قال لها بحماس ودونما أدنى اقتناع.

- (امتلكْ الشجاعة يا بني، وأعرف ماذا سيحدث، عشت الآن

بما فيه الكفاية، ما استطعت أن أعمله من طيب عملته، والله يعرف ما يفعله). قالت له. ويتذكر بعدئذٍ ضغطة يدها الطيبة وانحناء رأسها في اتجاه واحد والنفس المتعب والمقرقر، والعينين المزجحتين اللتين تدوران هنا وهنالك والصليب المضموم بيدها اليمنى والذي تريد أن تضعه في صدرها.

- (أمي، أمي، أين ذاهبة يا أماه؟، أخبريني ما الذي يحدث الآن؟ علميني الآن أيضاً).

همس في نهاية الأمر لوحده دون أن يمكنها من أن تسمعه ثم أحس بعد قليل بنفسها يتناقص بحيث لم يعطي أية إشارة أخرى، وكان أن قبل رأسها وسبل لها عينيها برفق وهدوء فيما رد القسيس الصليب وباركها وفتح الكتاب وأخذ يدعو بصوت بالكاد أن يسمع، وما كان حينها ثمة حركة في الغرفة. متوحداً أكثر من أي وقت مضى خرج (كارلو مانيو) على أطراف أصابعه ودلف غرفة أخرى دافناً وجهه في راحتيه وأصابعه مشربة بالدموع، ثم دعا ويداه تشدان وتضغطان على وجنتيه: (آه أنت يا مولاي الذي جلبت نار المحبّة وخنجر القتال، والذي خوّضت ودردرت الأمواه من القاع، تلك الأمواه يا مولاي التي وبعد ألفي سنة ما تزال وما تزال تبقبق وتمتلىء ضدك ولصالحك أنت يا مولاي المحبوب والمبغض، أنت الذي جننت الأغلبية من خلفك وأثرت غيرة البقية، كن ولتكن معي يا مولاي طفلاً مثلما أنت صغيراً، أنت، يا أنت الذي دليت الموت أمامي واستملتني بالحياة، ويا أنت الذي ذكرتني بأني سأموت ووعدتني بالحياة، أنت، ماذا تكون؟ جنة عقلي أم قلبي؟ أنت الذي ملأتني طموحات وعلمتني أن أكون فخوراً متباهياً بك ومن أجلك لتمنحني الشجاعة لأفتخر بك دائماً وأمام الجميع، تكلّم، تكلّم أيّها المعلم

الساخر المرهق والحبّي، تكلم واقترب من هنا ومزّق الستارة التي تسترك من ألفي سنة ومنذ أن بعثت ومت ورجعت من حيث أتيت، مقطعاً واحداً أو آية أحضر معك، حرك ـ على الأقل الماء الراكد بنفس خفيف وأوقف مرة أخرى الجو العاصف والرديء، وعد فأكثر من الخبز في زمن العوز والقحط والشدّة، عد، عد أيها المعلم واصلب إلى ما لا نهاية، ولا تضايقني كثيراً، قل كلمة، كلمة واحدة أنت يالذي أحضرت الخنجر ولا تريدنا أن نستعمله والذي بذرت وزرعت الصراع ولا تريدنا أن نشارك فيه، أنت، ماذا تكون أنت؟ دمي ولحمي؟ أؤمن، أؤمن وانتظر). كان مأتماً غاية في التواضع، القسيس وهو وأمه.

- (السفر الميمون يا أماه).

قال لها في حين تأرجح وقرقع التابوت المربوط بالحبال في أيدي الدفّانة في الحفرة العميقة وأصاب مكانه:

- (إذا لم أؤمن اليوم فلن أؤمن قط). قال في ذات نفسه. كانت كما لو أنها البارحة، وظل متذكراً ذلك المشهد كل يوم وما تمنى حتى أن ينساه، على أنه بذل كل ما بوسعه هذه المرة من أجل أن يتذكرها جيّداً. لقد ماتت أمه، وعوضاً عن أن يحسها من حوله أخذ يحسها داخله، كم أنه وبعد تلك السنوات كلها ظل يتذوّق صحنها الساخن ذاك في منتصف النهار تماماً، منصتاً إلى صوتها الذي لا يرتفع قط ولا يشتدّ، يرى إلى نظراتها التي لا تقسو مطلقاً ولا تغضب، يفهم كلمتها التي لا تؤلم ولا توجع، وكان موقناً بأن امرأة مثل هذه لا ترفع نظرها في وجه أحد ما، بل إنها لم تعرف ما هي النظرة، حتى النظرة، لقد كان الموت جائراً

إذا لم يكن تمزيقاً للسديل Siparju[79]. إن السوس الذي يمزق وينهش السيئين من الداخل ما يلبث أن يقلع عنهم لكن أية سُوسة كان ينبغي عليها أن تنخر وتأكل الطيبين؟.

- (لا يمكن أن يكون، لا يمكن أن يكون صمتك إبادتك وهلاكك يا أماه). قال لها في حين نهض واقفاً ورأسه مدلاة فوق القبر: (هادئة ما تزالين كما كنت، تطلبين إليّ أن أتعلم كيف أتحلى بالصبر الآن أيضاً...) وعاد فرد الصليب، ومس وجه القبر بأصابع يده اليمنى الخمسة والمفتوحة وحيّاها بحركة صغيرة من رأسه: (ذاهب يا أماه، لا أستطيع أن أمكث طويلاً). قال وسلك طريقه خارج المقبرة: (الصبر، الصبر). أخذ يقول لوحده ثم تطلع في الساعة، وانتبه إلى أن الوقت قد حان وأسرع في خطوه، وقدّر أنه إذ لم يتباطأ في طريقه فإنه سيصل في الموعد المحدد أمام حضرته. دخل المبنى الوزاري، صعد الدرج وتمتم لوحده (مات كبار الفرسان وبقيت ظلالهم، وأولاد أولادهم ما يزالون هنا...).

- (هُوْى!، هُوْى! Oj[80] إلى أين داخل أنت؟ في أي مكان تعتقد أنت؟).

صاح أحد ما في الحال، وكان يجري خلفه ليلحق به وكاد أن يقبعنه من كتفه، وجه مقيت ومتجهم قابله متذمراً وبغضب، وهبط (كارلو مانيو) من الدرجتين اللتيْن صعدهما ومشى إلى الخلف حيث الرجل:

---

(79) drop curtain: ستار مسرحي ينزل تنزيلاً.

(80) hoy: هتاف يستعمل للفت الانتباه أو في سوق الحيوانات.

ـ (لدى لقاء مع حضرة (رودومونت)).

بين له.

ـ (لقاء مع سيادته؟).

سأله باشتباه وبعينين تتفحصانه بدقة (الديك موعداً؟).

خفض رأسه شيئاً فشيئاً ليفهمه بأن (بلى)، وقال في ما بينه وبين نفسه:

ـ (الصبر، الصبر، لا تنس ما قالته لك أمك قبل قليل)..

ـ (إذن فلتنتظر هنا، في تلك الغرفة، اتبعني).

وكان أن أشار له حيث كن عليه أن ينتظر.

ـ (عفواً يا سيّد، لكن موعدي في التاسعة بالضبط). أوضح له بصوت هادىء: (وصلت في الموعد المحدد تماماً، انظر، الآن ستحين وتعلن التاسعة، الآن). ونظر إلى الساعة.

ـ (أتظن بأن ليس لدى حضرته ما يفعله غير أن يراك، إجلس هنا وانتظر وحين يكون بمقدوره أن يراك فسيبعث في طلبك).

عاد فأمره، وأراه من جديد وبإشارة من يده الحجرة حيث كان عليه أن يدخل وينتظر:

ـ (الصبر، الصبر يا كارلو مانيو، لا تنس الذي علمتك).

ظل يردد لنفسه كلام أمه. دخل الحجرة وارتمى فوق كرسي طويل ذي ذراعين، أمامه كان ثمة خمسة آخرين منتظرين ثمة من يدخن، وثمة من يتصفّح صحيفة، وثمة من يحدق ويحملق في الوجوه ذاتها، مرر عينيه في كل زاوية، ألقى التحية على المناظر الطبيعية التي فوق رأسه وزم شفتيه. خفض رأسه إلى أسفل، عقد

يديه ودعا أن يحضره النعاس الهانىء، الهانىء. بعد بضع دقائق عاد ففتح عينيه وسأل من بجانبه وكان الجميع مثالاً للصبر:

- (عفواً، هل تنتظرون أنتم أيضاً أحداً ما؟).

تبسمت الوجوه الخمسة في الحال ومرر أحدهم تعليقاً ساخراً لم يفهم، وعاد (كارلو) فسألهم:

- (صاحب السعادة). قالوا معاً كما لو أنهم جوقة واحدة.

- (الآن؟).

تطلع بعضهم في بعض مستغربين.

- (ألستم مخطئين؟ ها؟). سألهم: (كان عليّ أن ألتقيه في التاسعة، أنا ألتقي معه).

أوضح لهم بأدب وجدّية.

الآخرون أيضاً كانوا على موعد في الوقت ذاته.

- (لكن أي من غريبي الأطوار هؤلاء؟).

قال متذمراً بصوت مسموع، وقاطع واحد منهم:

- (لدى حضرته الكثير مما يعمنل...).

وقال آخر:

- (من يدري كم من أناس سيرى كل يوم).

وأعقب الثالث:

- (ومن يدري كم يهتفون).

وصدرت عن رؤوس الثلاثة إشارات تنبىء عن الاتفاق.

ـ (صاحب المعالي إنسان مهم للغاية ولا يمكن له أن يحدّد موعداً دون الحفاظ عليه).

قال لهم بنبرة تنم عن تفانٍ وإخلاص، وفي عينيه تُقرأ مظاهر الإعجاب.

ـ (أكيد، أكيد من أنه مهم).

ردّد الآخرون.

ـ (إذن فهكذا لا يستطيع أن يحافظ على الوقت معنا).

طمأنهم (كارلو مانيو): (وكلما تأخر ولم يرسل في طلبنا كلما فسر ذلك بأنه مهم). أضاف بصوت واثق.

وخفض الجميع رؤوسهم متفقين معه.

ـ (الصبر، الصبر، لا تنس تعليم أمك).

أنذر (كارلو مانيو) نفسه من تحت لسانه وشفتاه تتحركان قليلاً ثم احني رأسه فوق صدره وأغلق عينيه متمنياً أمنية لا مثيل لها في أن يذهب في نوم عميق ويحلم حلماً يباعده أميالاً طويلة من ذاك الانغلاق، وهكذا وما أن أخذ شخيره الخفيف يمزق صمت الغرفة الوتيري حتى بدأت الوجوه الخمسة تتسلى به بفضول واهتمام جديد.

ـ (رقد).

تمتم أحدهم وتبسم الآخرون، فثمة من مستخف، وثمة من يريد أن يظهر ازدراءه لسلوك وتصرف من هذا النوع، وظلت رأسه ما بين علو و انخفاض، تارة كثيراً وأخرى قليلاً، وحين استيقظ بعد ساعة تقريباً أحس بارتياح وذلك ما أن لمح الناس الذين حوله وقد تناقصوا، ووجد نفسه قبالة وجه واحد فقط.

- (أنت فقط بقيت، أنت وأنا من بعدك).

قال له (كارلو مانيو). حرّك الآخر رأسه دونما رغبة في أن يتكلم إليه.

- (انقضى عليّ وقت طويل، من التاسعة).

أضاف (كارلو) ونظر إلى الساعة: (انظر، أي وقت قد حان).

لم يقل الآخر شيئاً، تطلع إليه بعينين مشتبهتين، وفهم (كارلو مانيو) بأن الآخر كان سعيداً، وأن تعليقه لم يتقطر له عسلاً، بعد قليل دخل الساعي الحجرة ونادى:

- (لمن الدور؟). نهض الآخر، سوّى سترته، أخرج مشطاً من الجيب ومشط شعره، عدّل من ربطة العنق وخرج. ظل (كارلو مانيو) لوحده، ومع أفكاره، عاد فتذكر ما كان لديه من فوران دم، مخزون الكلام الذي تربّى داخله منذ زمن طويل، والذي تمنى أن يفرغه الآن وفي نفس واحد أمام سيادته: (الآن وقت تصفية الحسابات، حسابات مع هذا النوع من البشر). فكّر، وكان مع ذلك كله متلكئاً تحذير أمه القديم في عقله:

- (الصبر، الصبر). حذّر نفسه.

حين وجد نفسه أمام حضرة (رودومونت) ظل واقفاً منتصباً أمامه، منتظراً أن يأذن له بالجلوس. كان على جانبي الرجل الذي يدخّن السيجار اثنين من أمناء السر، وصرخ أحدهما: (اجلس)، وفعل (كارلو) كما طلب إليه. تكلم الثلاثة فيما بينهم من خلف منضدة المكتب الطويلة، قلّبوا وتصفّحوا أوراقاً، فتّشوا اسمه في سجل ضخم فتحوه أمامهم، ثم ارتد كل واحد منهم بعد ذلك إلى الوراء. ظل (كارلو مانيو) ملاعباً أصابعه منتظراً صدور الكلمة عن

الناحية الأخرى سحب (رودومونت) نفساً طويلاً إلى الداخل، تناول السيجار بين أصابعه وأخرجه من فمه، وأغرقت وجهه لفافة دخان ثم اندفع إلى الخلف على الكرسي ذي الذراعين وبدأ:

- (أستطيع أن أتهمك بمخالفة قانون وظيفتك، وبعدم امتثالك وخضوعك لرؤسائك أيضاً، أهملت العمل دون سبب شرعي ونما إلى علمي بأنك ذهبت لتصطاد، أعرف عنك كل شيء). توقف قليلاً وزم شفتيه: (أشياء مثل هذه لا تحدث في إدارتي، وإني لأحذرك وألفت انتباهك بجديّة لأن نقصك خطير جداً). ظل (كارلو مانيو) صامتاً، متمنياً وغير متمنٍ أن يتكلم، تطلع إلى حضرته وخفض رأسه، تذكر من جديد كلمة أمه التي ما قالت قط كلمة زائدة، حتى عندما كانت محقة، ثم تذكر (تشربرو) البريء الذي يريد أن يأكل والذي كان منتظراً في البيت على أحر من جمر.

- (ما الذي تود قوله؟).

لم يقل (كارلو مانيو) شيئاً، حرك رأسه قليلاً، وماكان ذلك يعني أو يفسّر شيئاً كثيراً.

- (أتظن بأنك أفضل من أحد آخر، حيث بإمكانك أن تتقاعس عن واجبك ولغير ما سبب، ثم هكذا تمضي الأمور وكأن شيئاً لم يحدث؟ أجب، إني لأنتظرك أن تتكلم). أمره حضرة (رودومونت).

- (ليس لدي ما أقوله، وماذا سأقول لك؟ أنت تعرف بأني لم آتي إلى العمل ذاك اليوم، وهذا كل ما في الأمر).

- (كل ما في الأمر، كله ـ أتقول أنت، لا، ليس كله).

رفع حضرته صوته واستدار إلى الاثنين الآخرين ليرى دعمهما له وموافقتهما في نظراتهم. فهم أمينا السر الاثنان الأوامر وغمغما بشكل مسموع وما نطقا بشيء وبدا حضرته مقتنعاً بهما:

- (تعرف بأنك مخطىء وبإمكاني معاقبتك).

- (بإمكانك معاقبتي، وهذا لا يفسر بأني مخطىء، لقد تلقيّت لتوي عقوبتي، منذ فترة طويلة موقوف عن العمل وكان عليّ بالكاد أن أعيش). أجابه (كارلو مانيو) أخيراً.

- (ألا تعرف بأنك مخطىء؟ فتشوا قليلاً. . أي موظف أنت، ولماذا ندفعُ لك ما دمت لا تعرف ما هي واجباتك؟).

عاد فصرخ من جديد، ونظر إلى أميني السر الاثنين، وكانت نظراتهم قاسية ومريرة، وشفاههم مهملة ومتدلية:

- (كل ما فعلته فإنما لتنال منا وتفشلنا، أنت ضدنا وتريد أن تضع البعض في الحلقات لأنك معهم، إن كلامك ليفضحك، وسلوكك يفضحك أكثر ـ أنت معهم).

اصطاده (رودومونت) بصوت جاف وخشن.

- (لست معهم، لديك انطباعاً خاطئاً).

قال (كارلو) وقد استجمع قواه، فيما أحس بالارتياح وتوقّدت عيناه بالفرح وعبرت وجهه ابتسامة لطيفة.

- (ألست معهم؟). ردّد له.

- (لا)، أجابه بجفاف.

- (أكيد؟).

قال بنبرة سعيدة ذات إجابة محتفى بها.

- (لست مع أحد، لا معكم ولا حتى معهم، لا وجود لكم ولهم عندي، هذا تمييز عتيق الطراز للغاية يا صاحب السعادة، إني معكم حين تفعلون الصحيح وضدكم حين تخطئون، كما أني ضد الآخرين حين يفعلون الشيء غير السوي، ومعهم حين يكونون طيبين. . .).

وقاطعه سيادته وقد أخذ يضحك:

- (ومتى كانوا طيبين، منذ متى كانوا طيبين؟ أي طيب قد صنعوه؟ نحن، نحن فقط الطيبين).

تطلع إليه أمينا السر الاثنان بنوع من التصديق على كلامه.

لم يلق (كارلو مانيو) اهتماماً لهذا التعليق وتابع:

- (إذا ما فعل الاثنان الطيب، إذن فأنا مع الطيب وإذا ما أخطأ الاثنان في العادة فإني ومن الطبيعي أن أكون ضدهما أيضاً).

- (وأنت. . من أنت حتى تقرر ما الطيب وغير الطيب؟).

- (أنا أمتلك عقلاً وأستغله، ولا أمتلك الرغبة في الواقع بأن أبدل الأبيض في الأسود والأسود في الأبيض، ولا أجد صعوبة في أن أستعمل عقلي وأمضي به).

- (هذا العقل الذي تمتلكه سيعرضك للخطر وللشبهة. .).

- (على العكس تماماً يا صاحب السعادة، يعرضني للخطر إذا لم أستمع إليه، عقلي هو عقلي). ونقر (كارلو) جبينه مرتين: (عقلي يفكر لي، ولدي ثقة كبيرة به).

وكاد (رودومونت) أن يضحك:

- (يعرّضك للخطر، يعرضك للشبهة. . .).

- (إذا ما أردت أن تقول بأنه يعرضني للخطر وللشبهة فقل هكذا).

أضاف (كارلو مانيو) بصوت بارد، وزم شفتيه كما لو أنه أراد أن يضحك ضحكة مريرة: (ربما أنك محق، عقلي رحب جداً ويحتاج إلى أن يحلل كل شيء ولا يبتلع شيئاً، ولا يثق قبل كل شيء ويتساءل دائماً لمرة ولمرتين، وكل إجابة بالنسبة له سؤالاً جديداً...).

وتابع (رودومونت) ضاحكاً باستهجان، وأطاعه أمينا السر:

- (ولهذا السبب ينبغي عليّ أن أصوّت كل خمس دقائق يومياً، أما نعاجك فيصوّتون مرة واحدة فقط كل خمس سنوات، ودائماً يصوّتون وبنفس الطريقة... ومن دون فائدة).

إذ ذاك استشاط (رودومونت) غضباً من هذا الكلام، ومع ذلك بذل قصارى جهده من أجل أن يبدي انطباعاً على أنه لم يتأثر كثيراً:

- (أتريد أن تتصرف كمواطن خاص يا سيد كارلو مانيو...).

سخر منه بابتسامة مريرة. استنتج (كارلو مانيو) أنه تكلم بما فيه الكفاية وتوقف.

- (لا أحد خاصاً، لا أحد، حتى أنت، الكل متساوون، هل فهمت؟). ولم يكن صوته ليرتفع أكثر.

- (هكذا ينبغي أن يكون يا حضرة (رودومونت)، ينبغي علينا جميعاً أن نكون متساوين، هكذا تقولون أنتم و هكذا يقول الآخرون من فوق منبر الوعظ، لكننا لسنا متساوين).

غمغم بصوت مهذب وبضحكة تسمع تقريباً في صوته.

ـ (ماذا يعني أننا لسنا متساوين؟).

ظل (كارلو مانيو) صامتاً.

ـ (أخبرني، أخبرني ماذا تعني، ماذا تعني بهذا؟ ألسنا متساوين؟).

ـ (أنت تعرف مثلي بأننا لسنا متساوين...).

بدا حضرته على استعداد لأن يلعن ويشتم وطفحت على وجهه علائم التذمر والامتعاض: (أخبرني، أخبرني ما دمت قد بدأت تتكلم.. الآن، الآن، يجب أن تواصل).

عاد (كارلو) فتذكر أمه وطلب إليها أن تعفو عنه وقد كاد أن يخترم كلمتها. الآن حضرته في طلب الإجابة وكان عليه أن يتلقاها: (لسنا متساوين يا سيد، نكونُ متساوين حين نتكيّل جميعاً بمكيالٍ واحد، أنا على سبيل المثال أنفقت وقتاً طويلاً في انتظار أن يفتح ذلك الباب لأدخل وأتكلم إليك، ولأنك أنت الذي دعوتني، من التاسعة صباحاً، أتعرف ما هي الساعة الآن، وأنا ما أزال هنا).

كان (رودومونت) قد طفح غضباً، لكنه وقع تحت وطأة الفضول وتركه ليتكلم أكثر:

ـ (لو كنا متساوين إذن لما كنت خلف تلك المنضدة، وأنا على هذا الكرسي يا حضرة (رودومونت) أنا أتقطع في العيش، بالكاد أستطيع العيش، وأنت تعومُ في الثراء، أنت تمتلك سائقك وأنا لا أملك حتى سيارة، أن مرتبي قياساً بمرتبك شيء مثير للضحك..).

ـ (تافه، متغطرس، غير خاضع).

سخن (رودومونت) في الوقت الذي خبط بيديه الاثنتين فوق المائدة.

وقف (كارلو مانيو) فجأة وخفض رأسه: (الصبر، الصبر، ينبغي أن تتصرف بالصبر مع الأطفال، لأن الأطفال لا ذنب لهم مطلقاً). كانت أن علمته أمه وكان هذا الكلام بين غدوٍ ورواح مثل موجة مذياع وهو يرى إلى الوجه الغاضب ذي العروق النافرة والمحمرة، الوجه المحبط والمهزوم في دوائر دخان سيد مترف ومثر يفوح وينتن:

- (وماذا أيضاً؟ ماذا؟ علمنا، علمنا أنت إذن ودعنا لنعرف كيف تكون المساواة، أني لآمرك أن تتكلم، تابع).

- (نكون متساوين حين يكون لنا جميعاً مرتباً واحداً ويكون هدفاً لنفس الحقوق والواجبات، إنك أنت نفسك وأصحابك بإمكانكم أن تفعلوا ما تريدونه، في الوقت الذي يكون علينا أنا وأصحابي أن نطأطىء ونخفض لكم رؤوسنا، وإلا فلن نعيش، لماذا، لماذا يتوجب عليّ أن أقول لك أشياء تفهمها مثلي؟).، وتمنى أن يتوقف عند هذا الحد، وتمنى أن يتابع أكثر: (لا أشعر بأني مخطىء، ولا أشعر حتى بأن العقوبة التي تعاقبني بها حق).

- (أليس حقاً؟، أنت الذي سيعلمني العدل؟).

سأله بصوت ساخر، وتابع (كارلو مانيو) بعد مضي فترة صمت قصيرة: (لو كنا متساوين لأمتلكت الحق في أن أوقع عليك العقوبة أيضاً، لكن بالنسبة لك يا سيادة وصاحب الفخامة من سيقتفي أثرك؟ من سيتعقبك؟، لا أصحابك ولا حتى أولئك من تفكر بأنهم ضدك، لأنه ليس بمستطاع قبعة أن تميل قبعة أخرى)[81].

(81) القبعة لا تميل الأخرى kappell ma imejjel iehor: مثل مالطي، والمقصود الحزبين، مقابل للمثل (أيتعاركن لرياح ويجي الكيد عالصارى).

- (أتعاقبني؟ أنت؟).

قال (رودومونت) ولم يستطع أن يحتمّل أكثر.

- (إني لأستشهد بكلامك، أنت قلت بأن الكل متساوون، أعني ما يجب أن ينطبق علي ينطبق عليك أيضاً، وإذا لم ينطبق عليك فهذا يفسّر أما لأنك لا تخطىء قط، أو أننا لسنا متساوين، ولتختار. . .).

كانت عيون أميني السر مسلطة على (رودومونت)، وكانا جاهزين في انتظار الأوامر في أية لحظة.

- (تافه، حقير، خائن، وعد وللجماهير، إذهب، إذهب إلى الخارج من أمامي، أنت ضدنا ومن ضدنا هو عدو للجماهير، أنخطىء نحن؟ نحن؟ خذوه إلى الخارج، خذوه)، ونهض على نحو مفاجىء دافعاً الكرسي خلفه ولوح بيديه الاثنتين وهمّ بأن يضربه، غير أن أميني السر أسرعا إليه فأمسكاه بكامل اللطف، وخرج (كارلو مانيو) من الغرفة بشيء من السرعة.

- (أطردك، أطردك).

- (لتطردني، اطردني، لأننا لسنا متساوين يا صاحب السعادة، وسوف تراني في الغد استجدى الصدقة في الطرقات، أمتلك أيضاً يدين اثنتين، ولم تمنحهما لي أنت، وسأتمكن من العيش، لكن لا تقل بأننا متساوون: وظل ماشياً بخطو مقيوس ونازل، وهبط الدرج ليخرج من الإدارة، وما كاد أن يتباعد كثيراً حتى مشى أحد أميني السر خلفه مسرعاً ووصله:

- (ارجع وانتظر قليلاً، وسوف أخبرك أين ينبغي عليك أن تنتظر، ليس بإمكانك الذهاب إلى البيت).

وعاد الاثنان معاً، وظل (كارلو مانيو) منتظر لوحده في الردهة، انتبهت عدة وجوه فضولية إلى أن مشكلاً قد حدث، لكن لا أحد رغب في الاقتراب منه، وكانوا أن أكلوه بالنظرات من بعيد ومن قريب، من فوق إلى أسفل وبالعكس متشوقين لمعرفة الذي حدث على وجه الضبط، وفرحين في الوقت ذاته على أن لا علاقة لهم به. بعد قليل اقترب منه أحد أميني السر من جديد وطلب إليه أن يذهب في الصباح إلى العمل وفي مكتب آخر: (أعطاك انتقالاً أيها الصديق، إن حظك لحسن وإلاّ لانتهيت مطروداً).

قال له.

- (إذن فسوف لن يطردوني؟).

سأله (كارلو مانيو) بانكسار، ولما كان أمين السر مدهوشاً وخائفاً فلم ينطق بكلمة واحدة.

- (اسمح لي يا أماه، أعرف إني لم آخذ بكلامك).

تمتم لوحده وهو في طريقه إلى البيت: (إنك محقة، لكن بالضرورة أن ينفذ الصبر ذات مرة ولا بدّ لكلمة الحقيقة من أن تقال، الكلمة التي يتفق عليها الجميع، حتى من يقاتل من أجلها يا أماه، هو يعرف بأن الحق معي لكن ليس بمقدوره أن يعترف دون أن يتكسّر هو أيضاً. فقط بالصبر لم يكن يعرف بأني أعرف، ولهذا كسرت كلمتك هذه المرة يا أماه، ولو كانت الدنيا ممتلئة بأناس من أمثالك.. إذن لأنقرض واندثر جنس أصحاب السيادة والمعالي منذ زمن طويل).

ما أن دخل (كارلو) البيت حتى وجد الكلب في انتظاره بعينين اثنتين مليئتين بالتساؤلات والجوع يقرأ على وجهه.

ـ (تشربرو، تشربرو، هيا إلى هنا، ودعني أسرد إليك القصة كاملة، ونحتفل بانتصاري على صاحب السعادة، اليوم سنأكل أكلة خاصة، على شرفه ومن باب ردّ الجميل له لما أبدى من مظاهر الإشفاق والعطف ولم يطردني أن سيادته ذا قلب طيب للغاية، وكم أنه يتمتع بسلطة. ألا تذكر يا تشربرو حين شجعتك على أن تدخل السياسة؟ ومن يدري؟ لو تضامنا كأصحاب أنا وأنت، أنت تأمر وأنا أطيعك، لكن وبما أني سأكون ذراعك اليمنى فسوف آمر وأطيع في آنٍ معاً، فمتى، متى يا تشربرو تسمع مني وتشق طريق يمنك السعيد؟ إني لأطعمك من غير فائدة.. أعيد وأكرر وأعيد لك بأنك وبالنباح الذي تعرف تنبحه جيداً مؤهل من غير شك لاكتساب أجمل وأرقى وضعيّة ومكانة أمامك. لكن رأسك يابسة، وتفضّل أن تحتفظ بملكاتك وقدراتك الذهنية هنا، في هذه الغرفة. إن الوطن يا تشربرو لفي حاجة إليك، وأنه ليدعوك. دعني أقول لك هذا لأكون قد قلت لك كل شيء، أنه ولكي توفق ينبغي أن تربي جلدة قوية ومشدودة، وينبغي أن تبحث عن المبررات وتتعامل وتفسر كل شيء بالمقلوب، وتدفع الناس إلى انتظارك حين ترسل في طلبهم، وتبدي لهم انطباعاً بأن لديك دائماً ما تفعله، المهم يكون عليك أن تتبدّل من فوق إلى أسفل شريطة ألا تضيع صوتك).

كان (تشربرو) يحس رغبة شديدة وملحة في أن ـ يبحث عن ما يأكله، وهكذا أخذ يلف ويدور في كل مكان من الغرفة، عصبياً وعلى وشك أن ينفجر غاضباً.

ـ (لا، لا، يا تشربرو).

عاد (كارلو) مفكراً من جديد: (من الأفضل أن تظل كما أنت عليه، وهكذا تعجبني أكثر)، ووضع أمامه صحناً ممتلئاً أكثر من المعتاد:

- (كل، كل، وفي صحة قلب صاحب السعادة الطيب لأنه ومثلما كانت تقول لي أمي: مطلقاً لا ذنب للأطفال).

12

* تثير في ا نطباعاً بأنك لا تحس بالحاجة للحب مثل أحد آخر يا كارلو، وكما لو أنك إنسان يعيش من أجل لا شيء وأكثر من ذلك. إنك لتعرف بأنك تعيش في عالم يريد كل أحد أن يضعه في حوزته، كل أحد يكسب ويزيد من كسبه، ويكدّس، وما يزال تفكيرك في الأفكار وكأنك ستصل بها مكاناً ما). قالت (سيليفيا).

- (أحياناً أشعر بأني أحبك عن بعد، وكأنك شيء بالإمكان أن يكون للجميع لأنه ليس لأحد).

إذ ذاك داهم (كارلو) إحساس بالخطيئة وخاله موجة من برد تدور حوله، فيما تخلّل وخز خفي وغير بالغ الشدة كامل جسده، ولو كان بمستطاع يديه أن تنفذا داخله من الجلدة إذن لمسه أيضاً وانتزعه، وكان أن تذكر الصقيع الذي اعتراه حين ارتمى فوق قبر أمه وعاد فأحس الندى يخترق لباسه وينفذ إليه. كل شيء كان مثل ذلك اليوم حين تحادثا طويلاً هو وأمه، وقالا كل شيء، ثم ظل صامتاً بعدها وما نطق ببنت شفة، وتابع سيره قليلاً من أمامها. كان المطر قد انقطع لتوه، وانبعاث رائحة الطبيعة عابقاً بالإمكان أن يشم، بل

أنه ليبدو للعيان، وكان (كارلو) أن أبصرها كرة زجاجية تلو أخرى تومض وتلمع وتنبرم منسربة من فوق الورقة متوقدة إلى التربة التي لا ترتوي كثيراً وتتشرب حيث العروق هناك في الأعماق، جميلة ولطيفة وهوليّة mostri[(82)] متيبّسة وناعمة وطريّة، مفتشة الماء والمواد الكيماوية، وتخيّل أنه يراها مشربة تنهض إلى السطح ومصبوغة بلون التربة، باحثة وتبحث دائماً عن المزيد. أن في سراديب الموتى تلك المتشابكة والمتداخلة، مخبأ الثروة والطاقة ثمة عدّاً من حيوانات من غير ما ذريعة وذات عالم لا يحدّ، وإنك إذا ما ألقيت على الأقل نظرة عن قرب إلى سطح التربة فسترى كيف تتبدى لك أحاجي مذهلة وغريبة. اقترب (كارلو) من (سيليفيا) وضمها إليه ومشى معها. كان في عيني هذه المرأة شيءٌ من العروق أيضاً، حياة كانت ومختبئة، جميلة كانت من غير أقل سمعة مثل الأغلبية من الناس الذين يرفعون الدنيا ويدعونها لتدور من فوقهم دون أن يميل أحد ما أمامهم كي يدعونهم بنائين واستراتيجيين.

- (أنت مهمة أيضاً يا سيليفيا، مهمة أكثر مما تفكرين، لا تظنين بأنك غير مهمة بالنسبة لي). همس في أذنها وقبّلها. تبسمت (سيليفيا) بسخرية ولم تقل شيئاً لفترة قصيرة ثم نبشته بعد ذلك:
- (أكثر من أفكارك؟ أكثر من الحلم الذي تحلمه؟).
- (فكرة أخرى أنت يا سيليفيا وحلم أيضاً، بل حلم أنت وفكرة هامة. كل شيء فكرة وحلماً ـ هذه هي حقيقتنا حتى إذ لم ننتبه، نظن بأن كل شيء نماذج وأرقام وأعداد ووقائع، لكن في داخل هذه جميعها الفكرة الحلم).

---

(82) الهُولة monster: حيوان أو نبات ذو صورة أو بنية غير سوية.

قال لها.

- (هل تذكرتني حين كنت أمام رودومونت؟ لا ألومك إذا لم تهتم بي، لأنه وكما تعرف لست شيئاً ذا معنى أمام إنسان مهم مثله). أثارته بجدية.

- (ألا ترين كم هي مهمة الأفكار؟ إن هذه فكرة خاطئة ينبغي أن تبحثين عن وسيلة لانتزاعها من دماغك، اقتلعيها، أنت مهمة أكثر من سيادته، ولأنك أكثر أهمية من الأرقام والوقائع فأنت فكرتي). أجابها.

- (لا تريدني أن أفهمك، ولا تريدني حتى أن أفهمك).

- (ليس ثمة ما يمكن أن تفهمينه غير نفسك يا سيليفيا، أنت جميلة ولطيفة وطيبة، إن العالم ليسمو بكثير من أمثالك، بأناس كثيرة وصغيرة من أمثالنا).

- (لهذا أقول لك بأنه ليس من سنبب يدعوك إلى أن تهذي بهذه الأفكار الكبيرة التي تتعبك وترهقك، إن الدنيا نحن الذين لسنا بالسادة وحضرات السادة ستدور بنا أيضاً وعلى نحو جيد). نصحته بلطف.

- (بنا تدور على نحو جيد وتدور بنا على نحو سيء، بالإمكان أن يكون الناس العاديون أيضاً مجرمين يا سيليفيا، لأن ثمة أناساً آخرين من العاديين يعبرون من فوق ظهورهم تاركين بصاماتهم ليصعدون في الأعالي، من فوق ظهورهم ويبدون عمالقة، لكنهم لن يكونوا عمالقة بل الأقزام الذين يوضعون في الأعالي، في القاعدة pedistall[83] ويبدون كما لو أنهم عمالقة، تماثيلاً

(83) pedestal: قاعدة (العمود أو التمثال).

ليست أكبر منا، مرفوعة فوق أكتافنا بحيث يتطلب منا أن نلوي أعناقنا لنرى إليها، ليسوا كباراً يا سيليفيا، الكبار ليسوا في الأعلى).

- (ألا ترى كيف أنك لم تتذكرني حين كنت أمامه؟).

أثارته.

- (بل تذكرت، تذكرت، ولهذا وحده تذكرت... رأيته قزماً آخراً أمامي، رُفع إلى أعلى ليلعب دور حزب العملاق لكنه ما كان عملاقاً، لذلك تذكرتك يا سيليفيا، لأنك موجودة هنا في خدمة الحزب الطبيعي الذي يخصك في الوقت الذي هو... مسكين..!).

- (لا وجود عندك للكبار يا كارلو مانيو).

قالت له بإجابة مدفونة لتوها في داخلها.

- (من المؤكد أنهم موجودون، لكن ليست هي السلطة التي تصنع إنساناً، بل القوة الداخلية، الهيام، الولع والقدرة الذهنية والعقلية، بذرة الإنسان، تلك فقط هي القدرة الخاصة، القوة التي نفكر بها في الأشياء ونبدّل الأفكار في الأشياء. إن الفنانين والعلماء والمفكرين هم الكبار، وهؤلاء موجودون هنا في الأسفل مثلنا، وسلطة صاحب المعالي هي العكس، خواء هو، قسوة ووجع القلب، فقر وعوز التفكير كي يواجه السوط عوضاً عن الشفقة والرحمة، والكلام المنمّق والمعسول بدلاً من العقل. إن قدرة القلب والعقل هي السلطة الكبرى والعظمى، لكنها ليست سلطة سياسية، تلك هي الجدلية بين سلطة الجهل العفنة وسلطة الحكمة العاقلة والمتزنة، الثانية تنتصر من أسفل وتخسر من فوق، والسلطة السياسية تربح في الظاهر لكنها فارغة من الداخل، فقط لتلقي نظرة إلى التاريخ، وانظر أي أناس أكثر

توقيراً وتبجيلاً هم اليوم، وانظر ما إذا كان صحيحاً إذا ما كانت سمعة ذوي القدرة هي ذات السمعة التي جاءت من الأمس وتظل اليوم وغداً في الوقت الذي تكون فيه سمعة السياسي هي سمعة اليوم فقط، لأنها في أيديهم، وما أن يجدوا من يدحرجهم من فوق القاعدة حتى يقعوا أرضاً ويتعفّروا بالتراب مثلنا ثم يعودون إلى دنيا العامة. لقد تذكرتك أيضاً يا سيليفيا لأنك امرأة طيبة، وأمام السيىء لا تفكر في السيىء فحسب بل عكسه أيضاً).

- (لكني لست امرأة خاصة، لست واحدة من أولئك الذين يمتلكون القدرة والقوة التي تتحدث عنها الآن). قالت له.

- (إذا كنت لا تمتلكين القدرة العقلية فتمتلكين القدرة على الانتباه لمن لا يمتلكها، وبتلك القدرة وحدها تتمكنين في الوقت ذاته من أن تساهمين في قدرة من يمتلك. مسكين صاحب السيادة، إنه لا يعرف فحسب بل لا يعرف حتى بأنه لا يعرف. خائن لنفسه بنفسه، خيانة محكمة الإِغلاق يا سيليفيا، ولقد تمنيته من قلبي أن يكبر قليلاً. إن أمي قالت لي جيداً: لا ذنب مطلقاً للأطفال). كانت (سيليفيا) تفهم جيداً، وكانت تدرك بأن نقاشات من هذا النوع لا تتفتق عن شيء آخر غير أن تؤكد وتثبت معرفتها له: دون هذه الأفكار ما كان بمستطاعها أن تفكر في (كارلو مانيو) وتفهمه. كان (كارلو) هذه الأفكار وكانت هذه الأفكار (كارلو)، وكانت أن أدركت وهي تتطلع إلى الحقول والمزارع الندية المخضرة أكثر من المعتاد والماء متوانياً ومتباطئاً يتقطر من فوق كل ورقة يانعة متفتحة محمّرة بالتربة المفلوعة والمتفجرة فاتحة داعية القلب إلى الانشراح بأنه وبعيداً عن

كل ما يبدو من شكل وأسفل قشرة الكون كانت ثمة أفكاراً لا بدّ لها من أن تبرز وتفهم، تفكر بالعقل الذي يمتلك العينين اللتين تنفذان وتصدان، لأن كل شيء يبدأ وينتهي بالعقل. كارلو كان محقاً: الأفكار هي كل شيء، فقر الفقراء المباعين دون أن يدروا على موائد المبتزين والمستغلين الممتلئة، ثروة الأغنياء الفائضة الذين يلعبون لعبة الحرية التي تدع كل شيء يراوح في مكانه، فمن فوق يظل (فوق) ومن تحت يظل (تحت). كان (كارلو) أن قال لها ذات مرة بأنه من زمن يسوع إلى الآن ما كان بمستطاع عقل ما أن يفكر بطريقة مختلفة عنه دون أن يخطىء:

- (يسوع أثار القلاقل كلها، ملك الصراع، حرك الماء الراكد) تذكرت أن قال لها ذات مرة. إن قوة المياه التي كانت متدفقة أيضاً وصخب واندفاع المطر اندفعا في سرعة واحدة مسوقة بقوة خفية قادمة من مكان ما بعيد كاسحة معها كل ما تجده في النصف، مياه فوق مياه قاصدة أي مكان آخر. كانت وهي ترى إلى الماء مندفعاً صاخباً تذكرت يسوع وكلام كارلو: (جاء يسوع ليسوق الماء الراكد، والتحريكة صارت موجة، والموجة تبدلت إلى بحر صاخب ومضطرب من الأعماق).

واليوم أيضاً وطوال ذلك المسير الهادىء كان (كارلو) قد قلب النقاش حول الشيء ذاته، ولم تبدّل له هي كلامه. تناول يدها اليمنى وضغط عليها بيديه الاثنتين:

- (ومع ذلك كله يا سيليفيا فإني على ثقة كاملة بأن القصة بكاملها تكتمل لتوها على نحو طيب، ولا يمكن لهذا الهيولي kaos[84]

(84) chaps: الهيولي: المادة اللامتشكلة المفروض أنها سبقت وجود الكون.

كله أن ينتهي بالهيولي أيضاً، إذ من الهيولي تخرج الأنواع، ومن الجو العاصف والرديء تبدّى الصحو رغم الجو العاصف، ذلك قانون الطبيعة، وليس بإمكان قانون الروح إلا أن يكون أيضاً غير الشيء ذاته، كل شيء واحد). قال لها في حين كان متطلعاً في عينيها، وخاف من أنه يخيفها لتوه بأفكاره.

- (قلت لك يا كارلو بأني لست امرأة خاصة. إن عقلي يفكر فقط في حيث تكون الحاجة التي تمكنني من العيش من يوم إلى آخر). قالت بنبرة اعتذار كما لو أنها أرادت أن تدعوه لأن يتكلم أكثر دون أن ينتظر منها أشياء كبيرة).

- (إن ذا لا يهم).

شجعها دون أن يترك يدها.

- (بل يهم لأنك قلت لي بأن الناس العاميين بإمكانهم أن يكونوا مجرمين لأن قوة صحتهم وانقيادهم يدفع الكبار إلى ارتكاب المذابح). إن كلمة (عامي) كان لها تفسيراً خاصاً بالنسبة له، وكانت خاصة مثل أي كلمة أخرى: (أعرف بأني قلت لك هذا، وإني لأخشى العامة).

- (لماذا؟).

- (لو لم يكن أولئك الذين يأمرون وأولئك الذين يطيعون لكان من حق الناس جميعها أن تكون (عامة)، ليس ثمة أحداً أكبر من آخر، لكن الدنيا محكومة ومقادة من أناس قلائل، الجريمة التي ترتكب دائماً ممن هو أكثر قوة، ومع ذلك فليست خطيئة أو ذنب من يرتكبها فحسب بل ومن يدعها لترتكب أيضاً، وحتى من يطيع ويخفض رأسه يكون قد ارتكب لتوه فعل وجريمة من

يأمر ويخطط، ليس بإمكاننا أن نكون (عامة) يا سيليفيا وإلا شاركنا نحن أيضاً في الجريمة). قال لها.

- (ينبغي أن تدخل بهذه الأفكار كلها السياسة. السياسيون ليسوا من العامة). اقترحت بابتسامة بها من السخرية بقدر ما كان لها من ثقة به.

- (أتريديني أن أكون صاحب سيادة يا سيليفيا؟).

قال لها في حين أنفجر ضاحكاً قدر ما استطاع، ثم عاد وتابع ضحكه بانسجام لا مثيل له: (أتستطيعين تخيل صاحب سعادة وسيادة أن يعلن هذه الأفكار ويتمشى بها؟).

- (ولم لا؟). قالت محاولة إثارته لكن بصوت حاد. تطلع (كارلو) إلى السماء وفرح لما رآها أكثر صفاءً، إذ كان السحاب يتناقص ويتبعثر وتعود الزرقة مطلة من جديد لتحطم كل رقعة:

- (إن السياسي لا يستطيع أن يعزل الغاية عن الطموح يا سيليفيا، إذا ما كان طيباً فعليه أن يرتشي ويفسد وإلا ينتهي وإذا لم يرتشي ويفسد فعليه وبالضرورة أن ينصاع إلى مطالب ورغبات من يحملون فوق الأكتاف حتى يظل بمستطاعه أن يقدم فروض الطاعة أيضاً للمصالح التي تمده بأسباب العيش).

- (الثورة التي تتمناها لا يمكن أن تتحقق قط، شيء مثالي ذاك الذي تتحدث عنه يا كارلو).

- (عكس المثالي هو العملي، وكلمة (عملي) تفسّر مرتشي) أجابها في الحال: (من هو عملي فعليه أن يربط احتراماً وتقديراً مع آخر وينتهي إلى أن يختار كل نوع كي يبلغ مبتغاه، وليس جيداً كل نوع، وهذا الاختيار في السياسة ما بين أنواع جيدة وغير جيدة

قد يفسر نهاية الطموح. في عالم الطموح ليس للمرء وقتاً ليضيعه مع الضمير).

- (إنك لتنتظر طويلاً يا كارلو).

قالت بنبر من خيبة الرجاء: (ثورة قوية وراسخة فكرتك تلك).

- (الثورة التي تبدأ من الضمير، أما ما عداها فليس غير تسويات وحلول وسط، ولو تحققت هذه لما وجدت الملايين التي تموت جوعاً، في الوقت الراهن لا يوجد هنا حتى صراعاً للتسلح، البطالة، العنصرية، الفرق الكبير بين الرأسماليين والشغيلة الصغيرة، الحروب الأهلية والعنف، كما لا توجد هنا أدنى خطورة، بحيث لو قام أحد ما بثورة يكون قد وضع في حسابه أن سيقوم بثورة في الثورة كي يصحح من أخطائه الجديدة. إن هذا هوالتغيير الذي ينبغي أن يحدث من الداخل يا سيليفيا، التغيير القائم على التعليم البناء والذي يعتبر بمثابة جريمة (العامة) ذاتها.

- (ما هي وضعيتك في العمل؟).

سألته لتقلب الصفحة. وكان (كارلو) أن تنبه إلى أن هذا الحديث أعياه:

- (أنت محقة، اعتقد أن هذا الكلام يبدو متباعداً للغاية عن شؤون الحياة اليومية، لكنه في الواقع ليس كذلك. إن القفص الذي نعيش فيه عودنا أن نأخذ كل شيء على علاته ونخشى الأسئلة، بل أن أسوأ ما في الأمر أن البلد عودنا على أن الأسئلة هي مضيعة للوقت. إن الأفكار يا سيليفيا الأفكار تلك هي الخطر المستوجب والذي ينبغي أن نبدأ منه كل شيء). توقف وتبسّم:

(كيف وضعيتي في العمل مثل قبل، مثلما كنت قبلاً، على ما يرام وغير ذلك، أعني لا هذا ولا ذاك، ليبعثونني أينما يبعثونني فسوف لن أتغير مثلما لا ولن يتغيروا. إن سيادته هدد بطردي وأنا وعدته أن أخرج اعتباراً من الغد، أن أذهب لأستجدي الصدقة في الشارع، إذا لم أعش بالمعاش المجموع من ضرائب الجماهير فسوف أعيش بنقود الناس المجموعة بيدي المفتوحة في الشارع. لا فرق، في عالمنا لا أحد يموت جوعاً يا سيليفيا. في هذا الجانب من الكرة الأرضية تموت الناس من كثرة الطعام أو بالطعام غير الجيد ـ فقط يموتون جوعاً في الجانب الآخر).

- (ألست سعيداً في العمل؟).

- (ليس من واجب العمل أن يخلق منك سعيداً، بل ليوفر لك النقود لتعيش، وما دمت أحصل على ما آكله أظل أعمل، لكن ليست هي الوظيف التي تضايقني، اليوم يمضي ويأتي آخر بعده، مثله تماماً...).

- (باستثناء اليوم الذي لا تذهب فيه إلى العمل).

إثارته (سيليفيا). كانت تعرف أن المشكل الذي أصاب (كارلو مانيو) نفسه فيه قادم من أي شيء أكبر بكثير من القرار الذي تسلّمه منهم ذات مرة، ذلك أنه وبدلاً من أن يسلك طريقه في الصباح الباكر إلى المكتب كان يتناول قصبة الصيد وينطلق إلى البحر. تلك كانت خطيئته الرسمية لكن ذنوبه كانت أكبر بكثير ومتسترة، وما كان بإمكان أحد ما أن يعاقبه عليها.

- (ذلك اليوم يا سيليفيا أردت أن أظهر بأني أنا، أنا أيضاً بإمكاني أن آمر، إذا ما كنت كأحد آخر، وإذا ما كان الشغيلة من

أصحابي متساوين فإنه من حقي ومن حقي أن أفعل ما يفعله أولئك المعتبرين كرؤساء لنا، لا أحد يعد خطاهم، أما الصغار فخطاهم معدودة، مدروسة، ومتحقق منها شبراً بشبر. إن الحرية ليست عقداً، لكنها الحق الذي نحصل عليه ونأخذه بأيدينا متى وكيفما نريد وأياً كان الثمن. أردت يوم حرية وأخذته. من عاقبني على نحو قاسي ومشين لم ينتصر عليّ، وكي يقلبني ويغيّرني فأنا الذي أدعه، بتصريح وإذن رغبتي، لم تكن لديه أقل شجاعة...) وتطلع (كارلو) من حوله ماداً نظره في انفساح الحقول الهانئة، المفصولة إحداها عن الأخرى من الجدران الخربة غير المتساوية والمبنية بصبر القرون وجلال الذي آمن بأنه وبصخرة فوق أخرى ينهض كل شيء. كانت السماء تصفو وتتجلى، وكانت العصافير التي تسف وتحلق هنا وهنالك كافية لتقوية قلبه الذي لم يكن سيئاً كله ومخطئاً فيما دفعه تغريدها وطيرانها المباشر من ناحية إلى أخرى في منصة فوق رؤسها بلا حدود وتنقلها من شجرة إلى أخرى إلى أن يغير منها ويحسدها.

- (الحرية) قالت (سيليفيا) وكأنها تطلق لتوها صلاة خاصة يمكن سماعها. لقد عاشت حتى ذلك اليوم كما استطاعت. كانت أن غادرت في زمن ماضي بيت أبيها وأمها وقررت أن تعيش في بيت لوحدها، لم تحلم حلماً بعيداً أكثر مما ينبغي وكل شيء كان يسير لصالحها ذلك أنها لم تنتظر طويلاً لا من ناحيتها هي نفسها ولا من ناحية بلدها. فكرت لكنها لم تفكر كثيراً. لقد أخذت الأشياء تتبدل على نحو ما منذ أن تعرفت إلى (كارلو مانيو)، لكن ليس كثيراً. لقد بدأت تدرك بأنه تحت قشرة الحقائق والمواضيع وتحت بريق النظر حركة الرجلين وتحت إيماءة كل يد

ثمة مخبأ ليس بمقدور أحد ما أن يلجه. إن هذا الشاب زاد من شكها لكنها لم تدعه ليستميلها كثيراً بحفرياته واكتشافاته: (الحرية). عادت قائلة.

- (لسنا أحراراً يا سيليفيا، لأن كل شيء مفصّل علينا لتوه، إن القفص الذي نعيش فيه صغيرٌ للغاية وحين نحاول جاهدين الخروج منه يعيقنا ويخدشنا. إن المشكلة ليست مشكلة حرية، صحيح أنها تأتي في المقدمة لكن يسبقها العدل. حين ينطبق العدل هنا على الجميع فعندئذٍ يكون بمستطاع حياة الحرية أن تبدأ، الحرية في القفص).

توقف وعاد متطلعاً إليها: (أتريدينني أن أتوقف قليلاً، أعتقد بأني تعبت من السير).

أشارت (سيليفيا) إشارة لطيفة برأسها وتبسمت له فيما انطرحا فوق الأعشاب الندية ولم يكترثا لملامسة الرطوبة الباردة. كانت رقعة السماء منبسطة فوقهما بالكامل، ستار ليس له حد تغرق فيه العيون وترحل معه إلى هناك، أي شيء من هناك إلى الفضاء لترى العيون؟ لماذا يحس العقل أمام هذا الانفساح بأنه صغير وفي لحظة واحدة يتكبر وهو يعرف ـ بأنه صغير؟. كان (كارلو) يتساءل دائماً: أن الحياة ليست لعبة نزوية لكن لأي سبب لإيجاب عن التساؤلات؟ آكل لأعيش لكن لماذا حين آكل لا أكون سعيداً؟ إنه لينبغي أن يعم الحق الجميع، لكن لماذا لا يسد الحق هذا الفراغ كله في الإنسان؟ لا ينبغي على المترف أو الموسر أن يوجد ويظل على قيد الحياة، لماذا تموت الملايين لتوها جوعاً لأجله وأمامه، لكن لماذا لا يكون المترف أيضاً سعيداً؟ أي شيء مخبّأ عن الفقير البائس والمتنكد في فقره غير العادل أو السوي ـ نكد وأسى وهوان المترف؟ إذا كان ثمة من إجابة فلا بدّ

من أن توجد في أي مكان آخر.

- (في أي شيء تفكر؟).

سألته بعد أن أبصرته مندهشاً لدقائق طوال بنظرته المدققة والمتفحصة في الزرقاء العالية:

- (لا أمتلك الحيلة لمعرفة ما يدور بخلدي يا كارلو).

استدارت والتصقت به، قبلته ومررت أصابع يدها اليمنى فوق شفتيه، ضغطهما، وظل هو مطبقاً فاه، مررت يدها مفتوحة عبر خديه وأحستهما باردتين فيما ظل محدقاً في السماء وكانت أن عادت فسألته. لم يكن ثمة صوتاً عدا زقزقة بعيدة لعصفور أو نباح كلب بعيد هو أيضاً. براح السماء وانغلاق القفص: أين هو منتصف الطريق؟ عادت فقبلت خديه ومررت بالتدريج أصابع يد واجدة عبر شقوق رأسه وكأنها تريد أن ترى إلى أين ستنفذ.

- (حين يكون الإنسان إنساناً، والحق للجميع ولا يتبقى ثمة ألماً وعذاباً اجتماعياً نكون قد فهمنا عندئذٍ بأن ليس لدي أحد منا ـ على الأقل ـ أقل حق أكثر من الآخر، حين تصير الإنسانية بكاملها أمة واحدة، ومواطنوا البلد يكونون مواطني بلد واحد، دون جوازات سفر، دون أناشيد قومية ودون حدود، حيث توزع الثروة بالتساوي بين الأخوة جميعاً عندئذٍ نكون قد فهمنا جيّداً الشيء الواضح والصعب الذي كان يذكر منذ ألفي عام. إننا ما نزال قبل التاريخ، حين يأتي العدل تأتي الحرية بعده، لأن حرية اليوم هي حرية من يستطع كثيراً وحرية من لا يستطيع: واحد يمتلك الحرية في أن يسوّط، وآخر يمتلك الحرية في أن يتسوّط).

توقف وأدار رأسه لها. إن صمت تلك اللحظة كان صمت من يري أن يدع العالم كما وجده.

ـ (إني لأنصت إليك، تابع).

طلبت إليه.

ـ (حين تتحقق هذه الثورة...).

ـ (التي تبدأ من الضمير).

قاطعته بابتسامة صغيرة. وتبسم هو الآخر:

ـ (لا، لا، ليست هذه الثورة الكبرى، هذه فقط ثورة سياسية، ما تزال تنقص الأقوى.. أقوى ثورة تلك التي أمرضت الفلاسفة والشعراء، بالعدل الاجتماعي وحده نكون قد فهمنا كيف نعيش ساعة الموت، وماذا بعد؟ تنقص الثورة التي نفهم من خلالها أن العدل يجلب النكد لكن النكد له عروقه الطويلة التي تتفرع وتمتد إلى هناك، بالعدل الاجتماعي نظل أيضاً محزونين، حتى المترف يعيش في القفص، وإذا لم يطرق أبواباً أخرى يظل محبوساً هناك. إننا لنحس بالجوع والعطش لكن الجسم لا يجيب عن كل الإيماءات. ليس بالخبز وحده..).

أمال (كارلو) رأسه وعاد فصمت.

ـ (أليس لديك أجمل مما تقوله لي؟).

طلبت (سيليفيا) إليه بصوت معارض تقريباً. كانت مرتابة في كم من رجال هنا، من الذين يجدون أنفسهم في الحقول حيث الصفاء والاعتدال عقب تقلب الأنواء منطرحين بكامل طولهم إلى جانب نساء جميلات ثم لا يفعلون شيئاً غير التفكير في أشياء مثل هذه. كان عليه أن يبرهن لها عن دليل واحد، الأمر الذي يدفعها لأن تنتبه لأول بريق عينيه اللعوب. إن الرجال يعرفون كيف يرون،

يتمنون ويطلبون والنساء يعرفن كيف ينتبهن ويقررن ما إذا كان (لا) أم (نعم) أن (سيليفيا) ما كان لها أن تقول (لا) لكارلو، وما خامر (كارلو) شك في ذلك. كانت تعرف أنه يحبها: (أنت واحدة من أفكاري). كان بمقدورها أن تسمع صوته يردد لها الكلمات وإن كانت قد تجادلت معه حول كلامه ذاته.

- (أنت تقول بأن الأفكار حقائق، وأنا شخص، إذا ما كنت فكرة فعاملني معاملة شخص، شدني، ضمني إليك، احتضني وعد فقبلني، خذني بكلّيتي ما دمت أنا فكرتك). تمنت أن ـ تطلب إليه بكلامه ذاته.

- (انظر قليلاً كم أنهم أكثر بعداً من هذه الأفكار أولئك الملايين من الناس الذين ما يزالون يفكرون في حل مشاكل الأحياء. أنظر إلى خطيئة الآخرين وكم هي أكبر مما تبدو، إنها ليست خطيئة اجتماعية أو سياسية بل خطيئة أخلاقية ودينية يا سيليفيا. إن عامة الشعب يخطئون أيضاً، ألا تفطنين؟ سألها. ظلت تفكر لوحدها دون أن تكرر سؤالها، ولقد تنبه إلى أنها متعبة، لكن التعب لا يفسر بأنها لم تتفق معه أو أنها ما كانت تحس أيضاً بالحاجة إلى إشراق يوم مختلف عن الكوكب بكامله. إنها لتدرك من صميم قلبها بأن تعب وكلال ومحدودية تفكيرها ونبع المفاهيم المتفجرة في داخله غير كافية جميعها على أن تغير من العالم، وحيث أن العالم يلف ويدور إلى الآن على ترسه الصغير المناسب فلماذا لا ينبغي عليه أن يواصل لفه ودورانه على عصور الفية سعيدة millenji[85] أخرى؟. لقد تذكرت حين كانت طفلة

(85) millennium: في اللاهوت المسيحي العصر الألفي السعيد (الذي سيملك فيه المسيح على الأرض).

صغيرة في مدرسة القرية حيث سحرتها كرة كبيرة بها علامات مرسومة كثيرة ومتشابكة ويتخللها كلام صغير صغير جداً من كل جانب.

- (هذه هي الكرة الأرضية يا أطفال).

أخبرتهم المعلمة بصوت عالٍ: (هذا هو عالمنا، العالم يدور ويدور كامل الوقت، ونحن لتونا ندور معه، يا أطفال، الآن ندور، نحن ندور لتونا..).

وبسطت المعلّمة أصابع يد واحدة على الجانب العلوي من الكرة الكبيرة ودفعته بقوة، فيما أخذت الكرة تدور وتدور والأطفال ينظرون إليها بأفواه فاغرة على وسعها، ولم يكن بمقدورهم أن يفهموا، ومن ذاك اليوم إلى الآن كلما رأوا كرة يستمتعون بمسها ويدفعونها قدر مستطاعهم.

- (أين موقعنا نحن؟).

سألها الأطفال بصوت واحد. أوقفت المرأة المطلعة والواعية الكرة عن دورانها المقاوم وأمسكتها بيديها الاثنتين بيد واحدة لم تدعها لتتحرك وبالأخرى أخذت تفتش ـ وعيناها مسلطتين فوقها والنظارة في منتصف أنفها، دوّرتها شيئاً فشيئاً مرة واحدة أو اثنتين أو أكثر، في البدء من الشمال إلى اليمين ثم بالعكس، تطلعت إليها عن قرب أكثر، هذه المرة بعينين مسلطتين أكثر فوقها و.. فتشت.

- (هنا، هنا نحن يا أطفال، هذه هي جزيرتنا).

- (أين، أين نحن، أين نحن).

عاد فصرخ الأطفال معاً.

ـ (هنا يا أطفال، انظروا إلى هنا).

قالت وثبتت سبابتها حيث كانت. نهض الأطفال جميعاً واقفين، ودفع كثير منهم مقاعد الدرس من أمامهم كما لو أنهم يتقدمون إلى الأمام.

ـ (انظروا، انظروا، ألا ترون؟).

ـ (لا، لا نستطيع أن نرى).

قالوا لها جميعاً. في البدء خرجت طفلة من مكانها ثم تبعتها أخرى حتى اقترب الفصل كله من منضدة المعلمة، وداروا دورة دائرية حول الكرة. كانت العيون الصغيرة تفتشُ وتفتش.

ـ (هدوءاً، هدوءاً يا أولاد).

طلبت إليهم المرأة العارفة في حين ظلت مثبتة سبابتها حيث كانت. وعاد الأطفال فطلبوها متلهفين من جديد:

ـ (لا نستطيع أن نرى، أين؟).

ـ (هوّن عليكم يا أولاد، هنا توجد، اطمئنوا، ألا تصدّقون؟).

ـ (نعم). أجابوا.

ـ (هنا توجد، اطمئنوا، الكرة كبيرة جداً ونحن صغار جداً، لكن ثمة أيضاً مكاناً لنا، كل أحد له مكانه، حتى الصغار، وفي الكرة حتى الكبار هم صغار، نحن صغار، ليس فقط لأننا نعيش فوق هذه البلاطة ـ انظروا، في منتصف بحر بلا حدود، لكن لماذا رحب هو العالم بالنسبة لنا، نحن صغار يا أولاد، صغار جداً لكن لتطمئنوا، كل محتفظ له بمكانه).

قالت المعلمة لهم بلطف لأنها رأتهم منزعجين، وكانت ترى إليهم وتعيد الكلام، وتحرك إصبعها فيما تحركت الكرة من حيث

كانت، وعادت فدارت دون أن تنتبه فيما ظلت تتكلم لوحدها إلى أن جرت البنات إلى مقاعدهن من جديد فرحات بالاكتشاف ومشوشات أيضاً، مقتنعات في الوقت ذاته أين يوجدن. وفي فترات قصيرة كانت أيديهن معقودة أمامهن ليسترحن فوق المقاعد.

لم يكن كالبارحة، لقد تباعدت السنون من (سيليفيا) كأنها عربات قديمة لا تتحرك قط وكما لو كانت غائصة في الأرض ثم تبذل بعد ذلك مجهوداً لتتقدم خطوة واحدة، ثم تنطلق مخلفة دائماً من خلفها زقزقة واهنة. والآن وعقب سنوات المدرسة التي طارت وتلاشت مثل هجعة ظهيرة هامدة وعقب أول مغامرات شبابها الحلوة بدت كرتها وكما لو أنها تعبت من الدوران وتوقفت وأصابت مكانها على وجه التقريب، ووقفت لها هنا قبالة (كارلو مانيو) الرجل الذي يعرف ويسأل لأنه يعرف بأن لا يعرف شيئاً.

تذكرت (سيليفيا) المدرسة، المرأة ذات المعرفة المختزنة دائماً في عقلها، ودائمة الإجابة على كل سؤال كانت تدخل الفصل مرتدية الأسود وشعرها مشدود إلى الخلف في شكل تسريحة ذيل حصان وعيناها الصغيرتان مزججتين بعض الشيء، مبتسمتين تتطلعان إلى الدنيا دائماً من خلف زجاج النظارة العتيقة، حقيبة الجلد الصغيرة، قرطا الذهب الاثنين القديمين، العقد الرقيق الذهبي المستريح فوق الصدر، والصبر، الصبر الذي كانت تمتلك منه كم تحتاج. إن تلك المرأة ذات تسريحة ذيل الحصان واللباس القاتم كانت ذات شجاعة وثقة بالنفس بالنسبة لسيليفيا، أما اليوم فتلك المرأة الكبيرة توجد بمكانين: في ذاكرة سيليفيا وفي واحد من قبور مقبرة القرية المنسية. ظلت غير متزوجة وماتت قبل أن تتخلى عن الأطفال بقليل بسبب الإحالة على المعاش.

- (فيما تفكرين؟).

سألها (كارلو): (الآن في حاجة إلى أن أسألك).

أثارها.

- (لا شيء، لا شيء). إجابته بابتسامة.

كانت حمرة الغروب أن غطت السماء بكاملها، وكانت هي أن تذكرت وتمنّت:

- (أتحبني؟). واستدارت إليه كثيراً لتحتضنه. كانت أياً كانت الإجابات عن أسئلته، إنها ما كانت تمتلك شيئاً غير حقلها، وتمنت ألا يأخذه منها أحد ما حيث بإمكانها أن تمشي فيه بكامل الراحة، وقبل كل شيء دونما أي تفكير كثير. في الكرة الأرضية ثمة فضاءات رحبة. تطلع إليها (كارلو) بقوة وبابتسامة:

- (أتريدينني أن أقول لك بأني أحبك؟).

- (نعم). أجابته: (من حقي أن أسمع تلك الكلمة من جانبك، إني لأقبلك كما أنت بمفاهيمك كلها، من فوق إلى أسفل، وعليّ أن أنتظرك...).

- (أتنتظرينني أن أكون إنساناً عادياً، السيد (كارلو مانيو) يكون عادياً، من يدري، فلربما أغيّر من اسمي أيعجبك أن تحبين السيد (العادي)؟).

ضغط يدها وجذبها إليه: (أحبك لكن كما أعرف وعلى طريقتي، لتطمئني، لو لم يكن ثمة حباً في العالم لكان علينا أن نخترع عوضاً عنه أيما شيء، لقد لمست كثيراً أي معنى لفقدان الحب

لأتعلم أن أحب، على الأقل كي لا أكون مثل أحد آخر).

- (لتنس الآن يا كارلو كل ما تجاوزته).

اقترحت عليه.

- (أنسى؟ ليس بيدي أن أنسى، أن عقلي يفعل ما يريده بي وليس بمقدوري أن آمره دائماً، حين يتيقظ وينفلت - الحق أقول لك - أرى ألا أوقفه، أي قيمة لحصان لا ينهض على ساقيه الخلفيتين ويعلو قليلاً؟ أود أن أقول بأني قررت أن أعود فأرفع رأسي، أفكر بأني سأتكلم مثلما أحس، وهذه المرة سأفعل كل ما بوسعي لأتيقن من أن يُسمع صوتي).

تبسّمت (سيليفيا) في الحال ورجعت فبدت عليها مظاهر الجدية في مرة و احدة: (دعك من تلك الأشياء، عش حياتك هائناً وفي هدوء ودعك من الأعداء، ستقول بأني فاترة الشعور وغير مبالية، هكذا أنا وسعيدة، ليس ثمة أعظم وأجمل من السلام).

- (هذه المرة هم الذين سيخافونني، سأريك كيف أن السيد العادي بمقدوره أن يتصرف بطريقة السادة وحضرات السادة).

- (ما الذي تخططه في ذلك المخ المقفل).

- سخرت منه بدافع الفضول في حين مررت سبابتها على جبينه: (أي شيء في الداخل؟ أتمنى أن أدخل فيه وأرى كل شيء كل شيء...).

- (حتى أنا لا أعرف ماذا هناك يا سيليفيا، أعرف فقط بأني أحس أشياء كثيرة، وأحس بالنقص إذا لم أكتشفها، هذا البلد بارد جداً، كل يمرّ عليه صغير ومتفاخر، ثرثار وصامت، يقاتل

ولا يعرف ماذا يريد).

- (يعرف، يعرف يا كارلو، يريد أن يعيش كما هو عليه، هكذا دائماً عاش أباؤنا وأمهاتنا فوق هذه البلاطة الصغيرة سعداء، إذا كانوا جائعين يتذمرون وإذا وجدوا من يطعم يلعقون له يده مثل كلبك).

وكادت (سيليفيا) أن تضحك لكنها لم تجازف.

- (تشربرو، تشربرو). قاطعها بلطف: تشربرو لا يلعق لي يدي، لأنه يمتلك الحق مثلي في أن يأكل ويشرب ويعيش هانئاً، إذا ما أطعمته فذلك من واجبي لأن الكون يربى ومتكفل بنا جميعاً، حتى تشربرو تيقظ لكلامي، وأنه ليعرف حقوقه أكثر من العديد من البنى آدميين الذين يعتقدون بأنهم قد أطلعوا أضراس العقل). ثم توقف منتظرها أن تسمح له بالمواصلة، وظلت سيليفيا: محدقة فيه منتظرة:

- (هذه المرة يا سيليفيا سأتحداهم وبشكل مرير وقاسٍ وسوف ينبغي عليهم أن يقبلوا بالتحدي).

- (دعك من السياسة، أنها لا تخصك ولا شأن لك بها، لست مؤهلاً لدخول مجتلد الصراع، إني لأعرفك جيداً بحيث لا أدعك تعارضني، ولا أدعك حتى تتحرق، إن جلدتك لم تقوى كما ينبغي). أنذرته.

- (سوف لن أدخل ا لسياسة، إني لأبغض المشايعة بغضاً مقيتاً كي لا أغطس فيها، وإنك لترين كيف أن كل أحد يريد أن يكون مشايعاً، وكل أحد يتخذ مكانه في جانب أو آخر، كما أني أعرف أيضاً بأن كل كلمة وكل فعل يقاس ويعتبر على الفور

مشايعاً. كل أحد يقيس بمقاسه وفي هذه الجزيرة ثمة خطأ واحداً فقط: اللون. إن عنصريتنا لا شأن لها بلون الجلد بل بلون الحزب، ثمة لوناً يولدونك به في العائلة وتلك هي الشعيرة Quccija[86]: أي لون ستختار ما أن تفيق إلى رشدك، وما أن تختار أمام الجميع حتى تكون قد اتخذت القرار النهائي، لكن هذا ليس مبرراً مقبولاً للصمت وهذه المرة سأريك أنه ليس كذلك. إن السيّد العامي يمتلك أيضاً استراتيجية أمام تحدى السادة الأثرياء أصحاب المعالي والفخامة).

- (أتريدهم أن يطردونك؟).
- (سأخرج لأتسوّل، لا أحد يموت جوعاً، ومن يريد أن يأكل فمن حقه أن يخدم على خبزه، إن المتسول شغيل جدير بالتقدير والاحترام أيضاً، وإذا لم يوفق بالتسول إلى شيء فمن حقه وواجبه أن يسرق. إن فائض السادة ـ الأغنياء موجود ومتوفر هناك ليسترد، وعدو المتسول ليس حزباً أو آخر بل النظام الذي يبل كل أحد إصبعه فيه متى وكيفما يتفق).

كانت (سيليفيا) واثقة من أن (كارلو) ما كان ليمزح وودّت أن تلاطفه وتمازحه لكن تفكيرها شيئاً فشيئاً أخذ يذهب أدراج الرياح.

(86) طقس لكشف طالع الطفل في عامه الأول: (توضع له في قفة أو سلة عدة أشياء، يلتقط إحداها كأن تكون قمحة مثلاً فيعتقد أنه سيكون فلاحاً. عادة لا علاقة لها بالتخمين من أن تكون إيطالية Cuccia التي هي وجار الكلب أو سلته.

13

* تنبه (كارلو مانيو) إلى أنه قد أمضى وقتاً طويلاً من غير أن يمازح (تشربرو) صاحبه الذي ما كان له أن يخطىء، والذي إذا كان ثمة من خطيئة قد أرتكبها فلأنه ينفق الوقت معه، ويتقاسمان السراء والضراء في ما بينهما إلى قسمين قد يكونان متساويين أو لا يكونان. أما (سيليفيا) فكانت مشكلة أخرى وأكبر بعض الشيء، وما تذكر مذ أن عرفها من فترة طويلة أنها قد دفعته ذات مرة إلى أن يتمنى بأنه ما عرفها قط. لقد تمنته أن يكون قريباً منها دون أن ترتبط به كثيراً ذلك أنها أدركت بأن الارتباط لا يعتمد على التفاهم الشكلي بل على الرغبة المتواصلة التي تتجدد من ساعة إلى أخرى. وفي بعض المرات كان بميسورة أن يقرأ أمنياتها ورغباتها الحرّى، وفي مرات أخرى فهم التدبّر والحصافة التي لا تعوزها قط، لكنها لم تستطع أن تكون الأجمل بالنسبة له، ولا حتى مختلفة ولا أكثر بُعداً أو قرباً منه.

- (هذه هي عائلتي الغريبة). فكّر عادة: (سيليفيا وتشربرو، الاثنان لي وليسا لي، وحدي، وحدي، معاً وفي وقت واحد أعيش لوحدي).

كانت ثمة العديد من الأشياء التي لم يستطع فهمها أولها هو نفسه: (لا أعرف ماذا أريد، لا أعرف، لكن أعرف بأني أريد وأريد).

كانت الساعة أن أعلنت الحادية عشرة والنصف ليلاً وما ساوره شك في أن (سيليفيا) قد طوت لتوها صفحات الكتاب وأطفأت المصباح ونامت. وحياه (تشربرو) كالعادة وارتمى في زاوية السرير وأخذه النعاس على الفور.

كانت (سيليفيا) سعيدة، هكذا كانت تردّد، تعيش لوحدها دون أن تدفعه إلى أن يغادر بيته ويقطن معها، لم تصر عليه، وأمنيتها كانت واضحة وضوح الضوء، إذن فهو الذي كان عليه أن يتقدم لكنه لم يوفق قط إلى أن يصل.

- (ثمة ما يشدني، أتمنى ولا أصل).

فكر أكثر من مرة، وكان مقتنعاً بأن ليس ثمة من حل للكرب الذي يتصاعد في داخله على نحو دائم غير الحب، فالسياسة قد ملها، مثل ناموسة ممرضة تدور في كل مكان، لا تبدو للعيان، تنقل المرض معها ولا يقبض عليها. البيئة تغم وتكبت مثل موجة حر دبقة، انغلاق جزيرة صغيرة، صغيرة مترنحة مثل قارب كسول لا ينقطع عن حاجز الأمواج ويذهب إلى الخارج. طوق كلاب أخرى نادراً كان لها وليس كطوق (تشربرو)، فتشربرو جسماً وعقلاً كامل النمو يقدر على السير لوحده كتفاً بكتف مثل رجل آخر مع صاحبه الذي يدعوه أحد آخر (سيّد). إنها لمقرفة جداً ومشينة كلمة (سيّد).

(السياسيون لا يمتلكون الحق في أن يفقدوني حياتي، أنهم هم الذين يرضعون دماء الآخرين ليسقون قنوات طموحاتهم، وليس

بإمكانهم التدخل في حياتي). قال لنفسه، لكنه يعرف بأنهم قد احتلوه وغزوة مثلما احتلوا وغزوا الهواء والشمس والقمر والمطر وكل شيء. كل شيء كان قد احتله دون أن يتمكن من الهرب، على أن ثمة مكاناً ما قد تبقى - على الأقل - في داخله، الفراغ أين تمكن من أن ينثرهم ويطيّرهم ويضحك منم ضحكة تهكمية هي ليست من الضحك في شيء. كثيراً كان يلعب بنفسه، وأمنيته كانت أحياناً على النقيض. ذهب وألقي نظرة على (تشربرو) واطمأن على أنه مستغرق في نوم عميق، وخرج من البيت دون حركات زائدة وقفل الباب وظل ماشياً. خاوية كانت الشوارع، وكانت تمرق ومن حين إلى آخر سيارة، ثم تختفي كما لو أنها لم تكن، ثم لا شيء بعد ذلك غير الصمت الذي بالإمكان تقطيعه بالسكين، والظلمة المكسورة والمتقهقرة شيئاً فشيئاً في وجه المصابيح الكهربائية النافثة ضوءاً واهناً في كل زاوية.

- (الكل نائم، الكل يحلم). قال. كانت الظلمة قد لفعته منذ زمن طويل وما عرف كنهها بعد. جديداً كان كل ليل، مختلفاً عن سابقه، غامضاً ومشبعاً بشبهات جديدة لليل المتخفي والآتي.

خاوية الشوارع والأبواب موصدة، وثمة على الأرجح نافذة واحدة مضاءة، شق ضوء رقيق من باب المصراعين المقفلين، مثل ذلك النهار الذي احتشد فيه الجمع كله في ميدانين اثنين كبيرين، وفي وضح النهار ما بعد منتصفه في الاجتماعين اللذين ذهب إليهما كل أحد، في هذا الليل أيضاً كل شيء كان لا شيء، الكل مختبىء في انغلاق الحجرة المظلمة، وهكذا كان عليه أن يقف ليفكر كل يوم في ساعات ما بعد منتصف النهار الهادئة حين يعود فيختبىء الجميع ليرقدون رقدة حر الصيف القصيرة أو التوقف عن العمل في الشتاء.

ما كان ليداعب عينيه النعاس إذ كان صمت ما بعد منتصف النهار يبعث له أيضاً ملاحظات الجرسين الاثنين العتيقين من البرج العتيق قبالة غرفته. كل يوم، كل يوم، على تمام الثانية بعد الظهر، دائماً في الثانية الثانية، الثانية، جرسان عتيقان يصاحبان جثماناً داخلاً كسنيسة القرية للمرة الأخيرة.

إن الجنس يتضاءل كامل الوقت، كان يتذّكر ولولا وجود هذين الجرسين الاثنين (كان يفكر): إذن لتلاشى الجثمان كما لو أن شيئاً ما كان ودونما أدنى وداع من الآخرين الحيين المتطلعين بفضول ليرون كيف يكون الموت في شكل تابوت على الأكتاف. كل يوم في الثانية بعد الظهر، حصانان مجلّلان بالسواد على رأس كل منهما ريشة طويلة، حصانان جميلان ومبتهجان وعربة غاية في الطول يلفها الزجاج من كل جانب، وأسود أيضاً، كله عمل خشب بعصابات مكسوة بالذهب، وأربع عجلات كبار، الخلفيتان أكبر بعض الشيء من الأماميتين والحوذى معتمراً القبعة الرسمية وربطة العنق مثبتة قليلاً إلى عنقه وزر القميص الأول مفتوح. كل يوم في الثانية بعد الظهر.

ظل (كارلو مانيو) ماشياً، وكان وقع الحذاء المتساوق يخيفه أحياناً، وكان هذا خوفاً خاصاً. في العادة كان يخاف من أفكاره، وهذه المرة أخافه الصمت بل من الصوت الذي يغرق الصمت.

(من يدري لو أني أصرخ بالليل، الآن وأدفع بالناس لينتزعوا من فوقهم الأغطية ويخرجون متطلعين، الآن أيضاً يعمل السياسيون، يريدون أناسهم راقدين ولو يأمرونهم بأن يستيقظوا لاستيقظوا في الحال).

ضحك لوحده. لم يكن واثقاً ومقتنعاً من هذا كله بل ولم تكن

حتى أفكاره ملكيته المؤكدة ذاتها. لقد كانت في أحايين حكام عقله الذي يمتلك الجرأة ليفكر له ويلمح له فيما يفكر. أخافه الصمت ورغبّه أحياناً بل كان الشيء الذي رغبّه أكثر وعلى نحو قاهر.

(أعرف الذي أريده، أعرف الذي أريده).

صرخ ملحاً وفي مرة واحدة، وكان أن يذل قصارى جهده منذ وقت طويل كي لا يهتم ويتعلم أن يعيش الحياة على سبيل المزاح، هكذا مثلما يعيشها الكثيرون من حوله. إذا كان ثمة حياة فعشها ولا تسأل، إذا كان ثمة حزباً فاحجز مكانك ولا تتذمر، وإذا كانت ثمة امرأة فحبها ولا تنتظر أكثر، وإذا كان لديك كلباً فاطعمه واهتم به ولا تتكلم معه. اللامبالاة، الامتياز الكبير، فتور الشعور.

كان في حاجة وقبل كل شيء أن يكون ريبيّاً xittiku[87] ويفهم ما لا يستطيع فهمه، لأن الحواس أخذت تسخر منه سخرية متكبرة كامل الوقت، وكان أن تمكن بهذا الامتياز من أن يرى إلى الناس وإلى الحياة بلا مبالاة المطلع والعارف الذي يظل بارداً رابط الجأش أمام كل حاجة وليس ثمة من حاجة كانت وتكون معروفة ذات مرة من تلقاء نفسها:

- (قد يكونون على صواب وأنا مخطىء لأني أحكم عليهم، وإذا لم أظل متظاهراً بأني أفهمهم، بل ولربما أفهم بأني لا أستطيع فهمهم، أو أنه ليس من شيء أفهمه عنهم، من يدري، من يدري؟ من الممكن أن يكون هذا هو السر).

عِلّم نفسه في حين ظل ماشياً، لكن الارتياب ربيّ العروق منذ

(87) Sceptic: القائل بمذهب الريبية (ما بين 300 و 200 ق.م).

أمد بعيد. كارنياديس Karneade[88] كان يعرف من هو كارنياديس الذي تيقظ منذ قرون طويلة إلى أنه ليس بمستطاع العدالة والسياسة أن يلتقيا معاً.

(ليس بمقدورك أن تكون ريبياً يا كارلو مانيو، لا تستطيع).

قال غاضباً من نفسه في نبرة توبيخ: (الريبية نوع آخر من اليقين الذي يقود إلى اللايقين).

(تبقت لديك فرصة في أن تكون رواقياً stojku)[89]. قال محدثاً نفسه: (ينبغي أن تعرف ذاك الذي هو طيب، تعرفه في عالم الطبيعة لأنك لست مقطوعاً عن العالم، بل إنك العالم نفسه، الطبيعة، ثمة الطبيعة، ولعله من الخير أن ليس بالمستطاع أن تكون معروفة جيداً، وهكذا فهم على صواب مشوشوا ومخوضوا الطبيعة، الذين وهم يعومون في هذا البحر كله يدركون بأنهم يتعين عليهم فعل ذلك. الحلم، الهذيان، المفاهيم ضد المفاهيم، الألوان جميعها... لا، لا، محقاً كان أراكليوس Eraklitu: في هذا التعقد والتشابك الكبير، القوة القادمة من النار، المادة التي ينبغي أن تسحقها النار، الشك الذي يقهره اليقين، الله، الله، أين أنت يا الله؟ هل رقدت أنت أيضاً الليلة؟ شرارة يا مولاي هو، هذاالعقل من المشعلة التي هي أنت، فلماذا، لماذا لا ينطفىء؟ اللامبالاة، اللامبالاة، هبني اللامبالاة...).

لم يلمح وهو ماشياً أية طريق أخرى قط. لقد بدت له الفلسفة

(88) Carneades: قورنيي (214؟ ـ 129؟ ق.م) فيلسوف ترأس الأكاديمية الجديدة في أثينا حين بلغت الجزمية الريبية المضادة أوج ذروتها. من حقبة الأكاديميين الوسطى.

(89) Stoic: من أتباع الرواقية، مذهب فلسفي أسسه زينون السيني الفينيقي في القرن الرابع ق.م.

الشيء الأكثر عملياً والذي يدركه، رياضة العقل الضرورية، والرياضة هي شيء ضروري للغاية كي لا تتكاسل وتتبلد أعضاء الكائن الحي، وترقد القدرات، إذ أن القدرة النائمة ضعف.

كان عليه أن يعيش وفقاً للطبيعة لأن قوانينها قوية وصامدة وليس بالإمكان قهرها، والأفكار كانت وتكون نفس الطبيعة وأرقى وأعظم قوانينها الحرية، الصراع ضد الأهواء التي تعمّش الأفكار حتى تعميها. أن الأحزاب تلك هي الأهواء لكنها ليست فقط لوحدها، بل ثمة رقعة أرض تتوسطها، أرض خصبة تفصل ألماً قاهراً عن ألم قاهر آخر، رقعة الأفكار. إذا ما وطأ ومشى تلك الطريق الضيقة، المجاز المتزاحم والمتداخل وغير المنتظم بين طريقين اثنتين يبدوان مباشرتين وناعمتين بالزفت فقد يكون قد فهم ما الذي كانته المزية أو المنقبة. الطريق المباشرة التي تظل مباشرة بين الطيب والخبيث وانقلبت إلى الأولى، فماذا كانت الأولى وكيف تصل إليها؟.

ظل ماشياً وأدرك أنها كانت فقط الطريق الواطئة واليابسة والمظلمة والصامتة التي لم يستطع أن يعبرها، ولن يعبرها دون أن يقذف بأهوائه جميعها ثم يجدها بعد ذلك في الهدوء والسكينة، وبحساب وتخمين العقل في الليل.

- (يا لي من متجرّىء Pruzuntuz). انتهر نفسه: (هذه طريق مثالية، غاية في الصعوبة بالنسبة لك يا سيد كارلو مانيو). تذكر حين حذره ذات مرة واحدٌ من جماعة معالي الحزب الأحمر كي لا يكون مثالياً فصدق الأزرق كما حذّره واحد من أصحاب فخامة الأزرق بأن لا يكون مثالياً ولم يصدّق كثيراً. ضيقة هي طريق النصف بين أرصفة الأهواء الواسعة والعريضة: أين كان ويكون هذا المجاز؟.

- (الاتهام بالتجرّؤ شهادة على الخطيئة أيضاً، ومن يتجرجر وينسحب مع الأرض في حاجة وبالضرورة إلى مبرر لعدم مقدرته على الطيران. إن فقدان الطموحات كي يكون المرء مثالياً هو الستر الذي يغطي الجريمة، ذلك وكما لو أنها شيء أو حاجة طبيعية أن يكون المرء مجرماً أو أنها تجرّؤ على ألاّ يحاول المرء أن يكون). فكّر.

- (الرواقيون محقّون).

ظل مردداً لوحده، اللامبالاة جريمة، واللامبالاة هي أعلى فضيلة. تذكّر حين قال لسيليفيا بأن من لا يهتم هو مخطىء أيضاً. إن الناس من العامة هم مخطئون لأنهم ليسوا بمتجرّئين، تصعد على أكتافهم البسيطة والمتعوجة الكاتدرائيات ذات حجر الكلس المرجاني. إن السيد العامي مجرم هو أيضاً. كان أن قال لتلك المرأة ذات الجمال، إنه لا مبالي لأنه متواضع، وهذا تواضع مذنب أن لا مبالاة الرواقيين كانت على العكس تماماً، تفهم الطبيعة وتبحث في أسبابها، ترى المادة وتمس بإصبعك طرف المشعلة التي تريد أن تحرق كل شيء. الله، يا الله، أين أنت، أيتها النار التي لا تنطفىء في هذا البحر كله؟ وحين تعرف النار تسرق شرارة منها مثل برومثيوس لتحرق بها كل مكان. أمام كل تحدى وكل خطر مستقيماً يظل من يمس هذه اللامبالاة، يتنكر للعائلة، يتوخى العزلة، يرى إلى بني آدم جميعهم جنساً من دم واحد حيث لا براني ولا جواني، بل الطيب أو الخبيث. يقع ثم يستوي قائماً، يقاتل ويخسر حيث يعود فيما بعد مصراً على الانتصار لأنه يقيناً يعرف بأنه سينتصر حتى إذا ـ خسر من جديد. قاتل، قاتل يا كارلو مانيو، لأن النار ينبغي أن تشتعل وتحرق كل مكان، وإذا ما أشرفت على الهزيمة فلا تستسلم واختم حياتك

بالكرامة كلها. إن الانتحار لعاطفة أيضاً وكرامة، إذن فثمة كرامة في العاطفة، أية لا مبالاة هذه؟. ترازيا Trasea بيتو Petu أغريبينو Agrippinu الفيديو Elvidju وبرسكو Prisku[90]، أين أنتم؟ لا أحد يذكركم الليلة، أيها السادة أصحاب المعالي المنسيين الذين تحيرون وتربكون أصحاب السيادة والفخامة المذكورين، الذين لن يعرضون لكم حتى صباح الغد حين تعود الشمس فتشرق وتنشر نورها وتدق المنبهات وتفتح الأبواب ويستيقظ الناس كي يكون الغد مثل اليوم واليوم مثل غد. كاتو kato[91] ذلك الجندي الروماني الذي لم يستسلم قط والذي وقف في مواجهة القيصر Cesri[92] دونما أدنى خوف. . تذكره (كارلو مانيو) فبما كان سائراً في طريق النائمين الهامدة، تذكره أيضاً وحياه، وما كان لهم أن يعلموه عنه في المدرسة لأن مثله لم يكن مثلاً عملياً ومفيداً لكنه عرفه على أية حال، لأن الضوء المخبأ ما يلبث أن ينسرب بين الشقوق حتى يصل ويظهر. تذكر (كارلو) كيف وقف في وجه كل نوع من أنواع الحكم الاستبدادي وقاتل مع بومبي Pompew[93] ضد القيصر[94]، وناضل

(90) Eraclius: رسام تاريخي ازدهر في روما حوالي 1000 ب .م، صاحب كتاب De Artibus Romanorum: الفن الروماني.

(91) من مجموعة الفلسفة الريبية التي هي حرباً على كافة أنواع الدوغماطية.

(92) كاتو Cato, Marcus Porcius: (95 ـ 46 ق .م) في أوتيكا Utica، الآن في تونس. حاول من غير ما توفيق أن يعيق تشريع قيصر للإصلاح الزراعي، سياسي متطرف في السناتو ضد الإقطاع وسيطرة القيصر، ويخلط البعض في التسمية بينه وبين أول كاتب للنثر اللاتيني (149 ـ 234 ق .م).

(93) Pompey: من أكبر رجالات الدولة في روما القديمة وخصم قيصر.

(94) Julius Caear: مكون أسس الدولة الأروستقراطية الإمبريالية.

معه حتى نهاية معركة فرسالوس Farsalја[95]، وأنفق آخر ليلة مطالعاً (خلود الروح) L-Immortalita tar-Ruh لأفلاطون Platun[96] وعشق الموت وجلبه لنفسه بيديه بدلاً من أن يقول (نعم) للدكتاتور. (كاتو، كاتو، السلام عليك يا كاتو). دعا (كارلو) وهو ماشياً، ثم استنتج فرحاً (تمتلك الشجاعة لتفعل مثله). سألوه هو نفسه.

- (لا، لا أمتلك، لكني أحتاج أن أمتلكها). أجاب لنفسه.

وسأل: (ألم يكن (كاتو) متجرّئاً؟).

- (بلى) أجاب.

- (من واجبك أن تفعل مثله). أمر نفسه.

- (أعرف). قال معترفاً.

- (وحتى إذا لم توفق فينبغي أن تحاول). قال لنفسه.

- (أعرف). عاد فاعترف.

- (ومن واجبك أن تتدخل في ما لا يتسع لك، تحشر نفسك، تستميت، تجد وسيلة للفهم لك أنت ذاتك ولأهلك).

أمر نفسه.

- (أعرف). قال معترفاً من جديد.

- (ليس ثمة تدخّلاً جواني أو براني، افترض أن تتدخّل، من الداخل أو من الخارج، فقط ثمة الطيب وغير الطيب وحيث

---

(95) Pharsalus: موقعة (8 ق. م) هزم فيها بومبي القيصر.

(96) Plato: أفلاطون: (428 ق. م؟ ـ 247/ 348 أثينا).

يوجد غير الطيب فإنه ومن صميم واجبك أن تتدخل، تتدخل). صرخ لنفسه وظلت الكلمة تدوي وتدور في داخله.

- (أعرف، أعرف، أعرف).

نفذ صبره وتخاصم مع نفسه.

كان أن تمكن في الهدوء والسكينة من أن يسمع كل كلمة اعتملت داخله، في حين لم يستطع أن يجد مبرراً بأنه لم يفهم جيداً، وهكذا يحل الليل ليفكر المرء جيداً في الهدوء: (فكر): الناس تنام بالليل كي لا تفكر لكنهم يحلمون ويفكرون مثلما تريد عقولهم ومن غير أهواء وفقاً لمجازات الحلم الضبابية المباشرة التي ليست من الضبابية في شيء، محق فقط من يحلم، والحلم حقيقة ليس غير، البعد عن أفكار عالم الحياة اليومية. الآن لم يكن أكثر شكاً فثمة الحق حيث الأفكار تؤدي إلى قهر الأفكار أن الأفكار هي الخطوة الأولى التي تنطلق من مكان ما ليتسكع العقل في ما خلف الفضاء حيث لا أحد بإمكانه أن يتنبأ إلى أين سيوصله. إنه وهو يكتسب اللامبالاة بالأفكار ما يلبث أن يتنبه إلى محدودية الأفكار وتسوياتها البسيطة والمتضعة أن الاتضاع لذنب لأنه الأفكار التي لا تقهر ذاتها، وأن الإيمان لغطرسة وتعجرف كبيرين، خطو ما بعد المستحيل قفزة في الظلام حيث كل شيء مستوراً تحت حجاب رقيق وشفاف، في الظلام مثل ذاك الذي يغطي الحقيقة في الحلم، ملوثاً وواضحاً، غريباً، حاسماً وقاطعاً).

ثم تحول تفكيره بعد ذلك إلى (سيليفيا)، المرأة التي كان عليه أن يقبل بها، كان يحبها كما يعرف هو، ولربما كان بميسوره أن يحبها كما تمنت وأرادت، وكانت حين سألته ذات مرة عن الحب قال لها

بأن الحب امرؤ.

- (أنت الحب) أجابها، وكانت أن ضمته إليها في سرعة البرق حتى أوجعته فيما أمطرته بالقبل.

- (حبّني، حبّني). توسلت إليه: (دعك من تلك الأفكار، كن عملياً وخذ الحياة على علاتها، عشها قبل يسبق السيف العذل وتصرفك أو تنصرف عنك. الإظلامُ لا يدوم طويلاً).

لا مبالياً كان بالنسبة لها، قريباً وبعيداً عنها وكأنه يمتلك القدرة على أن يعيش بدون الحب. لقد بذلت في بعض المرات قصاري جهدها من أجل أن تنساه آملة ومتمنية ألا توفق إلى ذلك لأنها لا تريد. لقد اجتاز امتحانها وإن كان لم يستحق تلك العلامات كلها. كان عليه أن يهذب ويزين لها عواطفه، ولم يكن بمقدورها أن تغفر له كل شيء، هذا الفراغ في سلوكه، لكن لولا ذلك الفراغ ما كان لكارلو أن يكون الذي كان، والذي كا ن بالنسبة لها وبصعوبة جيداً، وكان يعجبها.

لا مبالاة، من كل شيء، ذلك هو عالمي، وهذا ليس بمكاني، هذا بلدي ولا أعرف أين أوجد أو أكون، أناسي هم أناسي، والأجانب ليسوا غير أناس أيضاً، وأناسي ليسوا غير الأجانب. إن الحزب هو حزبي، والحزب ليس بحزبي. إن حزب الآخرين هو حزبي أيضاً، الأفكار الآن هي أفكاري وغداً أرميها، القوانين تحكمني وتربطني، وأحس بأنه ينبغي عليّ أن أتجاهلها، ثمة الجريمة خارج القانون وتنبت منه في الوقت ذاته ا لجريمة. أن (سيليفيا) لي ولها هي نفسها، أحبها وأدعها لتطير، أربطها وبإمكانها أن تفك. وتشربرو؟ أين يدخل (تشربرو) في هذا كله؟ إن صاحبه كان

لا مبالياً أكثر من كل أحد، الطبيعة والأفكار كانا شيئاً واحداً فيه، يتفقان في كل شيء يتعاملان بطريقة ونسق مستقيم لا ينحرف قط، ولو تجتمع كل المحن والبلاوي في أنقاض الأماني العميقة، وتتصور الحالات التعسة في عجز وإخفاق المجهودات إذن لكان على (تشربرو) وبالضرورة أن يكون متميزاً، لكنه لا يمتلك فطنة أو ذكاء الإنسان الذي يقربه من النكد، وليس ثمة ما يدعوه حتى إلى أن يشقي ويتعب نفسه في البحث عن الفطنة أو الذكاء، ولوكان عليه أن يفعل ذلك إذن لزاد من المشكلة في حديقته.

- (لتبق كما أنت يا تشربرو، لا شيء ينقصك، وكل ما ينقصك إنك لا تعرف ما الذي ينقصك، إنك تمتلك امتياز الجهل).

قال (كارلو مانيو)، وكان (تشربرو) إذ ذاك غائباً في نعاس جميل، وحسده على ذلك: (في الأيام الأخيرة لم أعد أمازحك كالعادة، هوّن عليك ولا تغضب، كن لا مبالياً معي أيضاً...) وأحس نفسه مخطئاً أن يتركه لينام لوحده في البيت، لكن رقاد كلب بالليل أفضل من سير إنسان بلا هدف في ساعات الرقاد:

- (في أية مرة يا تشربرو ستعرف إن كل ما قلته لك تمنيت أن أقوله لإنسان). تمنى لو استطاع أن يسمعه، لكن حتى لو سمعه فلن يفهمه، وكان أن تمنى لو كان في مكنته أن يفهمه، ثم فكر في ذلك مرتين وتمنى ألا يفهمه: (حسناً هكذا، هكذا ألا يستطيع أن يفهم).

بأفكاره كلها وبخطو سريع بعض الشيء وصل ميدناً ولمح باباً صغيراً مفتوحاً، أول واحد على طول ليل كامل هادىء وشوارع خالية. خطواته منفرجة قليلاً، وقرع أجراس القرية بالإمكان

سماعها، وكان أن خجل من نفسه وهو يكسر الصمت الذي سيكون مقبولاً دون وقع أقدامه على الأرض، سمع رجلين يتكلمان في الداخل، ومضى في سيره بعد ذلك انبثق وجهان اثنان متطلعان من الباب وتابعاه بنظرهما، تطلع إليهما هو من تحت قليلاً، وتابع سيره:

- (هذا واحد ليس لديه ما يفعله). قال واحد للآخر، تنحنح الآخر ونظف خنجرته ليتفق معه ولم يقل شيئاً.

- (لا يعجبني) تابع الأول بنصف جدّية.

- (فعلاً. . .).

- (سأناديه).

قال الأول. رفع صوته، وصاح ليسمعه حتى عن بعد:

- (هُوْى!، أنت، هيا قليلاً إلى هنا).

وتابع (كارلو) سيره وبذات الخطو.

- (هُوْى!، أنت).

صرخ الصوت بقوة أكبر: (تعال، إلى هنا).

وأدار (كارلو) رأسه إلى الخلف، متظاهراً بأنه لم يفهم جيداً، ثم تابع سيره.

- (شممته جيداً هذا). أكد الأول بقليل من القناعة. هبط الاثنان من عتبة الباب وسارا باتجاهه، نادياه بصوت غاضب، ونصحوه أن يستدير إلى الخلف، وكان صوتهما أن أغرق الساحة الخاوية. استدار (كارلو مانيو) مدهوشاً واقترب منهما، في البدء ظلا أين كانا منتظرين أن يتقرب، ثم جلس كل منهما في جانبي الباب المفتوح، وتفحصاه حتى دخل حيث لم يستطع أن ينتبه بعد ذلك

من كانا هما، وقف بضع خطوات داخل الباب فيما طلبا إليه بإشارات من أيديهما وغمغمات أن يظل داخلاً. بعد الدهليز ثمة جدارين متآكلين من غير صورة واحدة، بآجر قديم ذائب ومتشقق أضاع معه سحر التصميمات المعقدة وحجرة قديمة جداً تكاد تقريباً أن تكون خالية بجانبها علم مثبت إلى سارية، طويلة، نازلة مباشرة، مباشرة إلى أسفل دونما ذوق مثل قطعة القاش ذات الأطراف المتشرشرة والمتآكلة، والمتسخة، كما أن هناك أربعة كتب ضخمة ملقاة بإهمال فوق رفين، وتبدو صفحاتها ملتوية ومطوية من الأطراف، وثمة مائدة أيضاً في منتصف الحجرة مُنحّفة ومحكوكة وكرسيين اثنين بسيطين، وفوق مباشرة، وفي الأعلى صليب من الأكثر شيوعاً مغرق ومعفر بالتراب ودنما ورع أو تقوى، وفي الجانب الآخر دراجة مسندة إلى الجدار المتآكل، قديمة هي أيضاً متآكلة وصدئة.

كان (كارلو مانيو) أن لاحظ كل شيء، وكان أن تنبّه إلى أنه قد دخل لتوه حجرة أخرى مثل تلك، لكنه لم يكترث. الشرطيان الاثنان أكلاه بالنظرات من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، زما شفاههم وأقطبا حواجبهم ثم غمزا بعضهما بعضاً وابتسما بعض الشيء:

- (ما الذي تفعله في الخارج الآن؟).

سأل الأول بصوت جاف.

عقد (كارلو مانيو) راحيته خلف ظهره، كما لو أنه سيتكسل قليلاً وظل هكذا لبعض الوقت ولم يقل شيئاً. لم يعرف أين سيرى، وكان يخفض رأسه من حين إلى آخر، ويمرر عينيه مع تصميمات

الآجر المعقدة. لم يكن ثمة ما يمكن يرى، ولا حتى من يمكن أن يتكلم إليه. والصليب لم يكن واضحاً، وكأنه متدلي هناك بالخطأ وليس ثمة قوة وقدرة بين يديه في الداخل.

- (أسمعت ما قلته لك؟).

عاد فقال له الشرطي.

- (خرجت لأتجول، ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لك).

أجابه (كارلو مانيو) بجفاف.

- (الآن، وبالليل، تخرج لتتمشّى؟).

قال ضاحكاً الأول بصوت عال، وتطلع بسخرية إلى صاحبه، وضحك الآخر أيضاً: (تمشّى جميل!، أخبرنا لماذا خرجت الآن، ولا تدعنا لننتظر طويلاً).

أمره الثاني.

- (أخبرتكما...).

تطلع الاثنان في وجهه جيداً، وتأكدا من أنه لم يكن من تلك الأنحاء. وجه جديد من جميع الوجوه.

- (لا نصدقك، أتعتقد بأنك ستلعب بنا).

قال الأول، وكان أكثر غضباً. همّ (كارلو مانيو) بالخروج في حين سارعا فأمسكا به في الحال:

- (إلى أين؟ لن تخرج من هنا قبل أن تقول لنا ماذا فعلت، أو ماذا كنت تفكر في هذا الليل). حذره الآخر.

- (هل أنتما جادان في ما تسألاني عنه؟).

سألهما بابتسامة مريرة. الاثنان أكدا له بأنه من صالحه أن يكشف لهما عن كل شيء، وإلا يكون قد ورط نفسه في مشاكل لا حصر لها، وهكذا وبمزيج من ضحكة ساخرة وشيء من الجدية عاد فكرر لهما الكلام ذاته، وأظهر لهما عدم رغبته فيهما.

- (ما دمت لا تريد أن تتكلم، هه، هيا إذن، أعطني اسمك وعنوانك). أمره الأول بفظاظة. أخرج دفتراً صغيراً من درج المائدة، أدخل يده في جيب السترة وأخرج قلم رصاص دوّره بين إصبعي يده اليمنى، وضعه بين شفتيه وتركه متدلياً، ثم تناوله مستعداً للخربشة به.

- (من الممكن أن أخرج؟).

قا لهما بصوت عصبي، وكان قد ملّ تقريباً.

- (ما هو اسمك، وأين تسكن؟ وإلا فهناك تلك الحجرة، ألا ترى؟ وسوف تمضي يوماً هناك، في الداخل حتى تفتح فاك). أنذره الشرطي، وأشار له بإصبعه وقلم الرصاص في يده إلى باب صغير قذر ومهمل مقفل بقفل ضخم.

- (الزنزانة، أرها، ألا تراها؟).

حذّره الآخر: (من يطأها لن يتأخر في أن يقول لنا الحقيقة كلها، وإننا لنعرف كيف نخرج له الحقيقة من داخله...).

- (لا أملك ما أقوله لكما أكثر، خرجت لأتمشى، ذهبت في جولة، وبالليل وبالنهار، لا فرق بالنسبة لي).

- (لا فرق، هه، لا فرق بالنسبة لك؟ من يخرج بالليل لا يخرج من أجل لا شيء، تحاول أن تضحكنا).

أنذره الثاني.

- (وألم تناما أنتما أيضاً الليلة؟).

سخر منهما بابتسامة باردة.

إذ ذاك كاد الاثنان أن يهجما عليه:

- (هيا، أخبرني سأكتب، أخبرني وسوف ترى فيما بعد كيف أنك وبالتأكيد ستتكلم).

ومرر الشرطي - وكاد أن ينفذ صبره - القلم من جانب الورقة إلى الآخر بخربشات متداخلة. وكان (كارلو) أن أحس لحظتها بأنه قد فقد كامل قواه ليدافع عن نفسه. أعطاهما المعلومات المطلوبة، زم شفتيه، وحرك رأسه وهزه باحتقار وازدراء ثم غادر المخفر.

- (جنسٌ متطفّلين). تمتم لوحده: (هكذا أنتم، لن ولن أقبل أن ألعنكم وأخزيكم، أكثر مما تلعنونني وتخزونني أنتم، إن احتكار الخداع والمخاتلة يوجد بين أيديكم فقط..) ثم تابع سيره حتى خرج من الميدان، ووجد نفسه من جديد في الشوارع والطرق الضيقة السابقة. فكر في أقصر طريق تؤدي إلى البيت:

- (قارب (تشربرو) على النهوض من نومه).

تذكر، وأخذ يسرع في خطوه.

كان الشرطيان أن إنتظراه وهو يتباعد قليلاً، وخرجا ليلاحظانه ماشياً، ثم دخلا بعد ذلك منفجرين بالضحك.

- (أية فجعة قد فجعناه، المسكين!).

قالا لبعض. كان الليل الرتيب كله، الليل الطويل والهامد من غير أيما مغامرة يشعرهما بالملل والضيق، إذما من شيء يحدث قط

وعلى وجه التقريب في القرية، وليس من واقعة فضولية تحدث على الإطلاق لتصرف لهما ساعات الرقاد البليدة التي ما كان بمستطاعهما أن يرقدانها، لقد عادا فأرتميا جالسين حتى تلاشت الضحكة في لا شيء، وكان الأول أن تناول الدفتر، مزق الورق حيث كتب اسم وعنوان (كارلو مانيو)، كورها بين أصابعه الخمسة ورماها في المنفضة المغرقة بأعقاب السجائر ثم أشعل عود ثقاب واستمتع وهو يراها تتكمش وتتداخل وتستحيل رماداً، فيما انفجر الآخر ضاحكاً، وانزلق في الكرسي على نحو ما، ثم عقد ذراعيه وأسقط رأسه فوق صدره لعله يسرق رقدة خفيفة، وما أن صارت كرة الورق تراباً أسوداً حتى أخذ الاثنين النعاس، في حين عاد الهدوء وخيم على الميدان.

14

* تمنت (سيليفيا) أن تضحك، ولم تمتلك الشجاعة أمامه. كما أنها لم تستطع أن تصدق الرواية التي سردها لها، وبدا لها الأمر بكامله وكأن ما حدث له مع الشرطة لا علاقة له البتة بشيء ولربما من أجل لا شيء، رغم أنها كانت واثقة من أنه لا يمتلك القدرة، بل ليس بمستطاعه أن يترك الحبل على الغارب.

- (كل ما يريدونه منك يا كارلو أن تتعامل معهم بلطف، أعني هكذا تدعهم يأمرونك، لأنهم يريدون ويتمنون ذلك، وتريهم كيف أن بإمكانك رأسك أن ينخفض أمامهم، فقط إخفض رأسك ما أن يروا إليك وسوف ترى كيف أنهم ينحلّون ويرتخون، أنهم يأمرون وإنك لتعرف أمرهم، فقط لا تتنفس هم ـ وفي مرة واحدة ـ وما أن يروا أيضاً تواضعك وإذعانك حتى يتغيرون، يرأفون بك ويحنون عليك، ويحسون بأنهم كبار، كبار ويصفحون عنك).

قالت له وكأنها تريد أن تريه بأن هذه المشكلة بسيطة وتافهة وصغيرة، وفي غني عنها، إذ أنه وبالقدر الذي يعتبرونه مبتذلاً

وبائخاً banal فبميسوره أيضاً أن يكون جاداً.

- (سيليفيا، سيليفيا!، أي كلام هذا يا سيليفيا؟).

حذّرها.

إن واقعة البارحة لم يأخذها على سبيل المزاح. وما كان وقد قفل عائداً إلى بيته أن أنتزع من رأسه أن كل ما فعله الشرطيان لا يعدو عن كونه أنهما أرادا أن يسخرا منه أو يتخذانه وسيلة لقتل الوقت. إنه لم يعترف بشيء قط وكل ما استطاع فعله أن ابتلع في داخله كل شيء.

- (الحياة أكثر يسراً وبساطة مما تظن أو تفكر يا كارلو. إذا ما ارتكب شرطي المرور مخالفة أكثر منك، واجتازك مسرعاً لأنه ضبطك تقف لبضع دقائق في الممنوع، فمالذي بوسعك أن تفعله؟ بل أي شيء لا تقدر على فعله؟ من المؤكد أنك لست في حاجة إلى أن تريه بأنك قد أدركت أنه يخالف القوانين أكثر منك، لست في حاجة إلى أن تفهمه أو تحاول إقناعه بأن تعتبر نفسك مساوٍ له، بل ليس بالضرورة حتى أن تدافع عن نفسك، ولا أن تعلن لنفسك - على الأقل - بأنك بريء. إذن ما الذي ينبغي أن تفعله؟). توقفت قليلاً ثم تابعت: (في البدء ترطب من صوتك، تفرد يديك الاثنتين وتجمعهما كما لو أنك تريد أن تدعي أو تطلب، ثم ترى في عينيه مباشرة أعني هكذا بكامل التقدير والاحترام وبشيء من الخوف وتطلبه العفو. مسألة شكلية وبسيطة جداً ينبغي أن تتعلمها عن ظهر قلب وتتعامل بها، هكذا هكذا، وسوف ترى بعد ذلك كيف أن كل شيء يسير على ما يرام). قالت له بلهجة معلمة.

- (العفو، عفو لأي سبب؟).

قاطعها.

- (عفو وحسب، ولا تسأل عن أي سبب، لأنك لا تبتغي الصواب وتسعى إلى الحق، بل إلى ما يجعلك ماضياً وبما لا يتعارض مع طريقتك، فكر في ذلك، ثم أنه إذا لم يكن في وسع أحد ما أن يرتكب مخالفة أو يعارض فلا قيمة إذن لشأن وأهمية ذلك الضابط، وإذا لم يخالف أو يعارض أحد ما القانون فإنه عندئذٍ يصير مواطناً، بل أكثر مواطنية وليس أمامه غير أن ينتزع البذل النظامية، لتعذرني يا سيد، لم أكن أعرف، لتصفح عني، لن أعيدها، هكذا عليك أن تقول له وبصوت لطيف وهادىء ومهذب. . .).

- (وبعد ذلك؟).

- (بعدها تراه وقد نعم بالهدوء، يميل إليك، وينسى كل ما قاله لك).

أحس (كارلو) نفسه ينفجر ضحكاً، وأدركت هي ذلك ثم أنه لم يقل شيئاً، ومع ذلك فهمته.

- (لا تضحك، لا تضحك).

قالت بابتسامة تلبّست كامل وجهها: (لست عاقلاً كما ينبغي يا كارلي، إنك لم تفهم الدنيا بعد، وإن من يمتلك لباس السلطة يكون في حاجة إلى شيء واحد فقط: الطاعة. وإذا كانت الطاعة هي اسم اللعبة فعليك أن تتعلم قوانينها كي تتبين بأن ليس ثمة حرية أكبر من الطاعة، اطع وسيدعونك لتفعل ما تريده، اخفض رأسك وسترى كيف أنهم لن يتدخلوا لك في شيء، غير أن ذلك الذي يظنون بأنه

ملكهم ينبغي أن تعطه لهم وإلا . . .).

- (وإلا . . .) قاطعها: (وإلا يصبّون جام غضبهم عليك، يأتون إليك بقلم الرصاص والورقة، وبمجلد القوانين مفتوحاً في وجهك و. . . .).

- (وينتصرون عليك). قاطعته: (دعني أقول لك هذه القصة: كان ثمة شرطياً، مكلفاً بدورية، وكانت مهمته أن يوقف ويخالف كل سيارة تقف في مكان حيث لا ينبغي أن تقف، وقالوا له أنهم في انتظار أن يعود من الدورية بقائمة أسماء وأرقام سيارات. كان مطراً، وما من روح تبدو في ذلك الشارع، ومع ذلك كان عليه أن يوقف أية سيارة تقف في الممنوع، لكنه لم يوفق إلى توقيف أحد ما لأنه لا توجد حتى سيارة واحدة واقفة وبالخطأ في مكان ممنوع في تلك الأنحاء. . . (لا تقوم بواجبك كما ينبغي). وبّخوه: (لا، واحسرتاه!، اصدقوني) كان يجيبهم، لكنهم الحّوا عليه، ومنحوه آخر فرصة. فماذا فعل؟ ذهب إلى صهره، وطلب إليه بلطف أن يذهب بسيارته إلى ذلك الشارع ويقف في محطة ممنوعة كي يستطيع أن يخالفه، وهكذا فعل الآخر:

- (هون عليك ولا توجع دماغك). قال له الآخر:

- (هذه نقود الغرامة، خذها، خذها اعتباراً من الآن، لكن أعمل لي معروفاً من أجل ولخاطر من هو ميت لديك وقس نفسك بأنك واقف في ذلك الشارع حيث من المفروض ألا تقف). طلب إليه الآخر. في اليوم التالي ذهب الشرطي فرحاً، وأثبت بالدليل على أنه أدى واجبه. تعلّم، تعلّم يا كارلو، وألعبها

ألعبها اللعبة، مثلما يلعب كل أحد).

انفجر (كارلو) ضاحكاً، وضحكت (سيليفيا) أيضاً ضحكة طويلة، ثم دنت منه وقبّلته.

- (لا تنسى يا قلبي، لا تنس، هذه هي اللعبة، وإذا ما تعلمت اللعبة جيداً فسوف لن تخطىء قط).

قالت له بلطف في حين مررت سبابة من يد واحدة فوق شفتيه. تطلع (كارلو) مباشرة في عينيها وحاول أن يقرأ حالتها النفسية الحقيقية، وأراد أن يستجمع قليلاً من الشجاعة قبل أن يعلن لها عن أخباره الجديدة.

- (هل فهمتني جيداً؟).

سألته، وأمسكته بيديها بقوة ملتصقة بذراعيه، دفعته شيئاً فشيئاً ويقوة ورفعت رأسها وخفضته أكثر من مرة، ثم تبسمت وأظهرت له بأنها كانت تتكلم إليه لتوها بكامل الجدية. حرك (كارلو) رأسه من جانب إلى آخر بغير اكتراث ولم يتكلم، حاول أن يفلت من يديها، وهي تركته.

- (هل فهمتني؟). عادت قائلة له: (الآن لتختر أنت، لكن ليس ثمة طريقاً أخرى، هذا هو القانون، قانون من يعيش ويترك غيره ليعيش، إذا ما أردت أن تعيش، تتزوج وتربي عائلة وتعيّشها فليكن، وألا تكون قد فقدت خبزك، هذا فقط هو القانون، ليس ثمة ما يعوض عن شيء آخر، ترى ولا تكون قد رأيت شيئاً، تسمع ولا تكون قد سمعت شيئاً، وتعيش معافى وبكامل الصحة، في سلام، صديقاً لكل أحد، وتصعد كل درج المرقاة التي تختار). كا نت لها لهجة تنضح سخرية لكنها نطقت كل كلمة بثقة وعزم ويقين.

- (فهمتك) أجابها بصوت محزون: (لا أتفق معك، لا أستطيع أن أتفق معك، ولا حتى في شيء، لا أفكر في شيء مثلك يا سيليفيا لأن كلامك يخيفني، كيف توصلت إلى نتيجة كهذه؟).

- (إذا لم تتفق معي فأفهمني جيداً، ولتتذكر إذن بأنك لن تتفق مع أحد. . .).

- (اتفق مع نفسي). قال لها مبتهجاً معتقداً أن ليس ثمة إجابة على هذه الإجابة، ثم توقف منتظراً إياها أن تقول أيما شيء.

- (تتفق مع نفسك، وحتى هم أيضاً الذين يفكرون مثلما أقول لك الآن، وحتى هم أنفسهم يتفقون مع أنفسهم، هم فهموا اللعبة بعد آن درسوها، وبدأوا يلعبونها، وبدأوا ينتصرون، والآن وعوها وأدركوها وأعجبتهم).

قالت له بصوت مسحوب ومجرجر: (هم، هم أيضاً يتفقون مع أنفسهم).

كان (كارلو) محزوناً لما أصابه من خيبة الرجاء، وكان أن تخلي عنها بعض الشيء وامتد بكامل طوله على الأريكة: (اليوم أرغب التدخين، هل لديك لفافة؟) طلبها بصوت عصبي. وناولته (سيليفيا) علبة مفتوحة كانت أن اشترتها له حين قرر ذات مرة أن يدخن، وكان أن تناول لفافة ووضعها بين شفتيه، ونظر إليها وفهمت بأن ثمة جزءاً كبيراً مخبوئاً من ذلك الرجل الذي لم تستطع أن تره أو تفهمه. ما أن سحب أول نفس من اللفافة حتى مدّ يده وأخرج من جيبه رسالة. ظلت ترى إليه ما بين تفكير وفضول:

- (إقرئيها) قال لها: (هذه نسخة من رسالة بعثتها بالبريد هذا الصباح).

تناولت الصفحات المطوية من يده، فتحتها ما بين عجلة وتريّث وبدت كما لو أنها تريد أن تقرأ كل شيء في الحال، نظرت إليه مستغربة واندفعت في الكرسي الطويل ذي الذراعين الذي أمامه ثم وضعت ساقا فوق أخرى وخفضت رأسها:

ـ (السادة أصحاب الفخامة والمعالي).

أخذت تقرأ بصوت مسموع ثم توقفت ورفعت وجهها إليه مظهرة ما تلبسّها من عجب واندهاش:

ـ (ما الذي فعلته؟).

وتبسم (كارلو) وبسط يديه الاثنتين على جانبي الأريكة وقال لها بكلمة ملؤها فخراً: (تابع):

ـ (اذهب، اذهب واسترجعها).

أمرته.

ـ (إقرئي). قال لها: (إقرئي، إنك لم تفهمين بعد الذي كتبت).

ـ (إذهب، لتذهب وتسترجعها).

كانت فاقدة الأمل، وكانت واثقة من أنه لن يقبل بنصيحتها وتنبهت إلى أنها لم تؤثر فيه، في حين سحبت نفساً طويلاً وأحنت رأسها. أخذ هو ينقر بأصابعه على جانبي الأريكة ويتطلع إليها، متلهفاً لقراءة بريق وجهها وكانت أن عمت إذ ذاك فترات صمت في الحجرة.

ـ (إقرئي، إقرئي يا قلبي). حثّها: (غداً تقرئين تلك الرسالة في الصحيفة).

ـ (أصحاب الفخامة والمعالي).

عادت فبدأت.

- (انتظر قليلاً). قال لها بابتسامة ساخرة: (اقرئيها بصوت عالٍ لأسمعها أنا أيضاً، وأعديني ألا تتوقفين من البداية إلى النهاية وإلا تعلقين، أتعدينني؟).

- (حسناً). إجابته رغم أنفها، وقرأت:

* أصحاب الفخامة والمعالي:

إنني وكمواطن من حقه أن يعبّر عن مشاعره ويرى وبالضرورة وبما يمليه عليه واجبه وضميره أن يعلن عن كل ما يعتمل بداخله فإنكم ستجدون مرفق طيّه مفهومي ووجهة نظري عنكم وأن ما سأكتبه وأعلنه هنا فإنما أكتبه وأعلنه كمواطن عادي يعيش هنا في الأسفل مع بقية المواطنين الذين أوكلوكم معاً بخدمة المجتمع، حيث أن وجودكم في البرلمان ذاته فإنما لأجل المواطنين الذين نصبّوكم ووضعوكم في عقدهم الاجتماعي الذي يتم في انتخاباتهم وأنتم تعرفون بأن موقعكم ليس بموقعكم، بل موقع الناس.

إن كل ما سأكتبه منطلق من مفهوم أننا جميعا متساوون، إذ أنكم مساوون لي وأنا مساوٍ لكم، وإن كنتم تعتمدون وتتوقفون عليّ لأني أنا الذي رفعتكم إلى فوق، في حين أني لست مديوناً لكم، لأنكم لم ترفعوني إلى أي مكان مثلما رفعتم أصحابي جميعهم، إن كل تأويل مختلف من جانبكم يعني ويفسر بأن الناس جميعهم ليسوا سواء. وأن الوراد ذكره هو من واقع الكره والمقت للسياسة التي ما انفككتم تواصلون إفسادها في زمننا. ليس بمقدوري أن أكتب عن الماضي لأني لست مؤرخاً، ولا أكتب حتى عن الآتي لأني لست نبيّاً، بل أكتب فقط عن الحاضر هنا والآن، أكتب بأمل وشوق غامر بأن تحت جزيرتكم الشائخة هذه ثمة جزيرتنا الشابة، وتحت الطبقات السياسية

الفاسد ثمة فئات شعبية نظيفة منتظرة اليوم الذي تنهض فيه مثل بنفسجة منبثقة من بين البلاط الحاد والمسنن، وما أود ذكره ينبغي أن تعتبرونه كدليل على الولاء والإخلاص للنظيفين من السياسيين، وإدانة وشجب في الوقت ذاته للسياسيين الفاسدين. إن النظافة بقدر ما هي أمانة واستقامة هي جدارة ومقدرة لأن نقص الجدارة في السياسة عبء فساد كبير، خطيئة متنسّلة من توقّح الفرد المسند والمدعوم من بنية حزب عفنة ماله من ذوق ومزاج وقيم وأخلاق.

إن ما أود ذكره ليس محسوباً على السياسيين البتة. بل على العقول الشابة التي لها كيانها وشخصيتها والتي ليست نسخة من أحد، وتمثل ثمرة العقلية الحديثة. وإليكم فيما يلي المعايير والمبادىء الأساسية لاستنتاجاتي:

(أ) هذه الجزيرة ما تزال طفلة صغيرة في السياسة، ومحكومة بعقلية إمبريالية، وتعج بالأهواء والأغراض والمآرب الاستعمارية، ومغطّسة في بركة آسنة راكدة حيث تتخبطون أنتم وتخوّضون بكل تنعم وارتياح.

(ب) إن متعتكم في أن تُبقوا الجماهير في مائكم العكر الآسن كي لا تظهرون بمظهر الأقل شأنا، وأصحاب المنزلة الوضيعة.

(ت) التسايسية الزائدة التي أغطستمونا فيها دليل على الفراغ الذي فيكم، التقلّب الراهن لضيق أفق التفكير القديم الذي جررتموه لمصلحتكم من الميدان الذي قدّام الكنيسة إلى ميدان الأبراج العاجية حيث تلتقون.

(ث) من أجل أن تنعموا بالراحة وتتغطّوا بغطاء السلطة أبدلتم

التمييز والاختلاف بين الجيد والرديء، بين الطيب والخبيث في التفريق والتمييز بين حزب وآخر.

الوضعية التي أدخلتمونا فيها

شعب صغير تتقاسمه وتتنازعه نزواتكم وأهواؤكم، أنتم كملاك جدد للجزيرة يتقاسمونها، تسيطرون عليها وتتقاسمونها وتقسمونها إلى شطرين، وخلقتم وظيفتين اثنتين: وظيفة من يأمر (أنتم) ووظيفة من يطيع (نحن) على أن هذه السياسة لا تغضب ولا تجرح مشاعر المواطن كمحارب أو مشايع، بل تذلّه وتخزيه كعقل ينبغي عليه أن يعمل لنفسه وبنفسه، أن المواطن لا يتقاتل لتوه مع أحد آخر كما يبدو من الخارج بل مع نفسه كي يعجبكم ويظل موجوداً، وإن أسوأ معركة تخسرونها لتوكم هي معركتكم معه نفسه، والخسارة الأكثر خزياً وعاراً ومذلة ليست سوى الإنسان الذي يتكلم بالفم لغة وبالقلب لغة أخرى. ولقد تبدت على الوجه غريزة الوقاية من جراء نظام التوحّد والانزواء، كما كبرت وتنامت مسألة أن يتكلم المرء لا كما ينبغي بل كم يروق له، وأنكم لأسستم الكذب وقعدّتموه حيث صار يدر علينااا لكسب، فيما فقد كثير من الكلام كل معانيه وتدخّلت العقلية التي تربط العصيان وعدم الطاعة والإذعان بالنجاح والأوامر وأرجعتمونا إلى الخلف حيث النظام الأبوي الذي يفرض على الراشدين البحث عن ما يسر ويعجب أباءهم، وحين تدخل الطاعة العمياء يخرس صوت الضمير في حين تصير الأمانة المعرّاة من الاستقامة بذلا نظامية، أو لباس كرنفال. لقد باعدتم أكثر من قبل المسافة بين من يأمر ومن يطيع، دفعتمونا لأن نفكر بآذاننا وليس بعقولنا، أنها لخطيئة عجرفتكم وتكبركم، الانتخاب، الذي هو في

واقع الأمر خاص وسرّي صار شعبياً ومعروفاً، انتزعتم عنا ثيابنا وعريتمونا في الميدان أيها السادة المنحرفون والضالون المتبادلون والمتغايرون على أدوات السلطة ولقد فقدنا مظهر عزلتنا الآخر، ودفعتمونا إلى أن ننتخب وننتخب كل يوم.

البرلمان:

تربّون وتنشّئون انحرافكم أكثر وأكثر في مشتل البرلمان المريض، في البرج أين تتآمرون فيما بينكم كملاك للجزيرة، فوقنا. في ذلك البرج تمزقون لباسنا إلى خمسة وستين قطعة وتلعبون النرد فوقها(97)، اعتمدتم المظهرية بدلاً من المناظرة، ضعتم في الفوضى وافتقدتم الهدوء والتعاون، وما عاد الاختيار بين الجدل الجيد وغير الجيد اختياراً أخلاقياً بل مشايعاً، إذ صارت الأخلاق على حياد.

إن المواطنين الذين لم يفقدوا الأصول وآداب السلوك ليس بإمكانهم بل ليس بمستطاعهم احترام برجكم. إذ ليس جديراً بأقل احترام المكان الذي تكال فيه اللعنات ويقال الكلام المخزي والبذيء، ويشهد التفاخر الفارغ والاستعراضات والبطولات الوهمية، هناك تجلسون لوحدكم تستمعون لأنفسكم بأنفسكم لأن أحداً لا يضاهيكم. حرّفتم تاريخنا وأبدلتم من طقوسكم العربيدة Orgja(98) تلاشى الاحترام من البرلمان للإنسان الراهن، وليس

(97) الـ 65 أعضاء البرلمان، والفكرة مستمدة من الإنجيل: (جون 23) الذي يعرض إلى صلب المسيح الذي (وما صلبوه ولكن شبه لهم) وكيف أن جنود الرومان لما صلبوه قطعوا ثيابه إلى أربع قطع وتقاسموها، فيما أجروا القرعة على ردائه).

(98) Orgy: طقوس سرية للإغريق والرومان في أعياد الآلهة تتميز بالغناء النشوان والرقص العربيد.

بالراهن، أوجعتم وأتعبتم الحيين، وأزعجتم وقلّبتم الميتين في قبورهم، نفذ احترام من يمتلك الصبر وهو يلاحقكم ويتابعكم من الخارج، وأعطيتمونا انطباعاً بأن الجماهير ليست سوى معتوه بمستطاعه أن يبتلع كل شيء مباشرة ودون تردد، التطرف الامتيازي البرلماني الذي جعلتموه وقفاً وحكراً عليكم، فيما نسيتم بأننا نحن، نحن الذين مكّناكم ودفعناكم إلى هناك كي تخدموننا وتقفون على راحتنا.

أي وضع تعليمي هو منتظر أو متوقع من البرلمان؟ أي معنى ومدى للاستقامة والأمانة البرلمانية إذ تزعمون بأنكم ذوو أمانة واستقامة؟ أية حقوق تلك التي تمتلكها الجماهير.

أي اسم جديد ينبغي علينا أن نخلعه على برجكم وقد أحلتموه إلى مبغى أو سوق فارسي؟ أي نوع من أنواع الدفاع الوطني لدينا ضد تعسفكم وإساءتكم للسلطة؟ ومن سيتعسس على العساسين؟ لقد أخزيتم وأذللتم أولادنا، جعلتمونا نتقاتل فيما بيننا، انتهكتم وجرحتم لنا كل ما نؤمن به، نظمتمونا وأعددتمونا في شكل قوتين مسلحتين جاهزتين للقتال من أجلكم، فابعدوا عن هناك، وانصرفوا.

سلوككم:

سلوككم وتصرفكم جلاد نموذجي، مزاجكم وطبعكم عنيف على الدوام، وجوهكم غاضبة ومشينة وأصواتكم مرتفعة كلامكم ينجسّ ويقذّر، نسيتم كيف تبتسمون، ولم تتعلموا كيف تحبون، أحلتم الجزيرة إلى قبيلتين اثنتين هائجتين متناحرتين، دائماً تتكلمون ضد الخصوم والأعداء وليس لصالح أو من أجل القيم المختارة

منكم، صرّفتم الذكاء والفطنة إلى الغطرسة والتكبر، خلقتم جماعة من المعجبين والمغرمين بالمتوسطية، وجنّستم لنا بيئة من الأدغال، ما كانت لكم ذيولاً في ذات مرة، وجعلتمونا أيضاً نقطع ذيولنا، حايدتم القيم الفعلية والنبيلة ثم وضعتموها في عبارة (التجريض السياسي)، تغطون جهلكم تحت البذاءة ضد المفكرين، في حين ألبستموها للشغيلة الذين من وجهة نظركم ليسوا أذكياء مثل البقية ونسيتم بأنه ليس ثمة عقلاً البتة من غير يد وليس ثمة يداً قادرة على الحركة بدون العقل. ماثلتم المتوسطية مع الثقافة الشعبية، جعلتمونا نخجل من هويتنا، أسقطتم وأضعتم تاريخنا، عاداتنا، اللغة، كل ما بنيناه بعقلنا وأيدينا على طول الأزمنة، تنظرون إلينا لتوكم كسقط متاع، كأشياء لا نفع منها كي تظفرون بسلطتكم الإمبريالية مثلما فعل أسلافكم النبلاء: فرسان القديس والحكام.

إن إخلاصكم لهم وليس لنا، غرّرتم بنا وضلّلتمونا، إن استراتيجيتكم هي الثقل الموازن Mazzra[99] في أعناق الكثرة، دمار وفناء انعتاقنا، وثقافتكم المضادة تريد أن توصلنا إلى حيث نشد في الظلام على كل يد سوداء و.. نقبلها.

الوضعية التي تناسبنا:

* على أنقاض تجربة استعمارية طويلة أقمتم امبراطورية، وربّى المواطنون قشرة الإذعان والطاعة العمياء للسلطة، على أن انتصاراتكم لم تكن صحيحة وغير موفقة: أنهم من الخارج يبالغون في الانحناءات لكم ويبدون مظاهر المجاملات والتبجيل والتوقير فيما

---

(99) Counterpoise.

يسمع من الداخل صوت اللياقة والحشمة والأصول المتوجعة كما يحس قرع الضمير الذي لم تصلوا بعد إلى الإجهاز عليه. علانية يقدمون لكم فروض الطاعة، وتحسبونهم كاملي القناعة بكم، وخفاء يقطّعونكم ويجزّرونكم الواحد تلو الآخر، ويفصّلونكم في محاكمهم الشعبية، ترونهم يحملونكم على الأكتاف ويركضون بكم، وترونهم ولا ترونهم أحياناً وهم يكنسونكم ويركلونكم ويدوسونكم بالأقدام.

لا وجود لسياسة نظيفة من غير انتقاد تعليمي، والاستغلال والتعليم قرينان اثنان لا يتحدان مطلقاً ولا يتزاوجان أو يتزوجان. أنسجوا سياسة قائمة على أناس نظاف، مؤهلين، عاقلين ومتزنين وبالغين مبلغ الذكاء والفطنة ومتحلين بالضمير، الضمير. سياسة تعتمد الأفكار وليس الأشخاص، وذات علاقة مباشرة بالقيم الطيبة، السامية والنبيلة وليس الطموحات والمآرب الشخصية. إنكم لمختارون من أجل خدمة الناس، وبالتساوي وليس بالمحسوبية والوساطات، كي تحثونهم على السعي والمثابرة، ولا تحسبون أن نجاحاتكم مقيوسة بمدى إعجاب منتخبيكم بكم، بل بالمدى الذي لا تضايقون فيه الآخرين وتزعجونهم وتعكرون عليهم صفو عيشهم.

أنتم تعرفون ـ أيها السادة ـ ومباشرة عقب إعلان نتيجة الانتخابات بدقيقة واحدة وفوز الحزب الحاكم بأنكم تمتلكون الحق في إدارة شئون الحكومة، فيما يعود منتخبوكم، يعودون ويصبحون مواطنين. إن الأغلبية لا تنتخب أكثر من مرة على مدى سنوات قلائل، وأنكم لا تمتلكون الحق بل أدنى حق في أن تزعجوننا وتقرعون رؤوسنا كامل الوقت بطموحاتكم وتطلعاتكم.

إذا ما أردتم أن نصدّقكم فأعلنوا عن ثرواتكم قبل أن تدخلوا برجكم، ثم أرجعوا فأعلنوها ما أن نطلب إليكم أن تخرجوا. إن

البرلمان ليس لكم بل لنا، وتدخلونه حين نأمركم أو نقول لكم نحن، تعيّنون أين نأمركم نحن. وتصرفوا كما نريد نحن، أنكم كملاك جدد للجزيرة تخافون من هذا، وتطأون الرأي العام وتعتبرونه بمثابة بنت حرام ليس من حقها أن تولد، أو إذا ما ولدت سراً فليس من حقها أن تمنح بطاقة هوية، أنتم الذين ينبغي عليكم أن تخافوا منا ولسنا نحن، نحن لا نريد سياسيين أفضل بل أناساً أفضل، والثقافة التي بالضرورة أن تكون لديكم لا بدّ من إرفاقها بشهادات الخلو من السوابق، ولا بدّ أن ينطبق القول بالفعل، وأن تكونوا مجهزين بالدراسات وأن تكون أفكاركم مفتوحة، ومجربين ومتمرسين في الخبرات ولتعلموا بأن البرلمانيين الجيدين لا يمكن أن يكون لهم تعليم يختلف عن سواهم، كما لا يمكن أن تكون لهم مستلزمات عيش لائق أرفع من المواطنين الآخرين، وتزنون كل كلمة بل من الأفضل لو تكون مكتوبة، ثم تخافون ممن يستمع وينصت إليكم. إن اعتبارنا وتقديرنا لكم، بل قيمتكم عندنا مرهونة فقط بإزالة الشبهات عنكم، وإلغاء الانطباع عن أنكم مستغلون ومبتزون يتصرفون وفقاً للقانون، لكن ليس ثمة أعلى ولا أسمى ولا أرفع من القانون الذي تمضغونه وتلوكونه غير الحق الذي يسري في الدماء.

الصراع فيما بينكم:

إن ضراوة طموحاتكم لتبدو أكثر جلاء بالشكل الذي تتصرفون فيه كرؤساء لقبيلتين اثنتين متضادتين، لكن على العكس تماماً، ذلك أن وجود حزب معارض لا بدّ من أن يبدو شيئاً ضرورياً، بل ومرغوباً ومستحسناً. أبدأو عصر علاقات إيجابية جديدة فيما بينكم، ولا تخجلوا من أن يبتسم بعضكم إلى بعض، أكبروا قليلاً، وإن

اتفاقكم مع هذه المبادىء ليس محصلة أو نتيجة سياسية بل إعلان أخلاقي.

إن قيمة وقدر وخطورة هذا كله لا يتوقف على اختيار أغلبية أو أقلية، فالجيد ليس الذي تصنعه الأغلبية وغير الجيد ليس ذلك الذي تصنعه الأقلية. الجيد هو الجيد (يصنعه من يصنعه، حتى الأقلية) وغير الجيد هو غير الجيد (يصنعه من يصنعه، حتى الأغلبية) ثم من هي الأغلبية؟ أليست الحكومة؟ الحزب؟ المجموعة المحبوسة في البرج والتي تقرر لأكثريتنا؟. إن الأغلبية هي الجماهير المدركة والواعية والتي تعيش كمجتمع لوحدها عقب التصويت للحزب، وأن برنامجكم الانتخابي لا يعدو عن كونه مجرد عقد معنا والذي ما أن تخلّوا به حتى تقعوا في دائرة الجريمة لأنه يربط ويلزم الاثنين بشكل متساوٍ، وإذا ما أخل أحد الجانبين بشروطه فيقع على الآخر ويكون من نصيبه. إن أعلى بناء في البلد ليس برجكم بل ميداننا، الرأي العام، لأننا نحن قادة البلد ولستم أنتم، ولهذا فإن الاختيار ليس هو الاختيار بين حزب أو آخر، بل بين شيء جيد وشيء غير جيد، وأنتم بالنسبة لنا لستم أعضاء حزبين مختلفين بل أناساً طيبة أو خبيثة.

انتخاب انعدام ثقة:

على مقربة من هذه الجزيرة العاجة بطموحاتكم الامبريالية ـ أيها الملاك الجدد ـ ثمة بحاراً وأراض شاسعة هي مركز القارات والعالم، وأنكم بطموحاتكم لظللتم تعلّون الأسوار التي تفصلنا عن العالم، وإلى جانب هذه البلاطة تشتدّ وتتعاظم التوترات التي أمرضتمونا بها وجعلتموننا نحن الألوف الصغيرة نقاتل بعضنا البعض من أجلكم، نجرّ صليبنا لوحدنا، نحن أولاد أرض صغيرة تتأرجح في بحر كبير

جداً بالنسبة لها لكن ـ ومن فضلكم ـ لا تزيدوا الطين بلة لأنكم لا تمتلكون أدنى حقاً. لقد أفرغتم مرضكم الجزري، مرض عزلتكم الجزرية فينا، بصقتم علينا معتقدين بأننا لا ندري بكم، لكننا ندري، بل درينا وفطنا مرات ومرات، ومن داخل الظلمة التي دفعتمونا إليها ينبعث ضوء الغد. هذا هو الصليب الذي نجره لتونا بسببكم، ولو تكبرون قليلاً سيخف صليبنا بل يقع من فوق أكتافنا، لو تتنحّون أو تتباعدون. أنتم صليبنا، وأنتم لسنا نحن، بينكم وبين الجماهير أختار الجماهير ولا أمتلك ثقة بكم).

(كارلو ماينو)

كانت (سيليفيا) بالغة الأعياء وقد انتهت من آخر كلمة، وكان أن عم الغرفة صمت تام، فيما تطلع الاثنان مباشرة وفي بعضهما البعض. وكان (كارلو مانيو) قد ظل على وضعه كامل الوقت متهالكاً على لكرسي ذي الذراعين مستمعاً من جديد إلى كل كلمة قارئاً في الوقت ذاته ومن جملة إلى أخرى الانطباعات المتبدية على وجه المرأة، وكانت هي تتطلع إليه متبسّماً إليها وكأنه في انتظار أن تفرح له.

- (تكلم).

طلب إليها بصوت هادىء.

خفضت رأسها، طوت الرسالة كما كانت من قبل ولم تقل شيئاً. هزت رأسها وأغلقت عينيها ثم فتحتهما وتطلعت إليه من جديد مندهشة مثلما كانت من قبل وعضت على شفتها كأنها تريد أن تقرضها:

- (سيليفيا) قال لها: (سيليفيا). عاد فقال بعد قليل ثم نهض من مكانه، ضم وجهها براحتيه وقبل رأسها.

ـ (إذهب، إذهب، وارجعها في التو، اسمعني).

طلبت إليه بصوت مخنوق ونبرة فيها شيء من أمر: (ما تزال لديك الفرصة أن تقول للمحرر ألا ينشر هذه الرسالة).

ـ (لا تكوني ضعيفة هكذا يا سيليفيا). حذرها: (غداً وفي الجريدة (تقرئينها أفضل).

ـ (لا ضير في أن أكون ضعيفة من أجلك. ألا تعرف ماذا كتبت؟).

ـ (كتبت ذلك الذي تحسينه أنت، والذي يحسه الكثيرون من أولئك الذين لا يمتلكون الشجاعة على أن يفتحوا أفواههم وينطقون بذلك الذي يحسونه، وكل ما فعلته إني كتبت باسمهم...).

ـ (هذا ليس مبرراً معقولاً):

ـ (هذا ليس مبرراً، سواء أكان معقولاً أم غير معقول، وإذا كان ما كتبته جيداً فليس ثمة حاجة إلى مبرر، والقانون الذي يمنعني أن أكتب كل ما كتبت يقع لوحده).

وبعثر لها شعرها بيديه الاثنتين ضاغطاً بأصابعه على رأسها: (أصحيح أم ليس صحيحاً الذي كتبته؟).

ولم ترغب (سيليفيا) في الإجابة. وألحّ:

ـ (واقع أم لا؟).

ظلت (سيليفيا) ساهمة لبعض الوقت، ثم أشارت برأسها مرتين وكان هو أن فهم:

ـ (أنت تعرفين بأن كل ما كتبته هو واقع، وأن ما ينقصك هو

الشجاعة بأن تؤمنين بأن ما هو صحيح ينبغي أن يقال. إن الكذبة يا سيليفيا لا يكذبها فقط من يحرّف الحقيقة بل من يسكت أيضاً، أحسني هادئاً إلى حد كبير، هادئاً وسعيداً أكثر من ذي قبل، ودعيني أقول لك شيئاً: لا أذكر أني شعرت بالسعادة قط مثلما شعرت هذه الأيام عندما جلست وظللت أكتب، لقد أحسست بشيء ما هكذا منبثقاً مني واسترحت. الآن أشعر بأني مستريح، وأتمنى أن تشعرين بمثلما أشعر، أعديني من الآن بأن تفكري مثلي، بل أعديني بألا تخافي مما تحسين به. ألا تعرفين ما هو الجيد في ذاك الذي كتبت؟ الجيد إني لم أكتب شيئاً خاصاً. الخاص هو حقيقة ما أحسست به والذي يحسه ـ فضلاً عن ذلك ـ الكثيرون والكثيرون. ليس ثمة حقيقة خاصة على الإطلاق. الخصوصية فقط شجاعة من يقلها ويعلنها حين تكون حقيقة مرة ومزعجة).

ـ (لا أستطيع ألاّ أتفق معك يا كارلو، لكني أحبك، ولأني أحبك فإنني أخاف عليك).

تنهدت والدموع في عينيها: (إذهب، إذهب وارجعها قبل أن يسبق السيف العذل). طلبت إليه دون أن يكون لها أقل أملاً في إقناعه. على أنها شيئاً فشيئاً بدأت تستحسنه وتغير من شجاعته، وكانت أن تمنت لو أنه لم يكتب تلك الرسالة، في حين أحست بالفخر لأنها قرأت ما كتب.

ـ (كلامكم ينبغي أن يكون: نعم، نعم لا، لا. وإلا...) ذكرها: (أتعرفين من قال هذا؟).

ـ (أعرف، أعرف بكل تأكيد). قالت له رافعة عينيها إليه. كانت

لها نظرة ريبية: (لكن. . .) تابعت بتشدق.

- (لكن، لكن، أنت تقولين وهذا ليس الكلام الذي يقوله المرء بجدية، أنت محقة عندما تفكرين هكذا يا سيليفيا لأنهم هكذا علمونا أن نفعل. لقد خيل إليهم أن كلام المسيح قد ذهب وتلاشى، صار خطبة بلاغية ثقيلة واحدة، قديماً صار واحتفظوا به للمواعظ. فضلاً عن ذلك ثمة العملية، الدبلوماسية فالمسيح يمتلك اليوم حتى السفراء والسفارات ليمثلوه، لا شيء ينقصه وأن دبلوماسية الناصري ليعوزها كل الذوق، شاب فقير من بيت لحم أصاب حظه، صقلوه ومدنوه دبلوماسيو روما. أوه، أية جريمة تلك!).

- (كن عملياً). حذّرته.

- (عملياً ـ بمعنى مفسداً أو مرتشي). قاطعها: (عملياً بمعنى ألا يؤخذ كلامه على محمل الجد، بل تمضغه وتلوكه مثل علكة، وتشكله الألسن التي تقرضه، تشكله أو تنوّعه وتظل تليّنه وتمصه كي يكون خلوا بالكلية من أيما طعم، لكم هو ضال وشريد يسوع المسيح).

(كارلو، كارلو، إلى أين ذهب بك تفكيرك؟).

دمدمت بشيء من الغضب.

- (أو لم يفعلوا هكذا بالإنجيل؟ هم أنفسهم الذين من واجبهم أن يتحملوا ثقل عوائقه وأوزاره لأنهم بدلوه في كتاب اليوميات الخاص، ضرب من قواعد المراسم والتشريفات التي لا ينبغي أن تؤخذ على محمل الجد. وإذا ما تكلم هو عن الإيمان الذي يصنع المعجزات فأنهم يعلنون بأنه وبدون المال لا تستطيع أن تفعل

شيئاً، وإذا ما رأف بالفقراء وودهم وتعاطف معهم تعاطفوا هم مع الأغنياء واختلقوا ضرورة الأيديولوجية التاريخية التي تضيق الخناق على الفقراء والمعوزين وبمجازفة أن خطته تعتبر بمثابة حلم فارغ، ومعهم ولأجلهم تورط هو أيضاً، لأنه هكذا تقتضي الدبلوماسية، ونتيجة لأفعالهم تلاشى كلامه، فقد عرق السوس، وحلت عوضاً عنه قواعد المراسم والتشريفات، الاستراتيجية، والدبلوماسية. ولو الناصري ـ يا حسرتاه ـ تعلم قليلاً من الدبلوماسية لوفق في الحصول على أرقى مرتبة من مراتب بلاده وتقاعد بشرف في التسعين من عمره وحظي بمأتم فخم وجليل، لكنه أبله هو الذي اختار طريقاً مغايراً آخر، وانظر كيف انتهى. كوفيء بالمشنقة، مشنقة المجرمين في ريعان شبابه، وأضاع رسالته ومهمته لأنه لم يكن عملياً فيما استوعبوا هم الدرس وصاروا عمليين).

توقف (كارلو) وقد تبدى على ملامح وجهه غضب بالغ فيما ظلت (سيليفيا) صامتة، ولم تعرف بأي شيء ستجيب. لقد قرأت الإنجيل كأي أحد، وبدا لها بأن أصحاب المقامات الرفيعة الذين يبشرون به كبيان رسمي مثالي والذين يتبنون فيما بعد استراتيجية التسويات العملية كانوا محقين وكانوا أناساً راشدين وناضجين وبكامل قواهم العقلية.

- (ألا يقولون هم بأن يسوع يريد المغفرة ثم يعلّمون فيما بعد حق الدفاع؟ أليسوا هم الذين قالوا لنا بأن ينبغي علينا أن نشارك في الحرب، الحرب العادلة، نطلق النار ونقتل بهدف الدفاع السامي عن الوطن؟ لأن بلدنا وأنت تعرفين هو لنا وثمة الأجانب الأعداء الذين يتوجب علينا أن نقتلهم إذا ما حاولوا قتلنا. أن

يسوع بناءً على أقوالهم وأفعالهم على نحو سيء ومشين، ولتختارين مع من ستقفين لكن ليس بمقدورك أن تقفي مع الاثنين في آنٍ واحد. أليسوا هم الذين يمجدون فقره ويتفاخرون ويتباهون به ثم يفكروننا فيما بعد بأنه من غير المال ليس بالمستطاع حتى نشر رسالته؟ وهذا عين الحق إذ ليس بالإِمكان فعل أيما شيء من غير المال، إذن كان مخطئاً هو وهم كانوا محقين! لقد انتهينا إلى أن ظفرنا بالحروب باسمه والحروب مباركة منه وحتى الجرائم غايات سامية ونبيلة، لكن حين يعم بعد ذلك داء عضال أو يحدث زلزال أو يصل أعصار فأنهم يقولون لنا عندئذٍ: تلك كانت مشيئته!. إن ثمة حداً فاصلاً يبين من أين تبدأ العملية، وحيث لا نمتلك ما نفعله يدخلون الإِيمان، وحين ندخل نحن بالمسئولية المنتظرة منا يحشرون الدبلوماسية، فلتختارين يا سيليفيا، ألا يتوجب أن يؤخذ كلامه على محمل الجد أم لا؟. صحيحاً أم ليس صحيحاً أن من يؤمن بإمكانه أن يزحزح الجبل؟ هم يفكرون دائماً بأن الجبل لا يتزحزح قط. نأخذ كلامه بالابتسامات الخفيفة المعلقة على شفاهنا، لكنهم ليسوا من الحصافة بمكان بحيث يعملون تفكيرهم ليدركون بأنه ولكي تتزحزح الجبال لا بدّ من وجود الإِيمان الراسخ والدبلوماسية ليست إيماناً راسخاً بل استراتيجية، لعبة قائمة على قوانين ودساتير مقاسة بالمسطرة، اختاري يا سييلفيا) وظلت (سيليفيا) متطلعة إليه ومفكرة، ثم تذكرت أن ثمة صليباً في منتصف الغرفة ورفعت إليه عينيها.

وطلب إليها من جديد:

- (اختاري يا سيليفيا).

- (أنت محق، محق يا كارلو. . أعني، أنه لمحق، محق، محق). ثم صمتت قليلاً وتابعت: (لكن هذا دين وليس سياسة، كنا نتحدث عن السياسة، عن الرسالة التي كتبتها، رسالة سياسية والدين والسياسة لا يلتقيان قط).

- (الإثنان لا يتفقان معاً، حقاً، لأنهما ليسا غير شيئاً واحداً).

- (شيئاً واحداً!).

عارضته بنبرة تهكمية.

- (الإنجيل هو أيضاً بيان رسمي سياسي، وإذا شئت فقل بيان رسمي كلّياني Totalitarju(100) يدخل كل شيء، دائم وفي كل مكان، يتحدى التخوم الوطنية، يقلب إحساس وشعور مواطنية البلد، يهد ويهدم الجدار الذي بنيناه ورفعناه بين طبقة اجتماعية وأخرى ويهبط بالله في الميدان وعلى مرأى من الجميع، وإذا أردت أن تؤمن فينبغي أن تؤمن بكل الذي تعمل. أن يسوع هو أيضاً مجرم سياسي، كما أن السياسة الجيدة والعاقلة حماية وصون للدين، وغيرها تجريد لها. إن السياسي أما أن يكون جيداً أو غير جيد، ليست ثمة أبعاداً أخرى وطنية، عرقية، طبقية في الإنجيل، وإذا ما كان السياسي سيئاً فهو سيء كإنسان، كإنسان سيء).

- (هم سيئون يا كارلو). قالت متنهدة.

- (مرضي، هكذا أفكر).

---

(100) Totalitarian: ذو علاقة بنظام سياسي مبني على إخضاع الفرد للدولة، وعلى السيطرة الصارمة على جميع مظاهر حياة الأمة وطاقاتها المنتجة.

وتوقف لأنه تنبه إلى أنه قطع كلامها:

- (هم سيئون يا كارلو، إذن كيف بإمكانك أن تكون ضدهم؟ هذا فقط قصدي، أنهم يبيعونك ويشترونك. بالسلطة بإمكانهم أن يعبروا من فوق جثمان أمهم الساخن. أنهم جنس مختلف وإني لأعرفك جيداً وأنهم لن يفهمونك لأنهم شائخون وأنت... أوه يا للفظاعة، يا للفظاعة!. لا أقدر أن أتخيلك حتى تعيش في دغلهم..).

- (العالم واحد يا سيليفيا. حين يهبطون من فوق خشبة المسرح ويعودون إلى البيت يستحيلون من جديد لحماً ودماً...).

- (أهكذا تفكر؟).

سألته بنبرة ساخرة، شفتاها مزمومتين ونظرتها مكسورة.

- (هكذا أفكر، لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف، ربما هكذا أفكر، قابيل في البدء كان من لحم ودم...).

أجابها بنبرة ملؤها الشك:

- (تود أن تفكر هكذا لكنك لست واثقاً، السلطة لا تفسد يا كارلو لأنها في حد ذاتها فاسدة. الناس من سلالة هابيل وقابيل، ثمة من هم شعراء وثمة من هم محاربينَ، أطفال هابيل لطفاء وأطفال قابيل مشهّرون. إن طبيعة الإنسان لم تخلق ليأمر بل لتعطه الإذن بالعيش. السلطة تقف في مواجهة الطبيعة التي علمتنا أن نطيع، يخافون الشعر لأنه ينتصر عليهم ويسخرون منه لأنه يكشفهم.. ألا تقول هكذا عادة؟).

- (أما تزالين تحبين الشعر إلى ما لا نهاية؟).

قاطع كلامها ليثيرها بلطف، وتبسمت (سيليفيا):

- (الشعر يسكننا. أنت يا كارلو تعرف مثلي، ولو لم يسكننا لما أحسسنا بشيء، أنهم لا يعرفون ما هو الشعر، ولهذا يخجلون منه ويدوسونه، وإني لأرتعب حين أفكر بأنك قد تقع بين أيديهم. أنت لحم طري جداً لأسنانهم يا كارلو). تنهدت: (إن جلدتهم شائخة وأنت..).

- (لتطمئنين إذن يا سيليفيا، ما داموا لا يحسون بجلدتهم شيئاً فإن هذه الرسالة لن تمسهم في اللحم الحي).

تابع بنصف اقتناع.

- (لا، لا، يا كارلو، هذه الرسالة سيشعرون بها لأنك تمس الحاجة الوحيدة والعزيزة لديهم: الهيكلية الشعبية التي تشدهم وتثبتهم على القاعدة).

- (أتمنى أن تكوني محقة يا سيليفيا).

- (أخاف من ذلك يا كارلو).

قالت ثم نهضت واقفة وضمته إليها وناولته الأوراق المطوية فيما غضّنتها هو في قبضة يده ودفنها في الجيب.

15

* كان متمشياً على حافة الرصيف وكان ريح الصباح قد شوّش شعره فيما أزعجه تمازج وتثني وتداخل صفحات الجريدة بين يديه الأمر الذي دفعه إلى إعادة تصفحها على عجل ثم لمها وغضنها دفعة واحدة وغذّ سيره إلى أن عثر في طريقه على أول مشرب:

- (أمن الممكن أن أهتف من فضلك؟).

طلب (كارلو مانيو) من صاحب المشرب مقترباً من الزاوية حيث الهاتف.

- (خمس سنتات لو سمحت).

قال الآخر. أدخل (كارلو مانيو) يده في الجيب متفرّساً وجهه ثم وضع له العملة على النضد ورفع السماعة:

- (أأستطيع أن أكلم المحرر؟).

سأل. بعد أن تمكن من الاتصال بمكتب الصحيفة ردت عليه شابة بلطف، سألته اسمه وطلبت إليه أن ينتظر قليلاً.

- (أنا كاتب تلك الرسالة التي بعثتها إليك منذ أيام قلائل، وهي

رسالة مفتوحة للبرلمان، لقد وعدتني بأن تنشرها في عدد اليوم، واليوم ها آنذا أتصفح الجريدة وما من شيء. . .).

وأجابه المحرر بجفاف:

- (لتعذرني إذ أني أسرعت قليلاً حين أكدت لك بأني سأنشر تلك الرسالة. إن هيئة التحرير نظرت إليها بشكل آخر، والآن عليّ أن أخبرك بأنهم نظروا إليها جيداً، واسمح لي في أنني سوف لن أنشرها، متأسف:.

- (لماذا؟).

سأله (كارلو مانيو) بنبرة اندهاش.

- (لماذا، لماذا، أعتقد أنك تعرف لماذا. إن تلك الرسالة تشكل خرقاً للامتياز). أضاف المحرر.

- (أعرف، أعرف).

قاطعه (كارلو مانيو).

- (أتعرف؟).

كان صوت المحرر ممتلئاً اندهاشاً ومرارة: (وتقول بأنك تعرف؟ إن خرق وانتهاك الامتياز يورطنا في مشاكل كثيرة).

في المشرب كان تفكير الجميع في أشياء أخرى، موائد طويلة مغرقة رجالاً يحتسون القهوة ويقضمون فطائر الجبن الساخنة المتلاحقة دزينة وراء أخرى، وكان النقاش في الهاتف خاصاً وعاماً في آنٍ معاً بحيث كان بإمكان الجميع سماعه لأن الأفواه الصامتة كانت تأكل وتشرب، بل ما كان لأحد أن يفتح أذنيه ليلتقط كلمة.

- (لكن. . ألا تتفق مع المكتوب في تلك الرسالة؟ وهل هذه المرة

الأولى التي كتبت بصحيفتك أفكاراً من هذا النوع؟).

أراد (كارلو مانيو) أن يعرف وكان ممتعضاً: (تلك أفكار يتفق معها كل أحد بشكل أو آخر).

- (لكن ثمة طريقة أخرى لكتابتها. ورأى هيئة التحرير القانوني يعتبرها خرقاً للامتياز، ونحن لسنا في حاجة إلى أن نتعرض لهذا. بإمكاننا أن نقول لك أننا نتفق مع كل ما كتبته لكن لتعذرنا. . .).

- (إذن وما دام تتفق. . .).

عاد (كارلو) فقاطعه.

- (ليس كل ما هو صحيح نستطيع أن نكتبه ونقوله يا سيد، والآن عليّ أن أقفل الخط، عفواً، فثمة البعض في انتظاري).

خبط (كارلو مانيو) ا لسماعة ودنا من صاحب المشرب:

- (قهوة وفطيرتين من فضلك).

- (بالبازيليا أو بالجبن؟).

- (لا فرق!).

ردّ (كارلو مانيو) بجفاف وعلى نحو خاطف. أختار له صاحب المشرب واحداً من كل نوع. كان الجهاز المرئي مشغولاً هناك على الرف وصامتاً ومن أجل لا شيء تقريباً، ويصادف أن ترتفع إليه ومن حين إلى آخر رأس وتنخفض إلى المائدة. الناس ما بين قادم وذاهب وثمة انطباعاً يوحي بالجوع والفعالية والعجل. وكان (كارلو مانيو) أن احتسى القهوة في دفعة واحدة والتهم الفطيرتين الاثنتين في قضمتين ثم دفع وخرج مسرعاً.

ما أن وصل البيت حتى وجد نسخة من الرسالة، وضعها في ظرف ألصق طابع بريد عليه وعنونها باسم وزير العدل ثم خرج ودفع بها في أول صندوق بريد وجده في طريقه:

ـ (ألسفر الميمون!). قال لها ضاحكاً: (إذا لم يقرؤنك اليوم فسيقرؤنك غداً، وإذ ليس غداً فبعد غد). تابع:

ـ (ما كتبته قد كتبته)!.

عقب يومين قطع وزير العدل حديثه في البرلمان ولفت انتباه أصحابه حضرات السادة إلى الرسالة التي وصلته حيث أظهر أصحاب المعالي الأعضاء اهتماماً على غير عادتهم ورغبوا هم أيضاً في أن يقرؤنها. كانوا لا يفعلون في الواقع شيئاً في تلك الصالة المقطوعة عن الناس، وكانت تواجههم مشكلة كبيرة في الكيفية التي ينفقون فيها الوقت، فثمة من يقضم أو يطحن الخبيز الجاف أو يأكل الشوكولاتا، وثمة من يطالع صحيفة أو يصمم على الورق أو ينهمك في الرسم العابث doodle في حين يذهب البعض في إغفاءات، والبعض الآخر ينفق وقته في الثقافة وأمور الثقافة، اثنين باثنين يلعبون لعبة بناء الكلام، وكنت ترى البعض منهم منشغلين بتصنيع طيارات وبواخر من ورق. لكن هذه المرة نصب كل واحد منهم أذنيه ووجّهما حين تابع الوزير كلامه:

ـ (هذه يا سيادة الرئيس رسالة تريد أن تنال من مجلس النواب، وهي مرسلة إليّ باعتباري متقلداً لمنصب وزير العدل، لكنها وفي الوقت ذاته تتعرض للجميع، لكل أحد، إليكم أيضاً، وإن كنت لا أعرف بالضبط لماذا مرسلة إليّ دون البقية الباقية، بل دون الكثيرين من الأعضاء. إليّ هذه رسالة مفتوحة.. هكذا دعاها

هذا، وهي مفتوحة ومكتوبة من أحد ما لا أعرفه، نحن لا نعرفه هذا، وهذه الرسالة تهدف إلى تدمير البلاد). وصرخ الوزير: (ومن يريد أن يدمّر البلاد هو مسخ، مسخاً أدعوه من ينوي أن يدمّر بلاده، وإن هذا لا يدمّرني والحكومة فحسب بل يدمّر ولتوه البلد بكامله، لكني أؤكد لهذا بأني سأستخدم ضده كل ما خوله لي القانون من قوة، لأن (ابن آدم) مثل هذا ينبغي عليه أن يخجل من أن يقول أنه مواطن للبلد، أجل ينبغي عليه أن يخجل أعود فأكرر من جديد..).

- (عليه أن يخجل.. أن يخجل.. أن..).

كرر الأعضاء المبجلون.

- (عليه أن يخجل، أقول، لا تقاطعونني.. عليه أن يخجل الذي يؤدي به الأمر إلى أن يكتب رسالة كهذه، لي ولكم، بل لنا جميعاً نحن الذين نقوم على خدمة الجماهير. هذه رسالة مقززة، وأعود فأكرر بأني سأستعمل كافة السلطات التي خولها لي القانون، سأتخذها كلها من باب إرضاء القناعة، وليس لمصلحتي بل لمصلحة البلد).

إذ ذاك ضج أعضاء المجلس في آنٍ معاً مطالبين بقراءة الرسالة، وهكذا لم يتأخر سكرتير المجلس في نسخ الرسالة وتقديم نسخة لكل واحد منهم حيث أحنوا رؤوسهم وشرعوا في قرائتها فيما أطبق صمت لبعض الوقت.

في اجتماع المجلس المدعو إلى الانعقاد نهض الوزير وأعلن بأنه رغب تقييم حادثة انتهاك الامتياز بسبب رسالة أخرى كانت قد وصلته في ذلك اليوم ذاته من (كارلو مانيو)، وكان أعضاء المجلس

أن تملكتهم قناعة لما تبين لهم من دليل وبرهان الأمر الذي دعاهم إلى فتح آذانهم جيداً:

- (وإضافة إلى تلك الرسالة التي أمامكم، والتي أعطيت كل واحد منكم نسخة منها وهي رسالة، أعيد فأكرر بأنها مبعوثة لي وإن كانت تتعرض إليكم، لنا جميعاً، فضلاً عن تلك الرسالة المقززة استلمت رسالة أخرى قصيرة هذه المرة قصيرة جداً، ليست طويلة كالأخرى، وفي ذلك اليوم كان عليه أن يقولَ أشياء كثيرة لكنه اختصرها.. استلمت رسالة أخرى كما قلت والتي تعرضت فيها إلى الإهانة والتهديد من المدعو (كارلو مانيو) ذاته وسوف أقرأها عليكم...) وأحنى الوزير رأسه فوق الورقة التي بيده وبدل من صوته وشرع في القراءة.
- (سيادة الوزير: بالأمس قرأت تعليقاتك الماكرة والخبيثة التي أطلقتها ضدي في مجلس النواب، وعلى الرغم من أنك تتمتع بحصانة البرلمان إلا أنه ستتخذ إجراءات ضدك في حالة عدم تراجعك عن كل ما قلته عني كرد اعتبار وعلى نحو لا ئق ومشرّف.

إذ ذاك حدثت ضجة في المجلس وظل النواب متطلعين في بعضهم البعض، مندهشين ومصدومين، وطلب الرئيس رأيهم:

- (هل ثمة حاجة إلى قراءة الرسالة منَ الحاضرين؟).
- (من الأفضل، من الأفضل!).

قال الأعضاء بالإجماع، وعاد الرئيس فقرأ الرسالة من جديد ثم رفع رأسه من فوق الورقة وطرق طرقتين خفيفتين على سطح المنضدة بمطرقة خشبية في يده اليمنى وأوضح لهم بأنه سيوقف الاجتماع

لبضع دقائق ليظل بإمكانه التفكير في المسألة ثم يصدر بعد ذلك حكمه القضائي إذا ما كان ثمة انتهاكاً للامتياز من الوهلة الأولى.

- (تُرفع الجلسة).

قال لهم ثم دفع الكرسي من خلفه وخرج. خرج حضرات الأعضاء هم أيضاً وتركوا المجلس. كان السيد الرئيس قد دخل مكتبه وقفل الباب خلفه، بدّل نظارة القراءة ليرى جيداً ثم انتزعها من جديد وقرأ الرسالة من جديد قرأها وقرأها حتى حفظها عن ظهر قلب.

- (لا، لا، لا،).

غمغم لوحده: (أية مهزلة هذه! أية مهزلة التي وصلنا إليها!). ثم نهض والرسالة منشورة بيده وقفل الباب خلفه، ودعا المجلس إلى الانعقاد من جديد وأخبرهم بقراره:

- (حسبما بدا لها تصدر هذه اللجنة هذا القرار فيما يتعلق بانتهاك واختراق الامتياز الذي كان سعادة الوزير قد قيّمه لتوه، وعليه فإن اللجنة تعلن دائماً بأن القانون الذي ينظم امتياز هذا المجلس هو الأمر (111,610)، صفحة (1425) والذي تم تعديله في الصفحة (1798) وهذا مشار إليه في الأوامر البرلمانية رقم (13)، وفي المادة (10) رقم (2) ينص هذا الأمر، وسأقرأ عليكم... (يدين المجلس بانتهاك الامتياز كل من يرتكب أي فعل من الأفعال الوارد ذكرها فيما يلي...).

وقف، بحث في الورقة المفتوحة أمامه وتابع: (وفي البند الفرعي (2) من المادة المذكورة ثمة واحداً من الأفعال المذكورة والمتعلق بمثل هذه الواقعة: كل من يسيء بشكل أو بآخر، بالكلام،

بالتفكير، أو يدفع إلى ذلك، أعني يسيء إلى سيادة عضو أو ينال من سمعته أو شرفه أو قيمته واحترامه المنتخب من أجله، أو بأي شكل من الأشكال التي تعرقله أو تهينه أو بأي فعل من أفعال الحواس - الداخلية أو الخارجية. .. من أجل واجباته في هذا المجلس. . . أو كل من يستعمل القوة أو التهديد، أو الإهانات المزعجة أو يتمرد أو يشاغب أو يزعج سيادة أي عضو. . . على أية حال).

توقف عن القراءة وقال لهم: (أستطيع أن أتوقف هنا، يكفي إلى هذا الحد، لكن، لا، لا، البند الفرعي يواصل وهذا هو المهم جداً فاسمعوه: (أو يبعث رسالة إهانة أو تهديد لأي عضو من المجلس عن واجباته في المجلس المذكور يكون مخطئاً لانتهاكه الامتياز).

وما أن سمعوا الخلاصة حتى تطلع بعضهم في بعض فرحين بحصولهم على الفقرة التي كانوا في حاجة إليها:

- (تلك، تلك، تلك هي!).

قال بعضهم لبعض بالإجماع فيما كلّل الوجوه جميعها ابتسام اقتناع مرير.

- (لا تقاطعونني).

أسكتهم سيادة الرئيس ثم تابع:

- (بعد أن فكرت ملياً، ودرست الرسالة التي كان السيد وحضرة الوزير قد قرأها فإن هذا المجلس يرى، بل يعلن بأن الرسالة المذكورة تقع تحت المادة (10) من الأمر (110، 111) في الصفحة (1798) فيما يخص امتياز مجلس النواب هذا، بل إنها لتقع تحت آخر مقطع من البند الفرعي المشار إليه، وعليه فإنها تعلن أيضاً بأنها تشكل ومن النظرة الأولى إليها اختراقاً للامتياز).

وهكذا ومن منطلق ما يجمع ويوحد ويلم حضرات الأعضاء من تضامن تعاطفي وتوافق على الإجماع فقد انقطعوا في تصفيق طويل:

- (عفواً، عفواً).

صرخ السيد الرئيس الذي بدا مع هذا كله ممتناً ونهض واقفاً، وحين رأى أن التصفيق قد انتهى قال لهم:

- (هذا يكفي، كفانا تصفيقاً).

وعاد المجلس إلى الصمت من جديد، صمت ملؤه الانتظار وقف حضرة (بيترونيو) واقترح بأن الرسالة المبعوثة من (كارلو مانيو) تعتبر بمثابة انتهاك لحصانة وامتياز حضرة معالي وزير العدل:

- (من يثني على هذا المقترح؟).

سأل السيد الرئيس.

- (أنا!). قالوا جميعاً بصوت واحد ونهض كل منهم رافعاً يده.

- (واحد فقط ينبغي أن يؤيده، واحد يكفي، لأنكم جميعاً سواء بالنسبة لي. قرروا فيما بينكم، لأني لا أستطيع أن أفضل واحداً منكم عن الآخر، لكن واحداً فقط بإمكانه أن....) قال لهم السيد الرئيس: (أعيد فأكرر: من سيعطي رأيه في المقترح؟، واحداً فقط أريد).

قامت وارتفعت ضجة لا مثيل لها فيما بينهم، وأيديهم مرفوعة.

- (كل أحد ينزل يده!).

أمرهم. ونزلت الأيادي في مرة واحدة.

وتابع: (سأطلب من أي أحد أن يعطي رأيه، وفي هذه المرة سيكون على المجلس ـ رغم إرادته ـ أن يقرر). ثم توقف قليلاً

منتظراً السكوت وعاد فقال لهم: (من سيعطي رأيه؟). هذه المرة كانت أيادي قليلة مرفوعة، وكان هو أن قرر بأن صاحب السعادة الذي رفع يده أولاً من حقه أن يكون الثاني فيما تطلع إليه الآخرون بعيون ناضحة بالغيرة، وظل حضرة (بيترو نيو) يردد بأن تلك الرسالة كانت تهدد وتهين المجلس بكامله: (ينقصنا أن نقرر التاريخ الذي ينبغي على السيد (كارلو مانيو) أن يقف فيه أمامنا هنا ليدافع عن نفسه، وإني لفرح وممتن وقد قررنا لتونا بأن ثمة انتهاكاً للامتياز).

وقرأ السيد الرئيس مقترح (بيترو نيو) من جديد وطالب المجلس بالتصويت عليه:

- (من يثنّي على المقترح؟).

صرخ. نهض الأعضاء واقفين من جديد رافعين أيديهم وعدّ السيد الرئيس الأصابع المنتشرة، ثم قدّر بأن الجميع موافقين:

- (ومن غير الموافق؟).

عمّ صمت مطبق وعادت الأصابع إلى أماكنها.

- (إذا كان الجميع موافقين فلماذا تسأل إذن عمّن ليس موافقاً؟).

أثاره أحد الأعضاء.

- (هذا إجراء، والمجلس يتعامل مع الإجراء بلطف ولين ومرونة). أجابه: (لكن إذا ما عدت يا سيادة العضو وعلقت تعليقاً كهذا فإني لا أتردد في أن أتهمك أنت أيضاً بانتهاك الامتياز!).

إذ ذاك هبط الأعضاء جالسين وبهدوء وخفضوا رؤوسهم فيما

انفجر البعض منهم ضاحكاً.

- (وأنتم أيضاً الذين تسخرون منه وتضحكون عليه، أتهمكم بانتهاككم الامتياز ضد سعادة العضو، هذا أعلى قانون في البلاد ولا أحد منا يستطيع أن يقلل من احترام وسيادة وجاه أي عضو آخر).

وأطبق الصمت من جديد، وتوقف الضحك فجأة وتبدت الجدية هكذا وفي مرة واحدة على الوجوه.

- (القرار اتخذ و. . .).

أعلن السيد الرئيس، في حين نهض (بيترو نيو) وتكلم من جديد: (أقترح يا سيادة الرئيس بأن يكون النقاش حول هذا المقترح في الاجتماع القادم. إن السيد (كارلو مانيو) لا بد من أن يُعلم، وأن تعطي له الفرصة ليجهز نفسه ولنرى في الوقت ذاته ما إذا كان لديه أي شاهد). وقال حضرة (بينو لو) بأن تلك مسألة غاية في الأهمية والخطورة معاً: (وإذا ما اكتشفنا بأن هذا المواطن مخطىء نكون قد قدمنا درساً لكل أحد، وكي لا يفكر أحد ما بعد ذلك في المزاح مع هذا المجلس. لا سمح الله!، أن نصل إلى وضع يكتب فيه كل من يريد أن يكتب إلينا، ولا سمح الله أن نصل إلى هذه الدرجة!. إنه لينبغي أن نحمي بكافة ما نمتلكه من حقوق، وبالحقوق كلها التي بالضرورة أن نظفر بها، مائة بالمائة مائة بالمائة!).

وضج المجلس بتصفيق طويل لا يكاد أن ينقطع.

- (إنه لمن دواعي سروري أن أرى هذا التآلف والاتفاق بيننا).

قال السيد الرئيس: (هذا هو المثل الرائع الذي نريد أن نقدمه للجماهير، مثل على الاتحاد، وإني لأرى مطالب الاتحاد التي كنا

نصبو إليها منذ مدة قد تحققت وأثمرت نتائجها. تهانينا يا حضرات الأعضاء!).

بعد أيام قليلة طلب بيترو نيو الإذن من المجلس لطرح المقترح، وكان الأعضاء أن لبّوا رغبته وطفق يقرأ ورقة أعدها بالخصوص: (أقترح على المجلس بعد أن أقر في قراره الجماعي في 31 فبراير 1919) بأن الرسالة المرسلة إلى سيادة وزير العدل من (كارلو مانيو) تعتبر انتهاكاً للامتياز، أقترح أن يستدعي المدعو (كارلو مانيو) للمثول أمام هذا المجلس في اجتماع الاثنين 5 مارس 1919 في تمام الساعة السابعة صباحاً ليقول لماذا لم يكن مخطئاً بانتهاكه لحصانة وامتياز المجلس).

- (من سيكون المتكلم الثاني؟).

سأل السيد الرئيس، وضج الأعضاء بكامل الحماس ليكون كل واحد منهم الثاني، ثم نهضوا جميعاً من جديد وأيديهم مرفوعة، وكان على الرئيس وبنفس الإجراء السابق أن ـ يختار الثاني. قرأ المقترح وكان الأعضاء في هذه المرة قد صوتوا أيضاً بالإجماع.

الاثنين 5 مارس، وفي الخامسة صباحاً على وجه التقريب دخل (كارلو مانيو) المقبرة بباقة زهور فواحة مقطوفة من حديقة القرية وسلك طريقه مباشرة إلى حيث قبر أمه، وضع الزهور على الرخامة، وفتح باب الفنار الموضوع في منتصف الرخامة، وأوقد الشمعة، واندفع جالساً، ومرر يده اليمنى مفتوحة فوق الرخامة حتى سوّدها التراب. لم تكن ثمة روحاً وكان أن تكلم معها بحرية، الشمس لم تكن محرقة، والنسيم يكسر الصمت بعض الشيء حيث يداعب بلطف الأوراق ويعبث على الأقل بالأغصان. كل شيء كان يغفو

ويهذي في سلام حتى روح (كارلو مانيو):

- (لا تفكر بأني خذلتك أو قصرت في حقك يا أماه، إني وفي كل ما فعلته لم أستطع أن أنسى كلامك، والذي لو لم يكن المثل الذي أعطيتني في ماضي امرأة مخبؤة ورائعة لما فعلت الذي فعلته. إنها لخطيئتك، أنت مخطئة لأني حاولت أن أكون رجلاً، لأنك عشت كامرأة وأردتني أن أكون رجلاً - متى أطيع ومتى لا أطيع. لم أنسى نصيحتك: اصبر. كل ما فعلته قد فعلته لأني صبرت. وهذا الشيء يبدو غريباً، بل هكذا هو... إن الصبر لا يفسر أن أغلق عينيّ أو أن أخف أمام من يقف على رأسي. وإذا ما كان الذي كتبته صحيحاً وضد القانون، إذن فالصحيح بالإمكان أن يكون ضد القانون. أنت علمتني أن أفعل الصحيح والشيء الصحيح يا أماه، إذن فأنت علمتني أن أتحدى).

وتذكر (كارلو مانيو) بأن أمه لم تتحدى القانون قط، ولقد عاشت حياتها على الدوام في الظل والزاوية ولم تذكر في أية صحيفة، ولم يدوّن اسمها في أي سجل عدا الكتاب الضخم لمن ولد أو تزوج أو مات، سجل مجهولي الهوية، ولو أنها ولدت وعاشت في فترة ما قبل السجلات لدون اسمها أيضاً ليدفن معها في القبر، ويغلق تحت رخامها:

- (يا أماه، قولي بأنك تتفقين معي، وأنك لسك مستاءة من كل ما فعلته وما سأفعله. لا شيء ينقصك غير الكلام، والموت لم يأخذ لي شيئاً منك غير عينيك ووجهك وفمك. لقد ووريت وخبئت كي لا تظهرين ولا تتكلمين لكنك لم تختبئين كثيراً كي لا ترين وتسبمعين، وأنك لتتفقين معي لأنك أنت أيضاً صبرت يا أماه).

لم يكن ثمة أقل صوت عدا حفيف ورقة خفيف وزقزقة عصفور مختبىء. وكان (كارلو مانيو) بعد ذلك أن أحنى رأسه فوق يديه الاثنتين وصمت، وحين تطلع من حوله لم يرى إلا القبور، واحداً بجانب الآخر، متضامنة مع بعضها البعض.

- (هنا تضامن حقيقي). فكّر.

- (لا أحد يظهر تضامناً معك). فكّر.

- (هنا الجميع متفقون فيما بينهم). فكّر.

- (هم أيضاً، هم سيتفقون فيما بينهم). فكّر.

- (لا أحد سيتفق معهم). فكّر.

وفكّره قرع الأجراس بأن وقت إغلاق المقبرة قد حان ومرر سبابته فوق وجه القبر ليرسم الصليب، وصار إصبعه أسوداً من التراب فيما تطلع إليه ونفض التراب عنه قدر المستطاع وقطف وردة من باقة الزهور التي وضعها على القبر ودفعها في جيبه في حين سلك طريقه إلى الخارج.

- (كم أمضيت من الوقت؟).

- سألته (سيليفيا) التي ظلت في انتظاره بجانب بوابة المقبرة، ضمته إليها وسحبته من يده ليمشي.

- (لماذا لم تدخلي معي).

سألها وكان يعرف لماذا.

- (ألا تعرف بأني لا أدخل؟ أخاف...).

قالت له وكان تفكيرها في عالم الأحياء.

ـ (هل ستذهبين معي إلى البرلمان؟).

ـ (وماذا يعني ألا أذهب؟ لماذا تسألني؟).

قالت له تقريباً بصوت منزعج.

ـ (أتخافين الأحياء الذين ماتوا ولا تخافين الأحياء الذين لم يموتون بعد؟). قال لها بصوت إجابة: (الآن سترين الفرق). ثم انفك عنها قليلاً ليخرج الساعة من الجيب: (من الأفضل أن نسرع لأن الوقت سيحين، ـ نمشي من هنا إلى هنالك، إذا لم نتوانى فسنصل في الوقت ذاته).

ضغطت (سيليفيا) يده ونظرت في عينيه مباشرة: (تشجّع) قالت له: (أنت لست وحدك، اليوم ولأول مرة أشعر حقاً بأني أغير عليك، اليوم ولأول مرة أشعر، بل لا أريد أية امرأة ترى إليك وتسرقك، اليوم ستتمناك أجمل النساء، أعرف، أعرف، بأنك لست وحدك يا كارلو).

ـ (وحدي ولست لوحدي). تنهد.

ـ (بل لست وحدك، كثيرون هم الذين يتمنون الشجاعة التي لديك، ويحلمون بأنهم موجودون بدلاً منك).

ـ (أشكرك يا سيليفيا). قال لها فرحاً.

ما أن دخلا بناية البرلمان حتى ذهبت هي لتجد لها مكاناً في الحجرة المعدة للجمهور، شرفة (الأجانب) فيما ظل منتظراً خارج الردهة في انتظار أن ينادونه ليدخل.

الكل في المجلس بمكانه، وأخبر السيد الرئيس ـ الأعضاء بأنه سيأمر بطلب السيد (كارلو مانيو) للمثول أمامه هنا في الداخل

و . . . دخل (كارلو مانيو) وظل واقفاً أمام كرسي معدّ له وللغرض ذاته في المنتصف وما أن رأى الأعضاء وقد جلسوا جميعاً حتى جلس هو أيضاً على الكرسي.

- (إنهض من هناك، إنهض).

سارع السيد الرئيس فقال له: (لم يسمح لك أحد ما بالجلوس بعد). ثم وقف وغير من صوته ونهض (كارلو) واقفاً من جديد:

- (هل أنت السيد كارلو مانيو؟).
- (نعم). قال (كارلو) وأحنى رأسه مع الكلمة.
- (نريد أن نسمع الكلمة: نعم أو لا، ذلك هو الإِجراء، لم أسمعك). قال له الرئيس.
- (نعم).
- (من حقك - إذا ما أردت - أن تدخل معك محامياً ليعينك، هل معك محامي؟).
- (لا).

انتزع سيادة الرئيس النظارة وتطلع إلى المتهم بكامل الفضول، وتطلع الأعضاء إليه مستغربين، وتطلعوا في بعضهم البعض، في حين غرق المجلس في التمتمات والهمسات.

- (السكوت، السكوت) صرخ سيادة الرئيس، وخبط مطرقة الخشب على وجه المنضدة مرتين وتوقف اللغط في الحال، فيما ظلت العيون مسلطة على (كارلو) المنتصب القامة، وحرص الرئيس على ألا يعلق على قرار المتهم:
- (هل يتفضل المجلس بأن نقدم كرسياً للسيد كارلو مانيو؟ هل

ثمة من يعترض على أن نعطه كرسياً؟).

- (لا)، صرخ حضرات الأعضاء بالإِجماع، ووفق على المقترح جماعياً. وذهب أحد قيمي المراسم ليحضر كرسياً غير أن ـ السيد الرئيس أوضح له بأن لا داع لذلك حيث أن كرسياً جهز خصيصاً وعلى نحو جيد خلف (كارلو مانيو)، مسحت عيون الجميع الكرسي:

- (إنه لمن دواعي سرور المجلس أن يعلن لك بأنه قبل وبالإِجماع على أن تجلس). قال السيد الرئيس. نظر (كارلو مانيو) إلى الخلف وجلس، في حين تسللت يده غريزياً إلى جيبه وضغطت على الوردة. كانت لم تذبل بعد.

- (أذكّر حضرات الأعضاء بأن كل سؤال يودون طرحه إلى السيد (كارلو مانيو) ينبغي أن يقدمونه إلى المجلس أعني لي، فأنا المجلس وأنا بدوري سأمرره إلى المتهم كما أذكر السيد (كارلو مانيو) أيضاً بأن يقدم كل إجابة لي، للمجلس أعني، كي يمررها المجلس إلى حضرات الأعضاء.

وتطلع المتحدث من فوق عدستي النظارة المائلة فوق أنفه إلى كل جانب من جوانب المجلس ليتيقن من أن كل أحد فهم جيداً).

- (أود). قال حضرة سيانو: (أن يرتدي المتهم ربطة عنق، فها هو وكما ترون، ليس له ربطة عنق. إذن فنحن اليوم هنا في المحكمة العليا).

إذ ذاك علت الأصوات بالمجلس وكثرت الوشوشات.

- (السكوت، السكوت).

قال السيد الرئيس: (لا، لا، هنا البرلمان).

- (بل تحول اليوم إلى محكمة عليا). كرر حضرة سيانو.

- (هنا البرلمان). قال الرئيس من جديد بصوت واثق).

- (بل محكمة عليا).

- (هنا البرلمان).

- (في المحكمة العليا يرتدي المرء أو يتوجب عليه أن يرتدي ربطة عنق وثم. . .) أكد حضرة سيانو.

- (أعود فأكرر، وانطلاقاً من مفهوم المجلس بأن هذا هو البرلمان، هنا البرلمان، المحكمة في مكان آخر، بعيداً من هنا بعض الشيء، وهكذا وكي لا نفقد معاني الاتحاد والجماعية والتضامن التي نقيمها نؤسسها لتونا لهذا المجلس فإني أعتبر بأن المجلس يقر أن يلبس المتهم ربطة عنق، وسأسألك يا سيد كارلو مانيو: أي لون لربطة العنق تريده؟).

- (أحمر!) صرخ جانب من حضرات الأعضاء.

- (أزرق!) صرخ الجانب الآخر من حضرات الأعضاء.

- (يا للعار! هذه حالة استثنائية Partito preso نحن هنا مجلس واحد، ولسنا في حاجة إلى أن ندع الألوان التي لم تفرقنا قط في الماضي تفرقنا وتباعد فيما بيننا اليوم، ومثلما كنا وحتى الآن جماعيين وقدمنا مثلاً من أقوى وأروع ـ الأمثلة للناس فإنني أتمناكم أن تواصلوا العمل كي لا يظل أي جانب في حاجة إلى أن يتعب نفسه ويضايقها، وإني آمر، يأمر المجلس بأن يعطي المتهم ربطة عنق سوداء، وبذلك يكون كل أحد سعيداً، أنتفق؟).

ـ (حسناً). صرخ الأعضاء.

وخرج قيّم المراسم، ودخل بعد قليل وبيده ربطة عنق سوداء، وكان أن عم لحظتها صمت مطبق:

ـ (المجلس يأمرك بأن تلبسها).

قال له الرئيس. تناولها (كارلو مانيو) من يد القيّم ولفها حول عنقه، سوّى العقدة وثبتها ثم سحبها إلى أسفل كي تبدو مناسبة ولائقة:

ـ (لنبدأ، لنبدأ، الآن بإمكاننا أن نبدأ).

أعلن الرئيس. وقرأ حضر بيترونيو المقترح من جديد ونظر إلى أصحابه كما لو أنه يريد أن يوضح لهم بأن النقاش كله يبدأ من هنا: (أنت مخطىء أم لست مخطئاً؟). سأل (كارلو مانيو).

ـ (لا، لا). قاطعه الرئيس: (يا سيد كارلو مانيو لا تجب عن شيء لو سمحت، وأنت يا حضرة بيترونيو، يجب أن تقدم السؤال إليّ، للمجلس ثم أمرّره أنا بدوري إلى المتهم، من فضلك، عاوده من جديد).

نفخ بيترونيو شدقيه بقوة وقال:

ـ (سيادة الرئيس، أود أن أسأل السيد (كارلو مانيو) ما إذا كان مخطئاً أم لا).

ـ (ذلك يكفي). أوقفه الرئيس: (السيد كارلو مانيو، إن حضرة بيترونيو يسألك عما إذا كنت مخطئاً أم لا).

وظل (كارلو) صامتاً.

ـ (مخطئاً أم لا؟).

سأله هذه المرة بصوت عالٍ.

- (أنا كاتب الرسالة المفتوحة التي بعثتها إليكم جميعاً، وبعد أن أهنت هنا في الداخل وبالكلام الذي قيل ضد كلامي، والذي قرأته في الصباح في الجريدة كتبت رسالة أخرى لأبين أن من حقرني وأهانني لا يمتلك أدنى حقاً في أن يتكلم عني هكذا وفي هذا المجلس. أنا لست مخطئاً ولا حتى بريئاً. أنا فقط كاتب تلك الرِسالة، وكاتب الرسالة الأخرى أيضاً والتي اتهمت فيها من حقرني وأساء إليّ هنا في الداخل).

وثارت ثائرة الأعضاء ضد كلامه وخرج البعض من أماكنهم ليدنون منه وينقضون عليه، وكان (كارلو) أن أحس رعدة خوف تسري عبر جسمه كله لكنه لم يود أن يتكلم ـ بطريقة أخرى. إن الصراخ والتدخلات غير المفهومة والواضحة دفعته إلى أن يتلعثم ويرتبك في بعض من كلامه، غير أنه وفق وبصعوبة إلى أن يصل إلى نهاية الجملة:

- (هذه يا سيد (كارلو مانيو) إهانات جديدة، وإذا كنت ستتكلم هكذا فسوف تنتهي لا محالة إلى مالا يحمد عقباه، كما سنقرأ عليك التهمة التي تناسبك من البداية، هذا إذا ما أقر المجلس بأنك مخطىء وبإهانات جديدة الآن أيضاً).

وصرخ السيد الرئيس ورفعَ صوته أكثر من أصحابه كي لا يجعلهم يسيرون الاجتماع بدلاً منه: (أطلب من السادة الأعضاء التزام الصمت، الصمت، أنا أعرف كيف أسيّر الاجتماع، وأعود فأطلب إليكم الالتزام والتقيد بالأوامر كي نتوصل إلى القرار الذي نريده). ثم وقف واستدار إلى المتهم: (بكامل الود والطيبة سأكلمك،

أنا سألتك ما إذا كنت مخطئاً قل لي: نعم، أو لا، حتى الآن هذا ما ينبغي أن تقوله).

وظل (كارلو) صامتاً:

- (بإمكانك أن تقول لي بأنك بريء إذا ما أحسست بأنك لست مخطئاً). خيّره السيد الرئيس: (نعم أو لا، هيا ذلك كل ما عليك أن تقوله ولا شيء أكثر).

- (ليس لديّ ما أقوله، كل ما أردت قوله كتبته).

أجاب (كارلو).

- (هنا نحن نتهمك بانتهاك الامتياز، وهذا شيء بالغ الجدية، أنت متهم، هل تفهمني؟ وكمتهم ينبغي أن تعلن، بل تبدأ في الإِعلام ما إذا كنت مخطئاً أم لا في التهمة الموجهة إليك).

- (حسب الامتياز الذي منحتموه لأنفسكم أنا مخطىء).

- (مخطىء!) صرخ السادة الأعضاء.

- (السكوت، السكوت، دعوه يواصل).

قال لهم السيد الرئيس.

- (إذا ما كنت مخطئاً ووفقاً لامتيازكم فقدموا السؤال لأنفسكم، إني لا أمتلك أي واحد البتة من الامتيازات التي تمتلكونها، وإذا ما كنتم تقدمون السؤال إليّ فعليّ بل ينبغي عليّ أن أقول لكم بأني أنا كاتب كل ما كتبت).

وعاد السيد الرئيس مخبطاً من جديد بالمطرقة الخشبية على المنضدة التي أمامه، لكن مقاطعات وتدخلات الأعضاء بدأت تزداد وتتعاظم.

ـ (من ناحية أخرى) قال له: (هل يؤسفك أنك كتبت ما كتبت؟ كل أحد معرض للخطأ، ومن الممكن أن كل ما كتبته قد كتبته في لحظة من ضيق أو انزعاج. من يدري؟ من الممكن أن ذلك بدا لك جيداً أعني ما كتبته ذلك اليوم واليوم تشعر بالأسف، هل تتأسف، هيا، هيا، هل تتأسف لكتابتك لتلك الرسالتين؟).

وبحث عن من يعينه في كلامه.

ـ (عليّ أن أتفق معك مائة بالمائة إذا ما خالفت قانونكم، وبإمكانكم فقط أن تعتبرونني مخطئاً ومخالفاً بحكم قانونكم، قد أقول لكم بالفم: يؤسفني وأستطيع أن أطلب عفوكم لكني وما أزال أحس في داخلي بكل الذي أحسسته حين كتبت كل كلمة).

وظل (كارلو) هادئاً، وكانت يده تداعب الزهرة التي أخذها من فوق قبر أمه قبل وقت قصير. إذ ذاك نفذ صبر الرئيس وحذّره ألا يكون متغطرساً أو متعجرفاً: (إنك لتظهر لنا بأن ليس لديك حتى الأسف، أليس حقيقة؟).

ـ (لا). قال (كارلو).

ـ (هل سمعتك جيداً؟).

ـ (لا، ليس لدي أسفاً). كرر.

وضج أعضاء المجلس ضجة واحدة. في شرفة الجمهور كان ثمة جواً من الارتياح، وكان البعض قد تبسموا لبعضهم البعض ابتسامات فرحة، فيما لفت أحد محامي المجلس الشيوخ انتباه السيد الرئيس إلى أن هذا الكلام كان إجابة هامة: (سيادة الرئيس، إن المتهم يقر وعلى طريقته بأنه ليس مخطئاً، وعلى سؤالك يقول لتوه بأنه

بريء، أليس جلياً هذا؟).

- (أعتقد بأنك محق). أجابه السيد الرئيس.
- (إذن ينبغي علينا من الآن أن نبدأ النقاش فيما إذا كان مخطئاً أو بريئاً وذلك من واقع ذلك الذي كتبه).

أضاف حضرة المحامي.

- (لكننا اعتبرناه ولتونا وللوهلة الأولى بأنه منتهكٌ للامتياز، أعني لقد قررنا أنه مخطىء). أردف السيد الرئيس.
- (إنتظر قليلاً، اعتبرناه وللوهلة الأولى بأنه منتهك للامتياز بسبب كتابته للرسالة الثانية، تلك التي بعثها ضد حضرة الوزير الذي علق على رسالته الأولى، ونحن باستطاعتنا أن ننهي المسألة، الآن بالذات، على اعتبار تلك الرسالة، رسالة إهانة وفقاً للقانون الذي تفحصناه لتونا والذي بموجبه وبمقتضاه أحضرنا المتهم للمثول أمامنا، وبناءً على القانون وحسبما جاء وورد في الرسالة الثانية يعتبر مخطئاً بانتهاكه للامتياز. هل نتفق؟).
- (لا أتفق في شيء).

قاطع الرئيس كلامه.

- (كيف لا نتفق في شيء؟ ألم نأتي به إلى هنا لنعلن بأنه متهم بانتهاك الامتياز، وبعد أن رأيت أنت نفسك ذلك وللوهلة الأولى، وأعلن المجلس أن ثمة انتهاكاً للامتياز؟ صرخ حضرته.
- (توقف، توقف، لا نتفق في شيء حيث أنني، أعني حيث أن المجلس يريد أن يطلب التصويت ولست أنت، وقبل أن أطلب أنا هذا التصويت من المجلس لا نتفق. ثم لا تنس لو سمحت أن هنا مجلس، ولا تدع حماسك ليركض بك!).

- (إن سيادة الرئيس يعرف بأن كل ما قلته قد قلته بكامل الاحترام والتقدير الذي يليق بالمجلس، ولم يخطر ببالي قط أن أتجاوز أو أن أتجاهل الإِجراء الذي يريد أن ـ نتبعه).

- (بالضبط بالضبط).

صرخ الأعضاء بالإِجماع.

- (إذا كان كذلك). قال السيد الرئيس: (فبإمكاننا أن نضع في اعتبارنا بأن الرسالة الثانية رسالة إهانة وتهديد لأحد من أعضاء هذا المجلس، ولهذا فهي إهانة وتهديد للمجلس بكامله، وسوف أطلب من المجلس أن يصوت على ذلك رغم ما يبدو هنا من تعاطف بين الأعضاء لكن الرسالة الثانية كتبت بعد الأولى، والأولى التي أثارت غضب وزير العدل العادل لا بدّ من أن يتم نقاشها لأنها قضية القضية كلها).

- (انتظر قليلاً، انتظر قليلاً). صرخ الوزير الكبير (هنا لا أحد يلعب بنا، لا أحد يضحك بنا يا سيادة الرئيس لا أحد يمررنا من عين الإِبرة، لا، لا، لا أحد، لا أحد يمررنا من عين الإِبرة، لا أحد، تلك الرسالة ينبغي أن تكون لها إدانتها أيضاً، لأنها تهيننا أيضاً وتهددنا لكن لا ينبغي أن تناقش هنا. هذا من هو، من هو هذا كي يكتب رسالة طويلة محشوة بكلام فارغ، وننفق وقتاً طويلاً في نقاشها؟ أليس ذلك ما يريده؟ أجل، ذلك ما يريده هذا يريدنا أن نتناول الرسالة قطعة بقطعة، لا، لا إذا ما أراد أن يظهر لنا إلى أين يذهب به تفكيره فنحن نريه إلى أين تصل أذرعنا. إذا كان هو يستعمل التفكير فنحن نستعمل القوة).

ـ (بالضبط بالضبط).

صرخ الأعضاء، كا ن ثمة خورس صاخب وتهديد.

(كارلو) ظل ويدهِ في جيبه مفتتاً الوردة التي تقطعت وتناثرت كل بتلاتها والتصقت بين أصابعه.

ـ (لا تقاطعونني أيها الأحباب، دعونا نواصل النقاش كله). تابع الوزير الكبير: (هذا هو أعلى دستور البلاد، هذا هو البرلمان، ولا شيء أعلى منه في البلاد كلها، وإذا ما كان قطعة المواطن هذا يريد أن يناقش كلامه هنا فعليه أن يقوم ببعض من العمل الذي يكلفه وقتاً طويلاً، يدخل السياسة ويظفر بكرسي هنا في الداخل، أي كرسي يمتلك هذا غيرا لكرسي الذي أعطيناه له ليجلس عليه الآن؟ هذا واحد من الناس وليس واحداً منا، لا يمتلك أدنى حقاً في أن يكتب رسالة تتهمنا، أنتم قرأتموها رسالته الطويلة..).

ـ (قرأناها، قرأناها).

قال الأعضاء بنبرة استخفاف وازدراء، وأشار السيد الرئيس إشارة مفادها أن يترك له الحديث ووفقاً للإِجراء، لكنه لم يتمكن من لفت انتباهه.

ـ (قرأتموها).

أضاف الوزير الكبير: (قرأتموها وانسوها، بل خذوها ومزقوها الآن، الآن بالذات، إن هذا يخيل إليّ أنه يريد أن يعلمنا، كما أنه يريد أن يتصرف مثلنا ويحذو حذونا. لكن لو أردنا لتناولنا رسالته، وبكل ما يعتقد ما أثار فيها من جدل وشرحناها له، نشرحها كلها، لكن هذا هو أعلى دستور وقانون البلاد، وليس بمقدور أي مواطن

من خارج ذلك الباب أن يقول أو يكتب كلمة. هنا نحن الذين نأمر، ومن يظن أنه بكتابته لرسالة سيمررنا من عين الإبرة أو يدفعنا إلى نقاشه لا ينتهك الامتياز فحسب بل أنه يتبلّه أيضاً. أبله، أبله، ذلك هو أنت، أبله!). صرخ أعلى من قبل واستدار بوجه عابس لكارلو.

- (أبله، أبله، أبله).

صرخ الأعضاء ثلاث مرات أو أكثر بعده، وتناول السيد الرئيس المطرقة الخشبية ليطرق بها على المنضدة لكنه عاد فأراحها بلا صوت في مكانها. ولم يفطن أحد.

دوت الكلمة وهبطت مباشرة في قلب: (كارلو): (أنتم لستم بلهاء). قال في قلبه: (أنتم فاسدون!).

- (وإضافة إلى ذلك يا سيادة الرئيس). انطلق حضرة بوليفيمو: (أشعر بأنه من حق المتهم أن يسمح له بالكلام، بإمكانه أن يشهد إذا ما أراد).

- (يشهد، يشهد، بإذننا يشهد).

صرخ الوزير الكبير الذي على الرغم من كل ما قاله فقد تملكه فضول لمعرفة من أي مكان قادمة شجاعة هذا الشاب الذي كان مختلفاً عن أولئك الذين يدخلون الجموع ويصرخون ويصفقون لكل كلمة يسمعونها. وما أن أنتبه السيد الرئيس إلى أن الوزير الكبير بدل من رأيه حتى نادى قيّم المجلس ليتكفل بطلب (كارلو مانيو) الإدلاء باليمين:

- (من فضلك، انهض لتدلي بشهادتك).

قال له. ونهض (كارلو) ويده ما تزال في جيبه.

- (وماذا يعني ذلك، هذا الذي منذ أن دخل إلى هنا ظل تقريباً كامل الوقت ويده في الجيب؟ أخرج يدك من الجيب). صرخ الوزير الكبير في وجه (كارلو): (سيادة الرئيس، من حقك أن تأمره بأن يخرج يده من الجيب. هل نعرف نحن ما بجيبه؟، هذا إنسان خطير.. ماذا لديه هناك.. أي مسدس؟ من يدري بالذي لديه هناك فوضوي كهذا؟). واستدارت عيون الجميع في مكان واحد، فيما أخرج (كارلو) قبضته مكورة ورفعها وفتح راحته في اتجاه الوزير الكبير، وكانت أن تناثرت بعض البتلات على الأرض، في حين ظل قلب الوردة مسحوقاً وملتصقاً براحة يده مباشرة. وانفجر الأعضاء ضاحكين، ضحك البكاء.

- (أبله، أبله، أبله).

عاد فصرخ الوزير الكبير، وقال:

- (ها أنتم ترون من أحضرتم أمامنا أيها السادة، هذا الأبله الذي قدم إلى هنا ليهيننا. و.. أحضر معه وردة!) وانفجر ضاحكاً، ونظر إلى أصحابه ليدفعهم إلى الضحك أيضاً، وتطلع الآخرون إليه ولبوا رغبته.

- (إذا ما رغبت في الشهادة فبإمكانك يا سيد (كارلو مانيو) أوضح له سيادة الرئيس: (ألديك ما تقوله؟).

- (وما الذي يود أن يقوله). قال الوزير الكبير: (هذا تحدانا بأول رسالة وأساء لنا وجرح مشاعرنا بالثانية واليوم، انظروا، انظروا إليه، لم يحضر معه محامياً، ولا يود حتى الاعتراف بأنه قد أخطأ، كما أنه لم يقدم حتى اعتذاراً وأعلن أنه ما يزال مصراً

على كل كلمة قد كتبها وكما لو أنه يريد أن يضحك بنا ويسخر منا وقد أحضر معه وردة. . .) واستدار إلى المتهم بنظرة احتقار وازدراء: (أبله، الزهور لا تنبت في البرلمان!).

- (وماذا تريدني أن أحضر، زهرة أم مسدساً؟).

قال (كارلو مانيو) للوزير الكبير.

- (يا سيد كارلو مانيو، أحذّرك من أن تتكلم قبل أن أسمح لك - كما أنه ليس بإمكانك أن تتكلم عن أشياء لا علاقة لها بموضوع النقاش). حذره السيد الرئيس في حين نظر إلى الوزير الكبير ليطمئنه بكسب تصديقه وموافقته.

- (لو أحضرت مسدساً لكنت قاتلاً، وحيث أنك أحضرت وردة ذابلة فأنت أبله، هكذا أنت، أبله). سخر منه الوزير الكبير. وتعالت الأصوات، وبدأت التدخلات تتزايد وامتزج ضحك وغضب الأعضاء معاً.

- (ألا يرغب أي عضو في أن يسأل المتهم عن أي شيء؟).

طلب الرئيس. وكثرت التدخلات لكن أحداً لم ينهض ليتكلم. بعد قليل نهض الوزير الكبير وقال:

- (نستطيع أن نجمع كل شيء وباختصار ولا نضيع وقتاً أكثر أمام أعلى دستور في البلاد حيث يجتمع ويلتقي أعلى وأرقى مواطني البلد يأتي هذا المواطن الشوارعي ليتحدانا برسالتين، وهو لم يكتبهما فحسب، بل إنه لم يقدم حتى اعتذاراً قبل أن يدخل إلى هنا، ثم أنه قادم إلى هنا ولا يريد أن يعترف بأنه مخطىء، بل إنه يصر ويؤكد على كل ما كتبه ورأيناه أيضاً وهو يخرج زهرة من الجيب. . . إنكم لترون يا سيادة وحضرات الأعضاء بأن هذا

ليس هو الإِنسان الذي ينبغي أن نثق به، ليس بالإِمكان أن تكون لنا ثقة في هذا الإِنسان).

- (وأنا أيضاً لا أثق بك، لا أثق بك أنت وأصحابك أيضاً).

قال (كارلو مانيو) بصوت جاف، وخفض رأسه، وكان أن نهض كثيرٌ من الأعضاء من أماكنهم لينقضّوا عليه، وخاف هو للمرة الثانية، وضغط على بقايا الورد في يده وركز بصره على الصليب ذي الدلالة والمغزى والصابر الذي كان فوق المنضدة حيثِ أدلى بشهادته.

- (وتهدد الآن الوزير الكبير أيضاً؟ ولنا جميعاً؟، لا، لا، لا أعتقد أنه قد تبقى ما يمكن نقاشه أكثر).

قال الرئيس بإلحاح وهو يرى إلى الوزير الكبير:

- (لسنا في حاجة إلى ثقتك، احتفظ بالثقة لنفسك، نستطيع أن نظل بدونها، والقوة، القوة كلها التي يخولها لنا القانون سنستخدمها ضدك، وفوقك كلها تنزل قوة هذا المجلس، أعلى وأرقى دستور في البلاد). تابع الوزير الكبير.

- (وبمن تريدني أن أثق؟). قاطعه (كارلو): (إذا ما صدقت الحمر فالحمر يقولون إن الزرق هم الأسوأ، وإذا ما صدقت الزرق فالزرق يقولون بأن الحمر هم الأسوأ، وإذا ما دققت بكم جميعاً فينبغي عليّ أن أقول بأنكم جميعاً من الأسوأ ـ سود مثل ربطة العنق التي ألبستموني).

ولم يكن بوسع (كارلو مانيو) أن يلجم لسانه رغم أن السيد الرئيس رفع صوته ليحذره ورغم أن تدخلات الأعضاء ارتفعت وتعالت.

- (أنتم أعلى دستور في البلاد لأنكم تفعلون ما تريدون أن تفعلونه، تسبون وتشتمون ولا أحد يتكلم أو يرد عليكم، تلعنون وتعيبون وتحقرون ويصفقون لكم، تتخاصمون وتتقاتلون ولا أحد يتقصاكم أو يحقق معكم، تقولون الترهات وتكتبونها كي لا تنسى، تجترونها، وتتعلمونها عن ظهر قلب ولا أحد يعترضكم أو يتصدى إليكم، تفعلون ما تفعلونه لا أحد يضبطكم أو ينهاكم أو يقف عليكم، ولهذا فأنتم أعلى دستور في البلاد، مثل فرسان القديس يوحنا والحكام الذين من قبلكم...).

الجمهور المجتمع في طرف الردهة صفق تصفيقة طويلة وصرخ تعبيراً على الموافقة.

- (السكوت، السكوت!). صرخ السيد الرئيس: (احذّر الجمهور، احذّره وأقول له بأنه لا يوجد هنا في الداخل غير التسامح، والتسامح فقط، هذا ليس مكانكم، وإذا ما عاد التصفيق من جديد ومن ذلك الجانب فإني سأضطر إلى طرد الجميع إلى الخارج). وخرج الوزير الكبير، لينقض على (كارلو مانيو) لكن أصحابه سارعوا فأمسكوا به، وأخذ السيد الرئيس محذراً (كارلو مانيو) فيما قامت ولبضع دقائق ضجة واحدة، ويئس هو من أن يقود أو يتحكم في الاجتماع وكاد بذلك أن يوقف الاجتماع مؤقتاً ويطرد الجمهور، لكن وبما أن كل شيء قد وصل إلى نهايته قرر أن يدع كل شيء على ما هو عليه.

(كارلو) أحس بأنه قد قال كل ما كان عليه أن يقوله وصمت، وحين توقف الصراخ نهض الوزير الكبير من جديد وخطب في الأعضاء:

- (الحقائق تعرفونها كلها، تعرفون أي عار وخزي بل فصيحة لحقت بنا، لحقت بكل أحد، وبأعلى دستور في البلاد، تعرفون كيف أن جاهنا شوه من مواطن بسيط، وإنني لأتمنى أن ننسى الفرق في ما بيننا وأن ننشد الوحدة وذلك لنثبت لأولئك الذين في الخارج بأننا نحن هنا طبقة واحدة متحدة ومتضامنة على شيء واحد وضد كل من هو خارج ذاك الباب، وكل من يقلل من جاهنا الذي هو جاهنا. لا وجود، بل لا مثيل هنا لما نحن فيه من اتحاد وتعاون، اتحاد وتعاون بين أعضاء هذا المجلس، وهذا هو الاتحاد والتعاون الذي ننشده ونبتغيه، ولم نرى من قبل قط هذا التضامن في ما بيننا. إن انتهاك الامتياز هذا وحّدنا ضد كل من يقف أو يتعرّض لأي واحد منا نحن جميعاً دستور واحد، أعلى دستور لا يقدر عليه أحد من أولئك الذين ليسوا فيه، وهذا هو يوم تاريخي).

ونهض الأعضاء جميعهم مصفقين بحماس بالغ، مخبطين المناضد التي أمامهم صارخين بكلام معبر عن الفرح، فيما شهدت ردهة الجمهور صمتاً بالغاً، ولم يكن لأحد أن يظهر أنه غير موافق، وكانت عيون القيمين التي تشبه عيون الصقور مسلطة فوقهم وجاهزة لملاحظة أقل حركة أو إيماءة تعبر عن عدم التقدير والاحترام، أو عن عدم الموافقة على كل ما قد حدث.

- (سوف لن أكرر). واصل الوزير الكبير: (أنا لا أحب أن أعيد وأكرر، لكني أطلب منكم أن نصل إلى صوت جماعي لنظهر للجميع مدى التضامن في ما بيننا، ولنقدم درساً لكل أحد كي لا تتكرر إساءة كهذه، لا سمح الله أن يتكرر ما حدث، ثم ينبغي أن يكون درساً مفهوماً جيداً، ولهذا أقترح أن يتوقف

المجلس لبعض الوقت لنفكر في المسألة ونصل إلى قرارنا الواحد أيضاً).

- (أتوافقون على أن نوقف المجلس لمدة خمس عشرة دقيقة لنتمكن من التفاهم الجماعي نزولاً عند رغبة الوزير الكبير؟).

سأل السيد الرئيس. وصرخ الأعضاء (نعم) فيما طلب الرئيس من (كارلو مانيو) أن يغادر المجلس لينتظر في الخارج حتى يرسل في طلبه ليسمع منطوق الحكم.

كانت (سيليفيا) منتظرة في باب المجلس وما أن لمحته خارجاً حتى أسرعت إليه وضمته إليها:

- (أحبك) قالت له وانفجرت باكية.

- (لماذا تبكين؟). قال لها: (آسف إذا ما أزعجتك).

في الردهات حول المجلس كان ثمة الكثيرين، متسكعين في انتظار الحكم وكان بعضهم اقترب منه وهنأه، والبعض الآخر تطلع إليه من بعد بإعجاب خائف.

- (أي طعم في شجاعتك يا كارلو؟ لم أذقه قط، وهؤلاء جميعاً، ألا تراهم؟). همست في أذنه: (كلهم معجبون بك وغيورون منك، ماذا تعتقد أن يكون الحكم؟).

سألته هي أيضاً خائفة. تبسم (كارلو) مفكراً: (لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف، لكني أحس بأنهم غير قادرين على إرسالي إلى الحبس، أنهم ضعفاء جداً يا سيليفيا من أن يصدروا عقوبة تكشفهم).

- (قد يريدون أن يتخذونك درساً، ألم يقولون ذلك؟).

كان ثقيلاً صوت (سيليفيا) بتفكيرها.

- (الدرس تلقوه هم يا سيليفيا، كل ما أردت أن أفعله أني أتسبب في فضيحة، وسبّبتها، ولهذا فهم خائفون، وإذا ما أرسلوني إلى الحبس ـ مثلما يروق له ـ يكونون قد خلقوا بذلك شهيداً، ثم يصير الحبس بعد ذلك أعلى دستور وليس البر لـ.. . بر لـ.. . بر لـ.. . مان!).

قال لها ضاحكاً: (يتمنون لكن لا يوفقون).

حين أعلن عن عودة المجلس إلى الانعقاد أعلن أيضاً حضرة بيترونيو بأن جانبي المجلس أفتهما على العقوبة التي ينبغي إصدارها.

- (بذلك). قال: (نقترح هذا المقترح). وأخذيقرأ:

- (بما أن المجلس قد حقق وبكامل الدقة في خطورة انتهاك الامتياز المرتكب من السيد (كارلو مانيو) وحيث أنه ونظراً لاعتبارات وأمور أخرى ليست في مصلحة البلد ولا شأن لها ولا قيمة بالبلد فقد تبيّن واتضح بأن المدعو (كارلو مانيو) مخطىء في القضية، لكن المجلس يطلق صراحه ويحذّره، بل ينصحه ويحذّره بجدية على ألا يعود إلى تصرف من هذا النوع).

لحظتها نهض أعضاء الجمهور واقفين وأخذوا يصفقون، ولم يتنفسوا.

- (السكوت، السكوت). صرخ الرئيس: (سأطلب إلى الجمهور أن يذهب إلى الخارج). قال وتذكر بأن الاجتماع قد انتهى.

- (لماذا يصفقون؟).

سأل الوزير الكبير بهمس حضرة بوترينو الجالس بجانبه وزم

بوترينو شفتيه وألصق كتفه بالوزير الكبير وقال له في أذنه:

- (يبدون فرحين ومقتنعين. . . بالحكم).

- (لكن هذا التصفيق، لنا أو له؟).

أراد أن يعرف الوزير. تبسم حضرة بيترونيو بسخرية:

- (يبدو أنهم فرحين له).

- (الاكتشافه مخطئاً؟).

كاد الوزير الكبير أن يرفع صوته، وعاد حضرة بيترونيو فزم شفتيه ورفع حاجبيه بشيء من التهكم والسخرية:

- (اكتشفناه مخطئاً وأطلقنا سراحه. . .).

- (لكن ماذا استطعنا أن نفعل؟).

- (كان علينا أن نتجاهله من البداية).

- (وذلك أيضاً ما فكرت به، لكن لا، لا، ما هذا الذي تقوله؟).

- (نحن أعلى دستور في البلاد، لكن ذلك الشاب انتصر علينا، ويمتلك قوة أكبر منا - جميعاً).

- (وهل ستتلقح أنت أيضاً بهذه الترّهات؟).

- (لكن ألم يعني هذا الحكم الذي كان علينا أن نصدره؟، انتصر علينا).

- (أخذنا درساً وعبرة لمرة أخرى. . .).

- (المرة الأخرى لن تصل. . .).

وتبسم الاثنان ابتسامات خفيفة ثم نهضا مستندين بقبضاتهم على

المنضدة، فيما نهض الأعضاء الآخرون لتوهم من أماكنهم بعد أن رفع السيد الرئيس الجلسة.

بضع دقائق انقضت على (كارلو مانيو) منذ أن تلقى الأوامر بمغادرة المجلس الأول واحد، وحين انطلق إلى الخارج أخرج الوردة المتفتتة من الجيب، القلب الذي ملتصق بيده وتركها لتقع على الأرض، وفي مدخل الباب مباشرة حيث ينبغي على كل أحد أن يخرج من هناك، وكل أحد داسها. الناس كانوا في انتظاره، في الخارج، وكانوا يرون إليه بفضول وإعجاب وهم على مبعدة منه، لكنهم صفقوا له ومشوا قليلاً خلفه إلى أن غذّا سيرهما هو وسيليفيا متعانقين وتباعدا. كانت سيليفيا متبكمة وفرحة في آنٍ معاً وكانت أحياناً لوحدها، على أن (كارلو) ضمها إليه ودعا لوحده، دعا ودون أن يمكنها من سماعه:

- (مبارك أنت يا مولاي الذي لوّنت كونك على هذا النحو، مبارك ومبارك أنت الذي مكّنت هذه المخلوقات الضعيفة من أن تنبت أيضاً و. . . بالسوط في أيديها، وبهذا يبدو أفضل وأفضل، مثل الصبح عقب الظلام، عبقرية فنانيك. أشكرك لخلقك هو ميروس Homer[101] وشكسبير Shakespeare[102] وبتهوفن Beethoven[103] وشوبان Chopin[104] ومايكل أنجلو

(101) هوميروس: شاعر يوناني صاحب ملحمتي الإلياذة والأوديسة (القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد).

(102) شكسبير: شاعر الإنجليز الأعظم ومسرحي (26 إبريل 1564 ـ 23 إبريل 1616 م).

(103) بتهوفن: موسيقي ألماني (17 ديسمبر 1770 م ـ 25 مارس 1827 م).

(104) شوبان: موسيقي وعازف بيانو بولندي (مارس 1810 م ـ 17 أكتوبر 1849 م).

Michelangelo[105]، وليونـاردو دفـينشـي Leonardo Da Vinci ليسطعون في ليل هذه المصابيح المطفأة. مبارك تواترك وإيقاعك الذي نفثت في الكون كي يكبرا معاً: الطيب والخبيث، وكي لا تتوقف الحرب التي أعلنتها بينهما قط، وإني اليوم لأدرك جيداً بأن هذا الكون لا يحتمل هذا الثقل كله، ولو أنك أغرقته بهم فقط لتشقق لك إلى حد الانقسام. لقد أحسنت صنعاً حين مزجت العبقري بالعادي أو المتوسط. دائراً يظل يومك بتوازن وتساوق الضوء والظلام فيما ينبثق جميلاً ومبهجاً فجر يديك عقب ليل المصابيح الفارغة. مبارك أنت الذي خلقت دنيا منقوصة ودفعت فوقها شرارة الفنانين. هكذا أكثر وأكثر تحمر الجمرة الأجمل التي تركت مصطفيك بلطف يسرقونها منك حين قفلت عيناً واحدة، ولقد وهبت مصطفيك صيغة السحر ليبشرون بها الآخرين جميعهم عدا أولئك الذين نسيتهم أنت في الليل الذي يدفن فيه كل شيء وجعلتهم يحكمون بالسوط، وقد أردت للمصابيح المنسية أن تلعب بالسلطة وعنهم أخبأت نارك: لقد خنتهم، فمبارك أنت أيها الخائن، وها أنا لتوي أدرك توازنك واتساقك، إذ لو لم يكن لك أن تفعل ذلك لتشقق لك الكون الذي خلقت. مقدساً ومباركاً يكون اسمك أيها الأخرس ذو الفروق يا الله!.

(105) مايكل أنجلو: رسام ومثال إيطالي (6 مارس 1475 م ـ 18 فبراير 1564 م).
(106) دفينشي: رسام ونحات وموسيقي إيطالي (1452 ـ 2 مايو 1519 م).

إن "الزهور لا تنبت في البرلمان" الذي ليس بالبساطة اعتباره عملاً روائياً - ككل الأعمال - يظل عملاً متفرّداً وقائماً أيضاً على حريّة وإرادة الإنسان. وأنه ومثلما يعلّم لعمل إبداعي خلاّق. يثير الإعجاب ويقرأ دونما عناء لكن بشيء من العاطفة والشّفافية. كما أنّه يثير على مدى ليس بقصير ويدفع بالقارىء الى التفكير مباشرة في النتائج.





شعبة التثقيف والتعبئة والاعلام